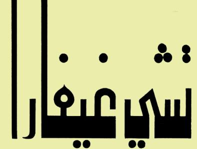
تأليف : ريكاردو روخو

ترجمة : نزيه الحكيم



حياته وموته



"تشي" غيفارا

حَيَاتُهُ وَمَوتُهُ

الطبعة الأولى
كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨

«تشي» غيفارا

حَياتُهُ وَمَوتُهُ

بقلم صديقه:

ريكاردو روخو

ترجمة:

نزيه الحكيم

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

من المعرّب

هذه ليست مقدمة . هي مجرد ملاحظة أشير فيها الى أن المواطن العربي ، وهو يحاول – عبثاً حتى الآن – تجديد تلمس دوربه إلى الحريـة ، لم يقرأ قط لأحد طلاب الحرية المحدثين وعنه في مثل هذه الفسحة القصيرة من الزمن كما قرأ لـ « تشي غيفارا » وعنه ، حتى ليبدو – أياً كان الموقف من هذا الرجل – كأن الناس استهلكوا فكره وهو بعد في مطلع تفتحه ، كما استهلكه القتال في الطرف الآخر من القارة وهو بعد في شرخ شبابه .

لذلك ما كنت أرى لهذا الكتاب الجديد عن غيفارا أن يترجم هو الآخر الى العربية لو انه كان مجرد كتاب آخر عنه .

ولكنه كتاب مختلف .

كثيرة جداً ، وبالغة الشأن ، هي الخفايا التي يكشفها مؤلفه من حياة صديقه غيفارا لأول مرة ، حتى ليكاد يرتسم من خلالها امامنا وجه له جديد كل الجدة . وهامة جداً هي الأضواء التي يلقيها على بعض المبهم من أحداث هـذا العصر ، ووجوه النظر التي يقلبها في مختلف سمات الفكر والعمل الثوريين اليـوم ، حتى لنكاد نفهم أوهامنا ومآسينا من خلاله . وهو بعد ، الى هـذا وذاك ، يضع غيفارا وضعاً حقيقياً لأول مرة ، ومنذ شبابه الأول ، في اطـار ما لا يعرف العرب إلا القليل عنه من طبيعة الثورة وتطورها في أقطار امريـكا اللاتينية ،

تعشش وتخبو ، وتنجح وتخيب ، وتكون شعبية حقاً أو تنمسخ في انقلاب عسكري ، طول العقدين الماضيين .

ولهذا السبب رأيت الاحتفاظ بكل الهوامش الايضاحية التي وضعتها مترجمة الكتاب إلى الفرنسية (التي نقلته عنها لعدم توفر النص الاسباني) ،حتى لا يضيع القارىء بين أسماء شخصيات ومواقع وأحداث بعيدة قلما طرقت اذنه ، فاذا أضفت اليها شيئاً من عندي حين تدعو الضرورة – وقد حدث ذلك مرات قليلة – أشرت إلى مصدره بكلمة « المعرب » .

وأخيراً ، ايضاحان لغويان. الأول اني احتفظت للأسماء والألفاظ الاسبانية والهندية بنفس اللهجة التي تلفظ بها في بلدها . أما الثاني فهو أني – حرمة للثوار الحقيقيين – تبنيت ما سبق اليه بعض المترجمين من استخدام « الغوار » و « المغاورين » بدلاً من المصطلحين الشائعين الشائنين « حرب العصابات » و « رجال العصابات » .

نزيه الحكيم

« علينا أن نتحلى بالصلابة ، ولكن
دون أن نتخلى أبداً عن الرقة » .

تشي غيفارا ، ١٩٦٧ .

الكتاب الأول

غيفارا يكتشف أمريكا اللاتينية

١

ثورة في الضباب

في شتاء ١٩٥٣ هرب شاب من مخفر للشرطة في مدينة بونس آيرس . كانوا قد اعتقلوه قبل عشرة أيام ، في وقت كانت الشرطة السياسية تحاول فيه التحقق من مدى جدية احدى حركات المعارضة ، وبصورة خاصة تحاول أن تعرف هل كانت هذه الحركة على صلات وثيقة ببعض ضباط القوات المسلحة . وكان هذا السجين قد انتهى إلى الرأي بضرورة الهرب بأية وسيلة ، بعد أن زجوا به في السجن وأخضعوه لسلسلة من الاستجوابات المرهقة ؛ اذ كانت شحنات من « الديناميت » قد تفجرت في قلب المدينة فقطعت على الرئيس « بيرون » خطاباً كان يلقيه على حشد من العمال اجتمعوا أمام قصر الحكومة في « ساحة أيار » ، فاتهموا هذا الشاب بالاشتراك في مؤامرة تفجيرها دون أن يملكوا على ذلك أي دليل ، لا لأنه كان ضالعاً حقاً في هذه المؤامرة ، بل لأن جهاز الشرطة الارهابي كان حريصاً على اثبات كفاءته ، بالقاء القبض على كل من كان موضع شبهة . ولذلك ، وبعد تفكير طويل ، هرب من معتقله فجر يوم ٤ أيار ١٩٥٣ [١] ، بينما كان حارسه يظنه ذاهباً إلى دورة المياه . انسل إلى الشارع

(١) ألفت القارىء العربي الى أن شهر أيار (مايو) في نصف الكرة الجنوبي يقابل من حيث توزيع الفصول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في نصفها الشمالي . (المعرب)

على مهل ، دون أية مساعدة خارجية ، وقصد إلى سفارة غواتيمالا فوافقت على استقباله ومنحته حق اللجوء الدبلوماسي ، وإذ ذاك اطمأن إلى انه أصبح في أمان .

هذا الرجل الذي أحدثك عنه ، كان أنا . ولكن التغير الضخم في الاطار الذي كانت تدور فيه الأحداث المعاصرة لهذا الهرب ، وفي وعيي لمسار التاريخ الذي قدر لي أن أعيشه ، يجعل من اليسير عليّ أن أعود الى التفكير في أمر ذلك الشاب – الذي كان من أجل حريته يتعرض للرصاص المتساقط خلفه في الشوارع كأنه الطريدة يجدّ في اثرها الصيادون – كما لو كان شخصاً غيري .

مع هذا ، كنت أنا ذلك الهارب . كنت محامياً في التاسعة والعشرين ، ربيب أبوين من أصحاب الأراضي الزراعية يعطفان على المعارضة . وكنت ، عملياً ، قد انصرفت بجهدي كله إلى العمل في لجنة كان « الاتحاد الوطني الراديكالي » ، وهو حزب المعارضة الرئيسي ، قد أنشأها لتتولى الدفاع عن أولئك الذين تعتقلهم السلطات بسبب من نشاطهم السياسي أو النقابي . وكانت هذه اللجنة تضم أربعة أعضاء ، برأسهم « أرتورو فرونديسي »[1] صديقي إذ ذاك ، والرجل الذي لا ريب عندي في انه كان معلم جيل من القيادات

---

(١) محام وسياسي ارجنتيني ولد عام ١٩٠٨ ، وكان زعيم الجناح اليساري العلماني في الحزب الراديكالي الارجنتيني . انتخب نائباً عام ١٩٤٦ فكان الناطق بلسان المعارضة في عهد الجنرال بيرون . على أنه عام ١٩٥٨ فاز برئاسة الجمهورية بفضل تأييد أصوات البيرونيين ... وهذا ما جعل عهده حافلاً بسلسلة من الأزمات بين الجيش والأحزاب والنقابات والبيرونيين وغيرهم . وحين فاز البيرونيون بأكثر من نصف المقاعد في مجلس النواب الاتحادي وفي أكثر مجالس الولايات ، في انتخابات ١٩٦٢ ، خلع العسكريون « فروندیسي » وفرضوا عليه الاقامة الاجبارية . (المعرب: على صعيد الاهتمامات العربية يحسن بنا أن نضيف أن فروندیسي كان من أصل يهودي ، ظاهر التأييد لاسرائيل ، وهو الذي يسر لها خلال رئاسته تهريب الألماني « ايخمان » من بونس آيرس ، وكانت له مواقف متذبذبة ، ولكن متصاعدة التأييد ، لثورة التحرر في الجزائر) .

السياسية ، جيل قدر له أن يستلم السلطة معه بعد بضع سنوات. أما عام ١٩٥٣ فكان فروندیسي لا يزال شخصية «صاعدة» في حزب طغى على سياسته موقف ظرفي أصبح جزءاً لا يتجزأ من وجوده ذاته : هو موقف معارضة حكومة الجنرال « خوان بيرون » [١] .

وكان لحزبنا – الحزب الراديكالي – سجل طويل حافل بالخدمات التي اداها للارجنتين . كان فخوراً بأنه ، في مناسبات عديدة ، حقق الظفر لوجهة النظر القومية على صعيد السياسة الاقتصادية وصعيد العلاقات الدولية . كما كان موضع اعتزازه انه استطاع دفع التشريع الاجتماعي في الاتجاه التقدمي وأنه فاز بولاء مئات الالوف من العمال . ولكنه عام ١٩٥٣ ، وهو يعارض حكومة بيرون ، كان يجد كثيراً من العناء في محاولة دمغها بخيانة تلك المبادىء السياسية التي طالما ناضل هو نفسه تحت رايتها . كان عاجزاً عن التغلب على هذا التناقض بين حاجته السياسية إلى قيادة المعارضة حتى النصر وبين شعوره بأنه لم يكن هنالك ما يبرر هذه المعارضة ما دامت قائمة على اتهام الحكومة بالامتناع عن عمل ما كانت – في واقع الأمر – تقوم به افضل قيام .

هذا التناقض ، لم يكتشفه أبناء جيلي إلا بعد فوات الأوان ، أو لم يكتشفه بعضهم أبداً. كنا اغراراً، أطهار القلب ، فانزلقنا بالعصبية الحزبية الى معارضة

---

(١) ولد بيرون عام ١٨٩٥ ، ودرس في الكلية العسكرية ، ثم اشترك في دورات تدريبية في إيطاليا على عهد موسوليني . وفي ١٩٤٣ اشترك في انقلاب عسكري أصبح بعده وزيراً للحربية ، ثم انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٤٦ وأعيد انتخابه عام ١٩٥١ . وكانت زوجته « ايفا » (أو ايفيتا) صاحبة فضل كبير على شعبية . وقد سيطر البيرونيون على الأرجنتين بواسطة الجيش واتحاد نقابات العمال . وبدأ نجم بيرون بالهبوط بعد وفاة زوجته (التي حاول اقناع الكنيسة باعلان قداستها !) باصطدامه مع هذه الكنيسة ذاتها . وقد أسقطه تمرد البحرية والطيران عام ١٩٥٥ . وهو الآن لاجىء في اسبانيا (بعد الباراغواي وسان دومنغو) ، ولكن البيرونيين لا يزالون حتى الآن (برغم انقساماتهم الداخلية) يؤلفون احدى أهم القوى السياسية في الأرجنتين .

النظام البيروني من أجل طائفة من الأسباب ثبت مع الزمن انها كانت أقرب إلى البطلان ، ولكننا لم ندرك ذلك في حينه . كنا مؤمنين أن مكاننا هو في صف اليسار ، ومع ذلك كنا نرفض الاقتناع بوجود أية علاقة ما بين الطبقة العاملة البيرونية وبين اليسار المثالي الذي كنا نحلم به .

هذا الصراع الذي وسم جيلاً بكامله ، ربما كان هو الذي الذي دفعنا اذ ذاك الى مغادرة الارجنتين ، بالاضافة الى عوامل شخصية تنضاف اليها مبررات أخرى : فلقد كنا على قناعة بأن لبلدان امريكا اللاتينية رسالة مشتركة ، وبانه ما كان لهذه الرسالة أن تتحقق انطلاقاً من الارجنتين لأن حكومتها وخضوعها الكلي لأوربا بصورة عامة كانا اذ ذاك يغرقانها في لجة العزلة .

كان بنا توق الى معرفة الواقع بالممارسة ، وكان يعتمل في نفوسنا شوق مثله الى المغامرة: عنصران كانا، بأقدار نسبية تختلف باختلاف الأزمان والأشخاص، يجتمعان دائماً لدى الطلاب الذين كانوا من جيل « ارنستو غيفارا » .

المعرفة والمغامرة ! لطالما تبادلت معه عنهما الحديث فيما بعد ، منذ أن جمعنا اللقاء فيمنزل لاجيء ارجنتيني يقيم في ضاحية مدينة « لاباز » ، عاصمة بوليفيا .

كانتقد انقضت أربعة أسابيع على هربي ولجوئي الى سفارة النظام اليساري الغواتيمالي،حين سمحت لي الحكومة الارجنتينية بمغادرة البلاد. وكان « اسماعيل غونثالز أريفلو » ، سفير غواتيمالا في بونس آيرس ، رجلاً « قومياً » [١] . لا يخفي لعبته : فهو لا يألو يندد بالعدوان الذي كان يهيأ ضد بلاده ، ويعلن أسماء

---

(١) سأستخدم عند اللزوم كلمة « قومي » بدلاً من « وطني » في مقابل كلمة Nationaliste ، لأن هذه الكلمة في أمريكا اللاتينية لا تشير الى أنصار الاستقلال الوطني فحسب ، بل أيضاً الى دعاة النضال من أجل الوحدة « القومية » لبلدان أمريكا اللاتينية ، ثوريين وتطوريين على السواء ، ولا سيا تجاه الولايات المتحدة الأمريكية . والصراع ، هناك أيضاً ، شديد بين « القومي » و « القطري » ، وكذلك على صعيد آخر بين « القومي » و « الأممي » . وكل « قومي » ، في امريكا اللاتينية ، هو اقتصادياً ضد « الليبرالية » (المعرب) .

المسؤولين عنه ، ولا يتردد من أجل ذلك في استخدام أعمدة الصحافة البيرونية. هكذا كانت نظرية الثورة الأمريكية اللاتينية وممارستها تلتقيان لدى هـذا الرجل الذي قادني في سيارته ذات صباح حتى المطار ثم رافقني حتى الطائرة التي أقلتني ، سليماً طليقاً ، الى الشيلي ، على السفح الآخر من جبال « الآندس » .

وكان يحكم الشيلي صديق لبيرون ، هو الجنرال « كارلوس ايبانييز » [1] : رجل كان يظلمه الساخرون منه حين يتحدثون عن التقاء التشدد والعجز لديه منذ أن انقسم اليسار الشيلاني يؤيده بعض ويحاربه البعض الآخر . فالواقع أن سياسة « ايبانييز » كانت تكراراً لذلك المزيج من الانتصارات والهزائم ، ومن التقحم والنكوص ، الذي كان – ولكن على مقياس أوسع – طابع السياسة البيرونية . ولكن ، بالاضافة الى ذلك ، كان اليسار الشيلاني يعكس أوهامه وأمراضه ، وآماله وسقطاته ، على هذا الحكم الذي كان ، لا أسير تناقضاته الخاصة فحسب ، بل أيضاً أسير تناقضات المجتمع الشيلاني الذي كان « ايبانييز » يبذل كل ما في وسعه لحل مشكلاته .

كانت تلك أولى رحلاتي خارج الأرجنتين ، فأخذني حين اجتزنا قمم « الآندس » الشاهقة دوار لم يكن سببه العلو وحده . ففي سحابة الحزن التي تغيم على وجوه الشيلانيين – هؤلاء الناس العجاف ، المتواضعين الشامخين في آن واحد – كنت أكتشف الصورة الأولى للعرق الأمريكي ، هذا النتاج الانساني السلس المضطرم ، المختلف كثيراً في ظاهره مع أنه واحد أبداً أنى ضربت في القارة .

وكنت في الشيلي ، عائداً من زيارة لمنجم « الملازم » ، حين علمت من الاذاعة أن أولئك « الارهابيين » الارجنتينيين ، الذين قاسمهم الجريمة في بونس آيرس ، لم يعودوا وحدهم في الساحة : اذ أن فريقاً من الطلاب الكوبيين – في الطرف

---

(١) جنرال شيلاني ، كان رئيساً للشيلي من ١٩٢٧ الى ١٩٣١ ومن ١٩٥٢ الى ١٩٥٨ .

الشمالي من القارة – انتهز هرج « الكرنفال » في محاولة لاحتلال احدى الثكنات . نبأ وجيز بلا تفاصيل ، ولكنه – كما أدرك ذلك مذيعه نفسه – كان كافياً ليجعل الناس يتوقعون اختلاجات سياسية عنيفة في كوبا ، في مستقبل قريب .

وبعد ثمانية أيام من هذا الهجوم على ثكنة « مونكادا » وصلت الى « لاباز » ، عاصمة بوليفيا ، حيث كان الحكم الثوري « القومي » يحتفل احتفالاً صاخباً بحدث تم اعداده بعناية ، هو التصويت على قانون الاصلاح الزراعي ، هذا القانون الذي جعل من حكومة بوليفيا ثانية حكومات القارة جرأة على الأخذ بمثل هذا الاجراء الجذري .

وعاصمة بوليفيا أكثر عواصم العالم ارتفاعاً ، بنيت على شعب في الجبل يعلو حوالي خمسة آلاف متر عن سطح البحر . وقد تكيف مزاج البوليفيين بمناخ هذه الهضبة السامقة ، التي تجتمع فيها المدن الرئيسية برغم كونها للنظرة الأولى تبدو غير صالحة للسكنى : فأنت لن تجد عناء في أن ترى انعكاس هذه المجابهة المأساوية بين الانسان والطبيعة على الحياة السياسية البوليفية ، حيث يغلب أن تكون رئاسة الجمهورية مدخلاً إلى ميتة دامية ، وحيث الناس يقتلون ويُقتلون بكل جوانحهم كأنما يتعجلون الخلاص من كل شيء .

ولكن بوليفيا عام ١٩٥٣ كانت – على العكس – في ذروة الحماس الشعبي ، وكانت حكومتها القومية قد استصدرت في أكثر قليلاً من سنة قانونين اصلاحيين رئيسيين ، نص أولهما على تأميم مناجم القصدير – أهم مناجم العالم – وحقق الثاني اصلاح نظام الملكية . وكانت هذه الاجراءات تبعث على الأمل بتغيير جذري في بنية البلاد الاقتصادية ، هذه البنية التي كان قد جمدها نظام الملكيات الكبيرة ، اذ جعل استغلال الأرض يجري حتى ذلك الحين في ظل نظام اقطاعي أو شبه اقطاعي ، بحيث كانت الانتاجية جد منخفضة وكان ثلاثة ملايين من البوليفيين يعيشون حياة بائسة لا تجد لها تفسيراً لدى شعب هو السليل المباشر

لحضارة « الإينكا » ، الذي كان ، مثلها ، مزهواً بجعل شعاره : « لا لص ، ولا كاذب ، ولا كسول » .

ان نظام ملكية الارض ، في وجدان الشعب البوليفي ، يرتبط أوثق الارتباط بتاريخ هذا الشعب نفسه . ففي القديم كانت حضارة « الآيمارا » [1] . – القائمة في جوهرها على الزراعة – تحاول جعل استغلال الارض مجزياً بقدر المستطاع ، وتعتبر هذا الاستغلال من اختصاص الجماعة . بذلك كان « الآيمارا » أجداداً قدماء للشيوعيين ، وان حافظوا على مبدأ الملكية الخاصة في ما يتصل بالأموال المنقولة . ثم جاءت حضارة « الإينكا » أو « الكيتشوا » [2] . فأحكمت التنظيم الزراعي الذي ورثته مدخلة عليه أعرافاً جديدة ، من أهمها قيام أبناء الفخذ الواحد ، أعني المتحدرين من جد واحد ، باستغلال أرض جماعتهم بصورة مشاعية . (وقد بلغ من تأصل هذا العرف في المعاملات أنه كان عام ١٩٥٣ لا يزال سائداً في بعض مناطق بوليفيا) . على أن الغزاة الاسبانيين ألغوا هذا النظام الجماعي العشائري ، على رغم تعهدهم باحترامه ، بحيث لم يلبث أهالي البلاد أن خسروا ملكهم الموروث وانقلبوا أقناناً لدى المالكين الجدد . وفي القرن التاسع عشر ، حين أعلن « سيمون بوليفار » استقلال البلاد ، اعاد في الوقت نفسه الى هؤلاء المواطنين ملكية الأرض التي يعيشون عليها ، لا إحقاقاً للعدالة فحسب ، بل تحاشياً لانبعاث الاضطرابات الاجتماعية التي كانت قبل قليل قد استعرت في فنزويلا فشلّت حربها الاستقلالية . وكانت

---

(١) حضارة سابقة لحضارة « الإينكا » ، يبدو أنها امتدت من جنوب كولومبيا الى بوليفيا ، ثم تركزت بصورة خاصة على الهضاب العالية المحيطة ببحيرة « تيتيكاكا » ، حيث فرضت عليها العزلة بعد انتصار « الكيتشوا » .

(٢) كان « الكيتشوا » حين دهمهم الغزو الاسباني يحتلون ساحل المحيط الهادىء ويؤلفون دولة واسعة تشمل بوليفيا والبيرو (باستثناء المنطقة الامازونية) وكل الاكوادور تقريباً . وقد أطلق الاسبان على هذه الدولة اسم امبراطورية « الإينكا » ، وهو اسم القبيلة التي كانت تنتسب اليها الأسرة الحاكمة .

هذه التجربة الجديدة كافية لاقامة الدليل على أن شيوع ملكية الأرض واستغلالها يضمن دوام الاستقرار الاجتماعي ويحقق المردود الأمثل ، ولكن الحكام البوليفيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يقيموا لدروس الماضي أي وزن ، فأعلن الطاغية « ملغاريخو »[1] عودة ملكية أراضي الجماعات العشائرية المحلية الى الدولة ، واستملكها ، ثم باعها لرجال بطانته بأثمان رمزية بخسة : سياسة أدت الى فوضى في ميدان الزراعة لا حدود لها ، ما انفكت تتدهور الى أن جاءت الحكومة القومية تفرض الاصلاح بقانون ١٩٥٣ ، فتمنح الارض على الفور لكل المواطنين الذين جاوزوا الثامنة عشرة والذين يعيشون من الزراعة أو يرغبون بالانصراف اليها . ولقد كان هذا اجراء ثورياً دون ريب ، ولكنه لم يكن بالاجراء الذي يخشى أن يثير تدابير ثأرية دولية ، لأن بوليفيا كانت عملياً خالية من المالكين الاجانب في الريف ،فكان كافياً لاستطاعة اصدار مثل هذا القانون أن تقضي الثورة على المعارضة الداخلية .

والواقع أن ما سبق ذلك من مقاومة وضغط شعبيين داخليين كان له فيه الأثر الحاسم : فقبل سنة من ذلك ، خلال « أسبوع الآلام » لعام ١٩٥٢ ، اضطر الجيش المحترف إلى الانهزام أمام قوة متنوعة العناصر ، تتألف في أكثرها من عمال المناجم والفلاحين والجنود الهاربين من الخدمة وبعض وحدات الشرطة ، قاتلت هذا الجيش تحت قيادة « الحركة القومية الثورية »[2] . وكان اذن نتيجة

---

(١) « خوسه ماريانو ملغاريخو » ، جنرال ودكتاتور حكم بوليفيا من ١٨٦٥ الى ١٨٧١ .

(٢) حزب سياسي بوليفي انشىء عام ١٩٣٩ . كان في البداية مؤيداً لدول المحور ، وكان من برنامجه الداخلي تأميم مناجم القصدير (وقد تم ذلك عام ١٩٥٢) . وقد ظل « فيكتور باز استانسورو » مؤسس الحركة رئيساً للجمهورية حتى ١٩٦٤ ، تاريخ استيلاء الجنرال « بارينتوس » على السلطة . وتلتف « الحركة القومية الثورية » الآن، بأجنحتها العديدة ، حول زعمائها المنفيين : « باز استانسورو » ، و « سيلس سواصو » و « خوان لتشين » زعيم عمال المناجم . (المعرب : هذا الأخير من أصل لبناني) .

طبيعية لانحدار الجيش متفقة، مع النظرية الثورية التقليدية، أن تقوم حكومة تفسح مجالاً واسعاً لتمثيل العمال والفلاحين، وتصدر وتنفذ قوانين هامة كهذين: تأميم المناجم والاصلاح الزراعي. وكنا اذن سنشهد هذا الحدث التاريخي كما لو كان مشهداً تمثيلياً، يزيد من روعته لدينا أن نرى هذا الشعب البائس، المستذل منذ قرون طويلة، يرفع أخيراً رأسه ويقاتل بالسلاح ليسترد مفقود كرامته وملكه.

في هذا المشهد، كان «الممثلون» دائمي التطواف في العاصمة التي تحيط بها الجبال من كل صوب. وفي الأزقة الضيقة المتعرجة، بين صفوف المنازل ذات الطراز «الاستعماري»، وفي جو تختلط فيه رائحة المقليات برائحة البارود، كانت نساء «التشولا»[1] رائحات غاديات وأطفالهن على ظهورهن، لا يمنعهن السير – على عادتهن – من أن يغزلن صوف «اللاّمة» المصبوغ بالألوان الفاقعة. أولئك هن النساء الذين حملن بنادق الرجال، وقاتلن مثلهم في الشوارع.

أما أنا فكنت أطل على المشهد من نافذة في «فندق النمسا» كنت أرى منها قصر الحكومة وجانباً من الشارع الذي تقوم فيه ادارة البريد. وكانت هذه النافذة دون ريب أفضل موقع للمراقبة، لأن كل المظاهرات في هذه الأيام الصاخبة كان لا بد لها أن تعرج على مقر الحكومة.

كانت هذه المظاهرات تنتظم طوابير، تعيد الى الذهن ذكرى الجيش الشعبي المسلح، وتتناقض بهجتها الصاخبة مع الاحترام الذي يوحي به منظر الاسلحة «الاوتوماتيكية»: بهجة سريعة العدوى، كانت تجوب الشوارع وتغمر الجميع وتظل نابضة بالحياة حتى بعد أن يزول ما ابتعثها من سبب رسمي. وكانت وفود المتظاهرين تدخل القصر ثم تخرج منه، وينصرف بها رؤساؤها فيغيبون عن النظر، ولكن الجماهير لا تتوقف عن الرقص في الشوارع، يشاركها فيه

---

(١) «التشولا» هم الطبقة الدنيا من الهنود في البيرو وبوليفيا.

رجال الامن فيؤكدون بذلك ما بين الحكم والشعب من علاقـــات ودّ ، حتى ليعسر عليك أن تفهم الى أي هدف كانت تصوب تلك الطلقات النارية المتلاحقة تشق بين الحين والحين ظلمة الفجر المقترب .

وفي « لاباز » كان يعيش عدد من الارجنتينيين لا أعرفهم . كان بينهم بضعة ضباط من سلاح الطيران ، هربوا قبل ذلك بسنتين في أعقاب محـاولة انقلاب فاشلة ، فانتهوا الى العمل في بناء طريق بين « سانتاكروز » و « كوتشابامبا » . كذلك كان هنـاك بضعة مغامرين يبحثون عـــن نـثرات الذهب في وادي « تيبواني » ، وأخيراً كان هنـــاك « اسحاق نوغيس » ، وهو نائب أرجنتيني معارض كان زعيماً لحزب ريفي ظل هذا الرجل وفياً له على بعد الشقة ، كريماً في دعمه بما تدره عليه مزرعة لقصب السكر كانت ملكاً لأسرته .

وذات مساء ، في منزل « نوغيس » – وهو دون ريب أغنى الارجنتينيين المقيمين في « لاباز » وأعلاهم مكانة – تعرفت إلى « ارنستو غيفارا » .

كان غيفارا اذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، طبيبـاً ولوعاً بدراسة الآثار . وكان بحكم تخصصه قـد انصرف الى تعميـــق البحث حول أسباب الامراض ، فابتعد به هذا الموقف تدريجياً عن ممارسة الطب الى الاهتمام بالسياسة .

وكان « نوغيس » يقطن في « كالاسيتي » ، تلك الضاحية السكنية الـــتي كانت اذ ذاك مقام الشخصيات البارزة في النظام الجديد . وكان قـد دعانا الى طبق دسم من « اللوكرو » ، المطبوخ بالذرة واللحم ، لم يطفىء شهيته الجياشة ولا أشبعنا من جوع فحسب بل كان وليمة سخية لمواطنيه الارجنتينيين .

في هذا اللقاء الاول ، لم يخلـّف غيفارا في نفسي أي انطبـاع خاص . كان يتكلم قليلاً ، فيصغي طويلاً الى حوار الآخرين ثم يفاجئهم بابتسامة تشل النقاش يرفق بها جملة لا سبيل بعدها إلى الرد . على أننا في ختام السهرة عدنا معـاً الى « لاباز » سيراً على الاقدام ، وأصبحنا صديقين على رغم أنه لم يكن هنـــاك ما يجمع بيننا ، سوى كوننا كلينا شابين بلا مال . فلم تكن الآثار القديمة لتعنيني

ولا كان هو اذ ذاك معنياً بالسياسة كما كنت أفهمها وكما أصبح هو نفسه يفهمها فيما بعد .

وضواحي « كالاسيتي » ، في الليل ، بالغة التأثير في النفس . فالقمم الشاهقة المجاورة التي قرضها الزمن ، كأنها مزامير أرغن ضخم ، تبدو على الافق وكأنها « كاتدرائية » عملاقة ، وتضفي على الليل جلالها المأساوي .

وفي هذا الاطار ، على مدى تلك الكيلومترات العشرة ، تحدثنا عن مشاريعنا واستذكرنا تجاربنا الماضية . وحدثني غيفارا عن الرحلة التي كان باشرها قبل حين ، وهو يحاول الوصول الى « جزيرة الفصح » ، على بعد ثلاثة آلاف وستمائة كيلومتر في قلب المحيط الهادىء ، ليعمل في مستشفى الجذام في « رابانوي » ، كانت تلك « رحلة حقيقية » كما وصفها هو نفسه ، تمييزاً لها عن رحلة أخرى سابقة طاف خلالها باثنتي عشرة ولاية أرجنتينية على دراجة نارية ، لحساب قسم الرياضة في مجلة « غرافيكو » (المصور) ، التي كانت مجلة هواة الآليات .

أما « الرحلة الحقيقية » فقد بدأت هي الاخرى على دراجة نارية . كان غيفارا اذ ذاك في سنته الاخيرة في كلية الطب . وكان مع صديق له طبيب ، هو « ألبرتو غرانادوس » قد بلغ مدينة « تيموكو » ليقصدا الى « فالبارايزو » فيبحرا منها إلى جزيرة الفصح . ولكن مشروعهما لم يكتمل : قيل لهما انه ليست هنالك مواصلات منتظمة مع الجزيرة ، وان مستشفى الجذام فيها لم يكن بحاجة الى أطباء ، اضافة الى ألف ذريعة أخرى لم يعد غيفارا يذكرها . اذ ذاك غيرا اتجاه الرحلة ، فقضيا ليلة في منجم « تشوكيكاماتا » ثم دخلا البيرو فزارا آثار « ماتشوبتشو » التي كان غيفارا بها بالغ السعادة . وقال لي انه في ذلك الجزء من الرحلة عانى من أزمة ربو حادة (كانت تلك أول مرة يشير فيها أمامي الى هذا المرض المضني) . ثم استطالت الرحلة بمغامرة اجتازا بها « الآمازون » حتى « ايكيتوس » ، التي وصلا بها مستشفى الجذام في سان باولو : مصح كان

غيفارا يحفظ منه أعمق الذكريات ، لأن أعمق مشاعر التكافل والوفاء الانسانيين – كما قال لي – انما تتجلى على أصدق ما تكون عفوية لدى هؤلاء البرص المتوحدين الذين لا يرجون الشفاء ، والذين كان من بالــغ امتنانهم لزيارتها الأخوية أن عبروا عن شكرهم لهما بجهد أذرعهم ، فبنوا عوامة من خشب تسمح لهما باجتياز الآمازون ، سموها « تانغو – مامبو » ، رمزاً لوحدة أمريكا المعتدلة المنـــاخ وأمريكا الاستوائية من خلال نغميها الشعبيين التقليديين .

وامتدت بهما المغامرة على العوامة حتى مرسى صغــير في كولومبيا يدعى « ليتيسيا » ، عمل فيه الصديقان كمدربين لفرقة كرة القدم المحلية . ثم استطاعا بعد ذلك أن يصلا بالطائرة الى « بوغوتا » ثم الى « كراكاس » ، حيث افترقا .

وصرف غيفارا ثلاثة أسابيع في فنزويلا قبل أن يذهب الى « ميامي » على ظهر مركب كان محملا بخيول السباق . وبعد اقامة قصيرة في فلوريدا عـــاد أخيراً الى بونس آيرس ، حيث أتم دراسته الطبيــة في ستة أشهر ، متقدماً الى الامتحان بنجـــاح في اثنتي عشرة مادة ، بالاضافة الى رسالة للدكتوراه في موضوع الحساسية .

كان اذن طبيباً متخرجاً يوم عرفته . على أن ذلك ما كان ليخطر على بال أحد اذا رأى المكان الذي يقطن فيه كما استطعت أن أراه حين رافقته اليه أول مرة : كان غرفة حقيرة في بناء كبير خرب يؤجرونه غرفاً مستقلة ، في شارع « جاناكوتشا » . فلقد كان غيفارا قادراً على أن يعيش في أكثر الأمكنة تعاسة دون أن تفارقه روح الدعابة التي كثيراً ما انقلبت تهكماً وسخرية .

ولم يكن وحيداً في هذا الكوخ ، بل كان يتقاسمه مع طالب أرجنتيني من مدينة قرطبة (كوردوبا) يدعى « كاليكا فيرير » ، كان يلتقي معه في الخصال التي يحرص أن يجدها لدى رفيقه في أسفاره . وكان على رفيق الاسفار هذا ، لدى غيفارا ، أن يكون مستعداً للسير الطويل دونما تعب ، وألا يُعنى أبـداً بلباسه ، وأن يكون صبوراً على الافتقار الكلي للمال . فاذا ما اجتمعت هذه

الخصال لدى شخص كان ما عداها ثانوي الشأن في نظر غيفارا ، بل كان لا يبالي أن يأخذ عليه شغفه بالآثار . و « كاليكا فيرير » كان في ذلك الحين مثالاً للتقيد بهذه القواعد ، وان كان انتهى الى الضيق بها آخر الأمر ؛ كما سنرى فيما بعد .

وفي هذه الغرفة البائسة من شارع « جاناكوتشا » كانت الجدران عارية ، إلا من بضعة مسامير كان غيفارا يعلق بها ثيابه القليلة الرثة ، وزكيبة نصف عمر حال لونها فاسودت لطول الاستعمال .

على أن غيفارا ، في الواقع ، لم يكن يعيش في هذا الركن الزري من أحد الأحياء الشعبية في « لاباز » ، بل كان يقضي الوقت كله في مقاهي « شارع ١٦ تموز » الصاخبة ، أو في سوق « غاماتشو » حيث كنا نشتري الثمار الاستوائية الضخمة لنلتهمها في ساعة الظهيرة .

كذلك كنت تلتقي به في مقصف « سوكري بالاس أوتيل » أفخم ملاهي المدينة ، الذي كان يدخل اليه دون أن يكترث أدنى الاكترات بثيابه الخلقة. ومن على السطيحة التي نصبت فوقها الموائد كنا نشهد طوابير الشعب البوليفي الثائر تترى بلا انقطاع : نساء « التشولا » وأولادهن على ظهورهن ، وشيوخ الهنود وقد حرقتهم الشمس و « الكوكا » يبيعون جلود الحيوانات ، وقوافل الفلاحين تزل أقدامهم على الأسفلت الأملس الذي لم يعتادوه ، ثم طوائف من الرجال في ثيابهم المهندمة يخرجون من هذه الوزارة أو تلك وهم في أغلب الأحيان « معلمون » جاءوا يعقدون اتفاقيات العمل باسم رفاقهم عمال المناجم . وبين الحين والحين يتوقف طابور الثورة عند مفترقات الطرق حيث علقت لوحات ضخمة تفسر معنى الاجراءات الاقتصادية ، في نصوص تجد مثيلها كل يوم في الصحافة الدعائية الملتزمة ، اذ أن هذا النظام « القومي » كان يضم في صفوفه أضخم وأقدر جماعة من الدعاة عرفتها بوليفيا في تاريخها : نصوص تطلق على « المستغل » و « المرابي » أقسى النعوت وتهددهما بأسوأ العواقب ،

وتؤكد لرجل الشارع أنها ألدّ أعدائه ، مقدمة له على جدران المدينة وفي صحافتها جرعة يومية من التربية السياسية تجعله أقدر على كشف القناع عن وجهيها .

وكانت احدى ملصقات « الحركة القومية الثورية » هذه تحرم على أعضائها دخول المراقص وغيرها من الملاهي الليلية التي يقصدها طالبو اللذة ، تحت طائلة اعفائهم من مناصبهم وطردهم من الحزب : دليلا على أن خمرة السلطان ، هذا السلطان الذي لم يبلغه الثائرون إلا منذ عهد قريب بالقوة وبالسلاح، كانت قد بدأت تصعد الى رؤوسهم .

على أن هذا الاسلوب في التوعية الشعبية كان يشف عن سذاجة بالغة : اذ ان الفقراء كانوا على أية حال يتبعون هذه الدعوة الى مكارم الاخلاق لانهم لا يملكون مالاً يتجاهلونها به بينما لا تلقى أي صدى لدى أعضاء الطبقة الجديدة الحديثة المولد والتي كانت تتنامى في ظلال ألوية الثورة .

ولقد حدث ذات أمسية أن أطلنا المكوث على مائدة « نوغيس » ، ننعم بواحدة من تلك الوقعات التي تهدف الى « تكوين الاحتياطي » كما يقول غيفارا ، الذي كان سواء لديه أن يبقى ثلاثة أيام دون طعام أو عشر ساعات على المائدة ، يلتهم كميات ضخمة من المآكل على غير عجل وفي متعة ظاهرة ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يمر بفترة من النسك المطلق ، مكرهاً لا بطلاً بالطبع ، بسبب فراغ جيبه أو عدم توفر من يدعوه ... في تلك الليلة ، بعد أن طعمنا وشربنا الكثير ، تطوع أحد الحاضرين بحملنا في سيارته الى « لاباز » . وبينما نحن نجتاز قرية صغيرة تدعى « أوبراخس » مررنا بدورية جنود لم ينتبه اليها منا أحد ، فاذا طلقات رصاصها تلامس دواليب سيارتنا وتعود بنا الى أرض الواقع . اذ ذاك لمحنا ، في برد الليلة الصافية ، ثلاثة هنود رثاث الملبس ، والدخان لايزال يتصاعد من بنادقهم ، يسألوننا من نحن . وأرخى غيفارا زجاج النافذة الى جانبه وقال :

– رجال مسالمون .

فسألوا في ريبة :

– ومن أين أنتم قادمون ؟

– من حيث ملأنا بطوننا ...

ثم أضاف بعد لحظة صمت ، وقد خفض صوته :

– ... لقد كانت خاوية !

وسمحوا لنا باستئناف طريقنا ، ولكن بعد أن دققوا في فحص بطاقاتنا الشخصية ، التي لا ريب أن أياً منهم لم يكن قادراً على قراءتها . وكنا لا نزال نفكر في العواصف التي قدر لهذا الشعب المسلح أن يمر بها حين بلغنا منعطفاً جذبت انتباهنا عنده لافتة مضيئة من « النيون » وموسيقى صادحة : كنا قد وصلنا الى « الديك الذهبي » ، المقصف المفضل لدى « البيروقراطية » الحاكمة الجديدة ، فأبطأنا السير تفادياً لحادث آخر من نفس النوع . ولكن أحداً ، بعد « الديك الذهبي » ، لم يطلق الرصاص على دواليبنا : فهنا لم يكن أحد يفكر بأن الثورة في خطر ، مع ان هذا ذاته كان دون ريب ما يشغل أذهان هنود « أوبراخس » ، الساهرين على الثورة في الليل القارص . وغمز غيفارا بعينه وقال بلهجة لاذعة :

– « الحركة القومية الثورية » تلهو .... [1] .

أما الواقع ، فهو أن اللهو لم يكن كل مشكلة الحركة الثورية . فندرة « الكوادر » بين الثوريين، وتركز السلطة بين أيدي فئة ضئيلة العدد من القادة، وظهور الانتهازيين والاصفياء ، كل هذه الأعراض كانت قد تجلت بارزة صارخة ، بحيث لم يكن يعمي الشعب عن الاخطار التي تحيق بالثورة الا فيض حماسه وايمانه .

---

(١) اشارة الى مسرحية فكتور هيغو الشهيرة : « الملك يلهو » . (المعرب) .

لذلك قررنا ذات يوم أن نكوّن لأنفسنا فكرة شخصية عن هيئة القيادة الثورية ، وكان من رأي غيفارا أن أفضل السبل إلى ذلك هو أن نقوم بزيارة لوزير الشؤون القروية ، فطلبنا موعداً لمقابلته . هذا الوزير كان المحامي « نوفلو تشافيز » ، وكان في مثل سننا تقريباً ، ذا جبهة عريضة توحي بالذكاء . وكان النظام السابق قد لاحقه لأنه دافع عن بعض المعتقلين النقابيين والسياسيين . ولكن اللقاء ، برغم كل ما كانت هذه العوامل تدعو اليه من تفاؤل ، ظل رسمياً شديد الفتور ، بسبب ظروف غير مؤاتية لم يكن لنا فيها يد : فلقد كان مقر وزارة الشؤون القروية في واحد من تلك الابنية « البيروقراطية » النموذجية ، سيء الاضاءة ، لا يعنى بصيانته أحد بينما يطرقه باستمرار آلاف يأتون كل يوم يعرضون مشكلاتهم الخاصة .

كانت هناك طوابير صامتة من الهنود ، « الكيتشوا » و « الآيمارا » ، وجوههم سفعتها الشمس والريح ، طويلة كأيام الجوع ، خرساء . وكانوا ينتعلون خفافاً ويرتدون سترات غريبة الطراز وسراويل من قماش خشن ، وعلى رؤوس أكثرهم عمرات نسجت من خيوط صوفية متعددة الالوان . تلك كانت ، دون ريب ، طوابير انتظار الاصلاح الزراعي ، وهؤلاء الهنود كانوا ينتظرون أن تمنحهم الحكومة الارض التي وعدهم بها القانون الجديد ، يتكاثرون داخل البناء في دهليز طويل معتم ، يقبع في نهايته – على صندوقة عالية – رجل بيده رشاش من « الكاوتشوك » ينفخ ما فيه فوق أكتافهم الواحد بعد الآخر ، فتغمرهم سحابة من رذاذ تغدو وجوههم معها بلون الدقيق ، ويطول بعدها انتظارهم وعلى سحنتهم نفس ذلك التعبير الصارم الاخرس . وقد بدت لنا عملية الرش هذه بالغة الا ذلال ، فازداد غيفارا غماً وأطلق احدى تلك الجمل اللاذعة التي كانت مألوفة لديه حين يغضبه سوء معاملة الفقراء :

– « الحركة » تقوم بثورة الـ « د.د.ت » ...

وبسبب هذه البداية لم يستطع لقاؤنا مع الوزير أن يتجاوز حدود

الجاملات ، فكان محرجاً له ولنا على السواء . وأخيراً سأله غيفارا عن الغرض من تلك العملية التي تجرح كرامة الناس ، فاعترف الوزير بأنها مؤسفة ولكنه أضاف ان الهنود لا يعرفون الصابون وليس من الممكن تعريفهم بفوائده بين يوم وليلة ، فلم يجد الثوريون علاجاً سريعاً لهذا الجهل الا التصدي لنتائجه بالطريقة التي شهدناها .

ولقد ودعنا الوزير الثوري دون أن نستطيع الخلاص من ذلك الضيق الذي خلفه في نفوسنا مشهد تلك المئات من المواطنين الذين تغطي جسدهم الحشرات فيبيدها بيروقراطي صبور كما تباد الحشرات في أخمام الدجاج في ضواحي بونس آيرس . ولما بلغنا الشارع ، وقف غيفارا أمام تمثال « بوليفار » ، منفعلاً، يلخص الموقف بقوله :

– ما ينبغي هو مكافحة الاسباب لا الاكتفاء بالقضاء على النتائج . وهذه الثورة ستنتهي الى الفشل اذا هي لم تستطع اخراج السكان المحليين من عزلتهم الروحية ، اذا ظلت عاجزة عن الغوص الى أعماق ذواتهم حتى العظم ، عاجزة عن رد كرامتهم اليهم كآدميين . وإلا ، فما جدوى الثورة ؟

في تلك الحقبة ، لم يكن غيفارا أبداً يقول بالماركسية ، بل لم يكن قد اتخذ بعد أي موقف واضح من وجهة النظر السياسية . كان لا يستشعر الا الازدراء تجاه ضيق أفق السياسة الارجنتينية ، واجداً غبطة كبيرة في إرباك صديقنا « نوغيس » الذي كان – شأن المنفيين القدامى – لا ينفك يكرر الحديث عن أسباب خلافه مع بيرون . وكان يحدث أن يبالغ « نوغيس » في وصف الأذى الذي لحق به والاشادة بما قدمه من تضحيات شخصية على مذبح الحرية ، فيترك غيفارا الملعقة الضخمة التي كان يأكل بها طبق « اللوكرو » الشهي ، ويقول في سخرية :

– عالٍ ، عالٍ ، سمعنا وآمنا . ولكن لماذا لا تحدثنا قليلاً عما تدره عليك مزارع قصب السكر ؟

وهكذا لم تكن القراءات النظرية ، بل ملاحظاته وتحليلاتـه الشخصية ، هي التي قادته الى أن يدرس الامور بمنظار جديـــد ، منظار أهمية الظروف الاقتصادية في تاريخ الشعوب والافراد . كانت أسفاره الكثـــيرة في أمريــكا اللاتينية هي التي رسمت في ذهنه صورة جلية لكل اللوحة الاجتماعية التي خلقتها فيها مجموعة من الأوضاع الاقتصادية .

ولو شئت أن أضع تعريفاً لغيفارا في تلك الحقبة ، لقلت انه كان على بينة تامة مما كان لا يريد أن تكون عليه حيـــاته ، ولكنه كان لا يزال يبحث في الظلام عما كان ينبغي له أن يفعل بهذه الحياة . وهو قـــد ولد في أسرة كانت ميداناً طيباً لتنمية شخصيته ، ولو على سبيل المناقضة : كان – سواء من طرف أبيه (عائلة غيفارا لينش) أو من طرف أمه (عائـلة لاسرنا) سليل أسرتـين أرستقراطيتين يرجع تاريخها الى ما قبل استقلال الارجنتين . ولكن كلتـــا الاسرتين كانتا قد فقدتا الجانب الاكبر من ملكها الموروث ، بحيث اضطر أبواه أن يعيشا حياة لا تختلف كثيراً عن حياة عائلات الطبقة المتوسطـــة . ولكن هذا الظرف الخاص جعل نسبها الارستقراطي ثقيل العبء عليها ، اذ كثيراً ما كان ولاء أبيه للماضي حائلاً دون نجاحه في تجارة الحاضر . كان هـــذا الأب راسخ الايمان بأنه لا يحق للرجل النبيل أن يقوم بأي عمل غير أخلاقي ، كتلك الاعمال التي تكثر في التجارة ، ففرض على نفسه الاختيار بين الاغتناء وبـين صيانة النبل الموروث ، واختار الثانية بالطبع . ولئن ورث « تشي » عن أبيه هذه الشهامة ، فهو قد رفعها الى صعيد أعلى : صعيد تحقيقها في ثورة اجتماعيـة تفرض أخيراً ملكوت العدالة على الارض. وكان منزل آل غيفارا منزل كرم ، مفتوحاً للجميع دونما تمييز طبقي ، رحب التقبـل للنشاط الفكري وللآراء التقدمية ، ولكن دون التخلي عن الاطار الارستقراطي القديم . كذلك كانت عراقة محتد غيفارا تفتحله أبواب كل البيوتات النبيلة في الريف و كوردوبا وبونس آيرس ؛ ولكن وضعه الاقتصادي كان يقوده الى اختيار رفاق ألعابه من بـــين

أبناء الموظفين أو اساتذة المدارس الثانوية ، وحتى من بين حاملي عدة «الغولف» للاعبين في الضاحية .

مثل هذه الاسرة كان لا بد لها أن تتأثر بالحرب الاسبانية التي انفجرت و « تشي » بعد في الثامنة من عمره . فلقد هزت هذه الحرب الارجنتين كما لو كانت حرباً أهلية فيها ، وانقسم أهلها الى « فاشيين » و « جمهوريين »، وكانت بونس آيرس والمدن الداخلية الكبرى مسرحاً لمظاهرات ومعارك شعبية أثبتت حكومة اليمين المتطرف العسكرية اذ ذاك عجزها عن تهدئتها أكثر من مرة . وكان لـ « تشي » عم رقيق الشاعرية ، صدمته هذه الحرب البعيدة في أعماقه ، فسافر الى اسبانيا ثم عاد منها بكتاب عنوانه « **اسبانيا تحت قيادة الشعب** » ، كان في الوقت ذاته اعلاناً عن انتمائه إلى الشيوعية . أما أبوه وأمه فكانا من أنصار العلمانية ، يؤيدانها ذلك التأييد العنيف الذي نلقاه لدى من درسوا في المعاهد الدينية (وكانت أمه بالفعل قد ربيت على أيدي راهبات كاثوليكيات بالغات الصرامة) .

في مثل هذا المناخ العائلي ، اذن ، لم يكن شيء أدنى الى طبيعة الامور من التعلق بالعدالة ، ورفض « الفاشية » ، واللامبالاة بالدين ، والولوع بالادب والشعر ، والعزوف عن طلب المال وعن الملتوي من وسائل كسبه ، وذلك التمرد الذاتي العفوي الذي أضاف اليه « تشي » وعيه التدريجي للظاهرات الاجتماعية فقاده الى بذل حياته للعمل الثوري .

هذا ، اذن ، ما كان « تشي » ، واثقاً منه : كان يأبى أن تنال الحياة من أفضل سجايا نفسه .

ولكنه ، عام ١٩٥٣ ، كان لا يزال يبحث بالدرجة الاولى عن ارواء ظمئه الى المعرفة الفكرية ، ولا سيما على صعيد دراسة الآثار . هكذا أبلغني ذات يوم أنه ينوي القيام برحلة لزيارة « باب الشمس » ، هذا الاثر الذي خلفته حضارة « الآيمارا » فظل صورة خالدة لعهدها المزدهر بينما انتهت هي الى

الاضمحلال . ولم يكن غيفارا يعتمد على صحبتي في مثل هذه الرحلات ، بـل لعله لم يكن يتقاسم شغفه بالآثار مع أي من أصدقائه اذ ذاك ، ولكنه كان قد تعرف في المقاهي بمصور الماني ماهر يدعى « غوستاف تورليخن » ، ومعـه قام بتلك الرحلة . وكان هذا الالماني يقوم بأسفاره في سيارة « جيب » عسكرية تساعد دواليبها العالية على سلوك أكثر الطرق وحلاً ووعورة ، بغيـة اعداد مجموعة من الصور عن خرائب « تياهواناكو » القديمة ، فكان غيفارا خير رفيق له وخير دليل بفضل سابق معرفته بـ « ماتشوبيتشو » وما كان اكتسبه بشأن تاريخها من علم واسع .

على انه بعد هذه المغامرة في بطون التاريخ الماضي ، وربما تكفيراً عن كونها جعلته يهمل الواقـع الحي ، اقترح علي أن نزور منجمي « القرن العشرين » و « كاتافي » الكبيرين في منطقة « أورورو » . وكان هذا المنجمان قـد شهدا المعركة الرهيبة بين العمال والجيش ، حيث كانت متفجرات عمال المناجم — في ساحة « ماريا برتولا » — تتحدى رشاشات الجنود . وكان لنا أصدقاء بـين معاوني « خوان ليتشين » وزير المناجم ، فاستطعنا بفضلهم الحصول على الاذون اللازمة لدخول القطاع المنجمي .

وكان « ليتشين » قد قال ، قبل ذلك ببضعة أيام : « ان الثورة البوليفيـة أعمق غوراً من ثورتي غواتيمالا والصين » . وكان غيفارا يرى أن عمـال المناجم الذين يحصدهم التهاب الرئة قبل أن يبلغوا الثلاثين يستحقون أن يصدق هـذا القول ، ولكنه يشك في امكان تحوله الى واقع .

ويوم قيل له ان الحكومة — حين أممت المناجم — كانت قـد عوضت نقداً على مالكيها السابقين وكأن الامر لا يعدو أن يكون بيعـاً وشراء ، لم يكتم عدم موافقته على ذلك ، معلناً أن من الخطأ الفادح أن تخضـع الامة المسلحة لمثل اجراءات المؤسسات التجارية حين يتغير أربابها. وكان البوليفيون يبررون أمامه هذا الاجراء بكونه ذا طابع « ديماغوجي » فحسب ، اذ أنه أدى في

الواقع الى تشجيع الاستهلاك بدفع أصحاب المناجم الى انفاق تعويضاتهم على الفور في شراء الاغذية والالبسة . ولكن غيفارا كان يرفض هذا التبرير ، قائلاً ان الثورة لحظة تاريخية يجب أن تكون الاعتبارات المعنوية فيها هي العليا ، وان ذلك الاجراء الذي كان كل هدفه مصانعة الشعور الشعبي في تلك اللحظة قد شوّه الانتصار الذي يمثله استرداد المناجم . وقد ظل شديد التمسك بهذا الموقف ، لا يتساهل أبداً بشأنه ، معلناً أن عمال المناجم باعوا الثورة بالثمن البخس ، اذ أوهنوا ما تدخره من قوى احتياطية مادية ومعنوية كانت لا تزال في أشد الحاجة اليها على صعيد الوطن كله .

ولم يستطع أي من اصدقائنا البوليفيين أن يقنعه بالعدول عن هذا الرأي .

وغادرنا بوليفيا الى البيرو في سيارة شحن : واحدة من تلك السيارات غير المريحة ، غير المجهزة بروادع ضد الاهتزاز ، والتي كانوا ينقلون فيها الهنود ومنتجاتهم من سوق الى أخرى ، فتجد فيها أكواماً من أكياس الملح والسكر والبطاطس و « الكوكا » ، وأحياناً صناديق المتفجرات .

وكنا قد اعتزمنا أن ندخل أرض البيرو بطريق البر ، بحيث كان علينا ان نحاذي بحيرة (تيتيكاكا) حتى (كوباكابانا) ، مدينة السياحة ونزهات المراكب الشراعية ، التي تربطها بمدينة (لاباز) طريق طولها مئة واربعون كيلومتراً .

وأخذ غيفارا على عاتقه ان يشتري بطاقاتنا الثلاث — اذ كان (كاليكا) لا يزال يرافقنا — فتبادل بهذه المناسبة حديثاً مع البائع ذا دلالة : كان هذا البائع يجلس وراء منضدة عتيقة ، وقد التمعت بشرته وأحاط عنقه بمنديل لف بعناية حتى لا يتسخ قميصه . ولا ريب انها كانت مفاجأة له ان رأى ثلاثة من البيض يتجهون نحوه ، اذ سألنا :

ــ ستسافرون في (باناغرا) [١] .

فرد عليه غيفارا :

ــ في (باناغرا) ؟ اننا ذاهبون الى (كوباكابانا) ، في الشاحنة .

ــ في الشاحنة طبعاً ، ولكن في درجة (باناغرا) أليس كذلك ؟

ونظرنا بعضنا الى بعض ، دون أن نفهم . وكان على الجدار الذاهب الطلاء تقويم قديم من (باناغرا) عليه صورة شواطىء (ميامي) .

إذ ذاك شرح لنا البائع الهندي أن (درجة باناغرا) هي المكان الخالي إلى جانب سائق الشاحنة ، حيث يحشرون أربعة أو خمسة من المسافرين المحظوظين لقاء أجر اضافي . وكان واضحاً في نظر البائع وتلميحاته أن هذا كان المكان الوحيد الذي يمكن أن يقبل احتلاله ثلاثة من الشباب البيض لايعقل أن يختلطوا بالهنود . ولكن غيفارا ، الذي كان أسرعنا الى فهم قصده ، قطع الطريق على كل نقاش بقوله :

ــ لا ، لن نسافر في (باناغرا) . سنكون في المؤخرة ، مع الجميع .

وينبغي لك أن تقوم بمثل هذه الرحلة اذا أردت أن تفهم حقاً امريكا ، امريكا السكان الاصليين : لقد دخلنا عالماً معادياً لنا،وظللنا أسرى بين جواليق ضخمة واشخاص كأنهم جواليق ضخمة . ولفنا الصمت ، عوائير الطريق والصمت ، فلم نلبث أن فهمنا انه سيكون عديم الفائدة أن نظهر المجاملة والتلطف ــ لو أننا استطعنا ذلك ــ تجاه تلك الاعين المعدنية الفاحصة وتلك الشفاه التي ظلت مغلقة في عناد لا تجيبنا على سؤال . ولئن انفتح فم بين الحين والحين فلكي تند عنه رائحة آجنة آسنة ، وأنفاس من العفن ما يشق معه التصديق بأنها تخمرت في أحشاء كائن بشري .

---

(٣) الحروف الأولى من اسم شركة الطيران الامريكية « بان امريكان غريس » .

هكذا عجزنا عن اقامة أي جسر للتفاهم مع رفاقنا في الرحلة ، ومع ذلك كان حرس الحدود البيروانيون واثقين من أننا حشونا رؤوسهم وأغويناهم بأفكارنا عن ضرورة الثورة الزراعية . ففي يوم ١١ أيلول ١٩٥٣ ، اليوم الذي وطئت فيه أقدامنا أرض البيرو ، اكتشف موظفو الجمارك في « جونغوجو » ، أول قرية بعد الحدود ، أن كل متاعنا تقريباً كان يتألف من كتب وكراسات نشرها الثوريون البوليفيون . وكان الوزير « تشافيز » قد أعطانا بعض المنشورات الدعائية خلال زيارتنا له ، فاذا هي الآن موضع فحص دقيق بين أيدي رجال شرطة البيرو .وسألنا أحدهم :

— هل أنتم من المحرضين ؟

فأجابه غيفارا :

— عسير أن نكون كذلك . فنحن لا نعرف كلمة واحدة في لغة « الآيمارا» ولا « الكيتشوا » ، ولا استطعنا طوال الطريق أن ننتزع جملة من أفواه هؤلاء الناس .

ومع ذلك مضى وقت طويل قبل أن نستطيع اقناع رجال الأمن ببراءة مقاصدنا ، وبأننا لم نكن نهدف الى تطعيم أهل البيرو بجراثيم الثورة الزراعية . ذلك أن حرس الحدود هؤلاء كانوا يقدرون المشكلة قدرها الحق ، وقد أعطونا درساً في التاريخ ، درساً يقول ان الحدود السياسية لا تملك الفصل بين كتل بشرية تعاني من مظالم مشتركة ، وان انتفاضة الفلاحين المحليين في بلد ما لا تتوقف أمام الحواجز المصطنعة التي ينصبها الرجل الحضري الأبيض بعيداً عن المدن . وفي عام ١٩٥٣ كانت ريح انتفاضات السكان الأصليين تعصف على حدود البيرو ، وكان حراس هذه الحدود يستريبون في أمرنا ويخشون أن يكون في متاعنا الهزيل ما يحمل مزيداً من الحطب لنار تلك الانتفاضات .

على أنهم ، أخيراً ، انتهوا إلى السماح لنا بالدخول ، فتابعنا طريقنا في اتجاه « خولياكا » لنعرج منها على « كوسكو » ؛ فلقد كان غيفارا ينوي التحقق

هناك من صحة فرضية كانت قد بدرت له خلال اقامة سابقة في «ماتشو بيتشو» ، حرص على تذكيرنا بها رغم عدم تصديقنا لها ، وفي ازدراء بالغ لجهلنا في شؤون الآثار . واجتزنا وادي « اورو بامبا » ثم خرائب « سكسا هوامان » ، تلك القلعة المحصنة التي وقف غيفارا أمامها مفتونا ذاهب اللب ، فقرر لفوره أن يظل في ذلك المكان على أن أتابع أنا رحلتي حتى « ليما » العاصمة .

كان يحكم البيرو اذ ذاك جنرال صارخ الرجعية ، هو « مانويل أودريا » [(١)]، ركب كل الآثام سبيلاً إلى السلطة ، ثم استقر فيها بالأسلوب نفسه . بأمره قتل الأبرياء في « أريكيبا » ، وهو يزداد شراسة كلما ازدادت حالة البلاد سوءاً . وكانت قد انقضت أربع سنوات على « فيكتور راؤول هايا ده لاتوري » [(٢)]، زعيم « الآبرا » [(٣)] ، وهو لاجىء في سفارة كولومبيا . وكانت شوارع « ليما » تغص بالعدد الضخم من رجال الأمن. أما المعارضة فكانت تخشى الظهور بعد أن فرقت السياط كثيراً من اجتماعات الاحزاب السياسية ، كما تعثرت حركة الطلاب بعد أن أصبح كل زعمائهم سجيناً أو منفياً أو ملاحقاً .

في مثل هذا المناخ ، من الطبيعي أني لم أكن سعيداً بوضعي الشخصي . فلقد كانت وثيقة السفر الوحيدة التي أحملها تذكرة مرور ، منحتني اياها سفارة

---

(١) جنرال بيرواني ، قام بانقلاب عام ١٩٤٨ أعلن بعده وضع حركة « الآبرا » ، التي سيأتي ذكرها ، خارج القانون . على انه أخذ ببعض الديمقراطية في نهاية عهده فأجرى انتخابات حرة عام ١٩٥٦ سقط فيها المرشح الرسمي ونجح « مانويل برادو » .

(٢) احدى ابرز الشخصيات السياسية في أمريكا اللاتينية . ظل ست سنوات لاجئاً الى سفارة كولومبيا في « ليما » أيام دكتاتورية « أودريا » وقد سقط في انتخابات الرئاسة الأخيرة . وهو الآن استاذ في جامعة ليما بالاضافة الى زعامته لحركة « الآبرا » .

(٣) الحروف الأولى من اسم « التحالف الشعبي الثوري الأمريكي » ، الحزب السياسي البيرواني الذي أنشأه « ده لا توري » عام ١٩٢٣ في منفاه في المكسيك : حزب معاد للاستعمار ، يدعو الى الوحدة الوطنية المحلية (بصرف النظر عن اختلاف المنشأ العرقي) . وهو أم أحزاب البيرو . وهو الآن ، على رغم كونه في المعارضة ، يدافع عن بعض اجراءات السياسة الاصلاحية التي تأخذ بها الحكومة الحالية .

غواتيمالا في بونس آيرس بوصفي لاجئاً سياسياً ، والبيرو تعتبر كل لاجىء سياسي أهلاً للحذر . وكنت قادماً من بوليفيا ، والبيرو تشتبه بكل القادمين من بلدان شهدت ثورات ريفية . يضاف إلى ذلك أن الاذن بدخولي البلاد كان ، بفضل حادث المنشورات الثورية على الحدود ، ينص على ضرورة تقدمي الى شرطة « ليما » بمجرد وصولي ، وشرطة « ليما » – كما هو معروف – مهمتها أن تشك بالناس .

ولقد وصلت الى « ليما » بعد أن رافقت صحافيين أمريكيين أوفدتهم جريدة « شيكاغو تربيون » ، فاجتزنا معاً جبال « الآندس » الصخرية القاحلة، المغطاة بالثلوج ، والتي كانت حرب الاستقلال قد دارت عند سفوحها ؛ فكان عدد البؤساء يتزايد بقدر ما نزداد اقترابا من العاصمة ، وتكتظ أزقة الضواحي بالناس ، ويكلّ النظر لمرأى الثياب الهندية المبرقشة كأنها الضياء الباهر .

أما « ليما » نفسها فهي – كالكثير من العواصم – قد تعطيك فكرة مخادعة عن حال بقية البيرو . ففيها كان الجبروت الاسباني والمدنية التي نقلها الى أمريكا قد تمثلا ، على مدى ثلاثة قرون ، في جلال هندسة « الكاتدرائية » وقصر « تورّي تاغلي » وجامعة « سان ماركوس » أقدم جامعات أمريكا ومنبت الكثير من الحركات الطلابية . ولكن « ليما » وثروتها مقطوعتان عن بقية البلاد : كانت البيرو اذ ذاك تعد حوالي تسعة ملايين نسمة ، نصفهم من أحفاد موجات الاستيطان الهندية الأولى ، وفي النصف الآخر نسبة كبيرة يختلط فيها الدم الهندي بالدم الاوروبي . وكان طبيعياً أن لا يرأف أحد بهذه الكثرة الحاشدة من الهنود والخلاسيين ، وأن تطحن الآلة الاقتصادية – في صمت – هذه الملايين البشرية المحكوم عليها بعمل العبيد في الحقول وفي المناجم . كان هناك – مثلاً – مليون من الفلاحين يرتبطون بأرض ألفين من كبار المالكين فيؤلفون مصدر الثراء والتبذير لأقلية زائفة الارستقراطية متحالفة مع رجال المصارف والمستوردين والرأسماليين الاجانب .

وكان يشده المراقب ويصعقه مرأى تلك الدكتاتورية الارهابية تؤيدها أقلية من الأغنياء في ضراوة مسعاها للاحتفاظ بامتيازاتها الاقتصادية . لذلك قررت أن أتابع رحلتي دون انتظار غيفارا ، برغم أننا كنا تواعدنا على اللقاء في العاصمة ، حين تأخر عن الوصول في الموعد المتفق عليه ، في منزل ممرضة كان عرفها من قبل في أحد مستشفيات بونس آيرس .

والقدر وحده هو الذي عاد فجمعنا مرة أخرى .

ففي « تومبس » ، على الحدود مع الاكوادور ، بين الواقفين في الطابور ينتظرون دورهم لشراء تذكرة سفر في سيارة النقل المشترك ، كان غيفارا يدخن السيكار وهو يلقي على المارين الى جانبه نظرة شاردة . وبعد عناق فرح ، وبعد أن أصبحت بطاقات السفر لليوم التالي في جيبنا ، ذهبنا لوداع « ليما » . وكانت سفارة كولومبيا قد أقامت احتفالاً يستقبل فيه اللاجىء السياسي «هايا دهلا توري» أصدقاءه ، فاذا الشوارع تروح فيها وتغدو المصفحات وناقلات الجنود ، دليلاً على الضيق الذي كان يسببه وجود هذا اللاجىء غير المرغوب به . فهز غيفارا كتفيه وقال :

— لمَ يفزعون منه الى هذا الحد ؟ انه كالآخرين ...

وارتحلنا بالسيارة ، على الطريق الساحلية التي تجتاز « تروخيليو » و« بيورا » و « تالارا » ، في الصحراء القاحلة التي تصفعها ريح الشمال والتي ينبجس البترول من أرضها دون انقطاع . ومنذ البداية ، في « تومبس » ، هذه البحيرة الممتدة على حدود البيرو والاكوادور ، كان المناخ مناخ حرب . كان جيشا البلدين يتحديان أحدهما الآخر بعرض آخر ما استحضراه من أسلحة . أما منشأ هذا التوتر العسكري فكان شجاراً على الحدود يبدو أنه كان في حقيقته ذريعة لشراء المزيد من الأسلحة وللاستزادة من « كوادر » الجيش .

ونصحني غيفارا ، وهو ينظر في ريبة الى حاملي البنادق :

– حاذر من هؤلاء . انهم لا يحسنون اصابة الهدف ، ولكن اذا انطلقت منهم رصاصة في لحظة سهو فكن على يقين أنها ستخترق جسدك .

وفي ٢٦ أيلول ١٩٥٣ سجل حرس حدود الاكوادر دخولي ودخول ارنستو غيفارا وكاليكا فيرير من نقطة « هواكيلياس » ، وهي قرية هندية صغيرة ذهبنا منها بالقطار الى « بويرتو بوليفار » ، ثم إلى « غواياكيل » .

و « غواياكيل » هي المدينة التي عليك أن تزورها ولو مرة لتعرف حقاً معنى المناطق الاستوائية . فهي تقع على نهر « غواياس » ، قبل أربعة وستين كيلومتراً من مصبه ، ولكنها بنيت على ارتفاع عن سطح البحر لا يبلغ القدم الواحدة . وهي بعد في حصار تفرضه عليها مغارس شجر « المانغريف » والمستنقعات التي تتكاثر فيها الامراض التقليدية ، كالملاريا وديدان الامعاء ، والحمى الصفراء ... وكانت المدينة لدى زيارتنا لها تعد أقل من أربعمئة ألف ساكن ، مكدسين بعضهم فوق بعض في مساكن من خشب أصابه العفن أو نخرته الأَرَضة . وقد اكتشفنا في رعب أن هذه المدينة يمكن أن تذهب طعماً للنيران وأن تصير إلى رماد في مدى بضع دقائق ، وان رجال الاطفاء كانوا دائمي التجول في شوارعها ، في سباق يومي لاهث ضد الحرائق .

كنا اذ ذاك في ما يسمى عادة « موسم الجفاف » ، وهي تسمية أدبية ، مجازية ، لتمييز هذه الأشهر التي يهطل فيها المطر ساعة على الأقل وقت الظهيرة ، من بقية أشهر العام التي ينهل فيها سجاف من المطر يحيل الشوارع الى وحول متصلة .

واغتنت جماعتنا بثلاثة آخرين ، كلهم طلاب في كلية الحقوق : « أوسكار فالدوفينوس » و « غوالو غارسيا » و « آندرو هريرو » . كانوا قد وصلوا إلى « غواياكيل » قبلنا ببضعة أيام ، فقرأوا في الصحف خبراً عن قدوم لاجىء أرجنتيني يرافقه صديقان . والتقينا في الجامعة ، فما كادت تنقضي لحظات التعارف الأولى حتى اكتشفنا أننا كنا جميعاً سواسية في حالتنا المالية التي يرثى

لها ، وقررنا أن نعيش معاً في غرفة من كوخ خشبي على مقربة من المرفأ .

ولم يكن في الغرفة إلا سريران عليهما فراشان من قش ، فكان واحدنا يستطيع احتلال السرير بقدر ما يبكر في أوبته من الشارع، فاذا ما بزغ الفجر كانت هنالك دائماً أربعة أجساد متمددة مباشرة على الأرض ، يلتف كل منها بدثار هو كل فراشه وغطائه ، وكثيراً ما قطع عليه نومه مرور الجرذان أو غيرها من الدواب الصغيرة الأشد اثارة للقرف . على أن الكلال والنعاس كانا ينتهيان دائماً بالتغلب على مقاومتنا فنغط في النوم ، غير مبالين بالبعوض الذي كان يتكاثر بالآف الملايين فوق مياه « غواياس » الوبيلة .

ثم كنا في الصباح ، قبل أن تشتد وطأة الشمس ، ننطلق لمشاهدة منظر تحميل البواخر الكبيرة التي تنقل الفواكه ، وحركة السفن القاطرة بحمولتها من المنتجات الاستوائية ، وقدوم المراكب ذات القعر الافقي من الشمال .

فاذا ما اقتربت الظهيرة كان المألوف أن يبدأ بالارتفاع ضجيج هتافات بالغة الصخب ، دهشنا لها في الايام الاولى ، ثم لم نلبث أن اعتدنا مشهد تلك الحشود الرثة الاسمال ، والتي كانت تفد من كل صوب لتلتقي عند جرف النهر، منشدة أغاني وطنية وهاتفة بحياة « كارلوس غيفارا مورينو » ، محافظ المدينة السابق، وأحد أبرز الغوغائيين الذين عرفتهم في حياتي .

كانت هذه الكتل البشرية المزمجرة تعدو وتتدافع في الشوارع ، متحدية قوى الامن ، ولكنها كانت دائماً تنتهي إلى اللهاث والعياء، فتتفرق بمثل السرعة التي يتبخر بها المطر تحت ضراوة شمس الظهيرة. وكانت جماعتنا بعد أن تضاعف عددها قد أصبحت تضم من السياسيين أكثر مما تضم من رجال العلم ، ففدت تلك الجماهير لدينا مادة للدراسة : كانت على استعداد لكل شيء ، ليس لديها ما تخسره إلا الحياة (وهي خسارة كانت كثيرة الوقوع خلال الاصطدامات الدامية مع الشرطة) . ولكنها كانت تفتقر إلى القيادة الثورية ، فكانت كل

طاقتها النضالية لا تحمل إلى السلطة إلا غوغائيين محليين ، ما يكادون يفوزون بالمنصب حتى تكون خيانتها أول ما يفعلون .

وشردنا في مثل هذه الملاحظات ، غافلين عن تلاحق الأيام ، فاذا نحن ذات صباح فارغو الجيوب . اذ ذاك عقدنا مؤتمراً عاجلاً قررنا فيه أن نغادر على الفور ذلك الأتون الاستوائي . وكان علينا ، لكي نستطيع مواصلة السفر ، أن نبيع لتونا ما تبقى لنا من ملبوسات ، بحيث يتكون لدينا صندوق مشترك يسمح لغيفارا وكاليكا فرير أن يبلغا فنزويلا ، التي كانت هدف رحلتهما في الأصل ، ويسمح لنا – أنا والرفاق الثلاثة الجدد – أن نصل الى غواتيمالا ، حيث كنا على يقين بأن وضعاً ثورياً بالغ الأهمية كان يستكمل نموه ، وأنه سيكون بالضرورة ذا دوي تاريخي .

والثياب ، في البلدان الفقيرة ، تباع في عرض الشارع . ولكن ثيابنا كانت في « غواياكيل » عسيرة البيع لأن الصالح منها نسبياً كان من لبوس الشتاء . لذلك ذهب « فالدوفينوس » الى « كيتو » العاصمة ، المرتفعة ألفين وثمانمئة متراً فوق سطح البحر ، ليحول الى دولارات ذخيرتي الباذخة الوحيدة ، وهي معطف من فراء الجمل كنت اشتريته في « لاباز » ، والثياب المستعملة البالية التي كانت رفيقتنا حتى ذلك اليوم .

ولم يحتفظ غيفارا الا بالحد الأدنى الذي لا بد منه : سروال تغير شكله لطول ما لبسه ، وقميص كان أبيض ذات يوم ، وسترة « رياضية » ترهلت جيوبها لكثرة ما اعتاد حشوه فيها من لوازم ، بدءاً من المرذاذ الذي كان يعالج به نوبات الربو ، حتى حبات الموز الضخمة التي كثيراً ما كانت كل طعامه .

كنا عملياً صفر اليدين من كل شيء ، ولكننا كنا قادرين على أن نواصل رحلتنا نحو الشمال مخلفين وراءنا مياه « غواياس » الوخيمة ، والجرذان الأليفة ، ورائحة الخشب المتعفن والثمار الفاسدة .

اذ ذاك حاولنا الحصول من قنصل كولومبيا على تأشيرة سياحية للوصول الى

« بوغوتا » . ولكن الحالة في كولومبيا كانت في ذلك الحين بالغة السوء . كان الجنرال « روخاس بنيليا » [1] قبل بضعة أشهر قد أسقط نظام « لوريانو غومث » [2] المتطرف في رجعيته ، وكان الفلاحون المحاربون في وادي «توليما» قد استطاعوا بقوة السلاح أن يكسبوا احترام الجيش النظامي . وكان يقال ان خمسة وعشرين ألفاً من رجال الفوار الريفيين هؤلاء كانوا يفاوضون على الاستسلام للجيش لقاء اعترافه بحقهم في احتلال أراضيهم . ولكن القنصل كان حريصاً على أن لا يلحق أي أذى أي بستة أجانب كانوا يعتزمون اجتياز وديان بلاده وجبالها وهي في حالة حرب ، فاشترط علينا أن نشتري تذاكر سفر الى بوغوتا بالطائرة ، يحدد عليها سلفاً موعد سفرنا .ولكن حالتنا المادية كانت مع الأسف تمنعنا من قبول هذا الشرط ، فعدلنا عن فكرة المرور بكولومبيا ، ولجأت الى آخر ورقة بين يدي .

تلك الورقة كانت رسالة كتبها زعيم اشتراكي شيلاني ، هو « سلفادور أليندي » ، الى محام اشتراكي في (غواياكيل) ، يطلب فيها منه أن يفعل

---

(١) هذا الجنرال كان رئيساً لهيئة أركان الجيش الكولومبي عام ١٩٥٢ ، فدخل في نزاع مع الرئيس « لوريانو غومث » وأيد خصمه في الانتخابات ، فعزله الرئيس من منصبه ، فاستولى على السلطة في حزيران ١٩٥٣ باسم القوات المسلحة وبتأييد حزبي وشعبي . وكان يطمح الى تقليد بيرون ، فدعا الى انشاء « قوة ثالثة » ، واذ ذاك سحب الحزبان التقليديان تدريجياً تأييدهما له ، وتم الانقلاب عليه في أيار ١٩٥٧ ونفي وحرم من حقوقه المدنية ؛ فلما عاد من منفاه أنشأ حركة « التحالف الوطني الشعبي » التي فازت بنجاح كبير في انتخابات ١٩٦٤ و ١٩٦٦ . ودوره الآن بالغ الضخامة في كولومبيا .

(٢) لعب هذا الرجل دوراً كبيراً جداً منذ ١٩١٨ حتى وفاته عام ١٩٦٥ ، فكان العامل على عودة المحافظين الى السلطة عام ١٩٤٦ ، ثم مثل كولومبيا في مؤتمر انشاء « منظمة الدول الامريكية» في بوغوتا عام ١٩٤٨ ،ثم أصبح رئيساً للجمهورية عام١٩٥٠،فأرسل فرقةمن الجيش اشتركت في الحرب الكورية . وبعد أن أسقطه « روخاس بنيليا » لجأ الى اسبانيا فاتفق هناك مع « جيراس كامارغو » على انشاء « الجبهة الوطنية » ، وعاد الى كولومبيا عام ١٩٥٨ ففاز في الانتخابات النيابية ولكنه أخفق عام ١٩٦٠ في انتخابات الرئاسة ، واذ ذاك انسحب من الحياة السياسية العاملة ولكن بعد أن ترك خلفاً له ، هو ابنه « آلفارو غومث هورتادو » .

المستحيل لمساعدتنا . ذلك أن الاشتراكيين الشيلانيين كانوا يكرهون بيرون ، ولما كنت أنتسب الى الجناح اليساري من حزب يعارض حكومة بيرون فقد نشأت بيني وبين (أليندي) – ولا تزال قائمة – رابطة فكرية وشخصية أتاحت للاجىء شاب مثلي أن يحمل مثل تلك الرسالة . وكنت قد ترددت في الافادة منها أول الأمر ، ولكن جواب قنصل كولومبيا جعلها ملاذنا الأخير ؛ فذهبت الى زيارة ذلك المحامي يصحبني غيفارا ، إذ كان من الأفضل – نظراً لطبيعة الخدمة التي كنت مقدماً على طلبها منه – أن يشهد بنفسه مدى ما نحن به من املاق . ولقد استقبلنا بالترحيب ، ولكنه لم يستطع أن يكتم ارتباكه حين علم أننا ، في عجزنا عن مغادرة (غواياكيل) ، كنا ستة لا اثنين فحسب. وتحدث مرتين في الهاتف ونحن الى جانبه ، ثم أبلغنا أنه سيكون في وسعنا الإبحار على متن (الأسطول الأبيض) ، وهو خط النقل الذي تملكه شركة (اليونايتد فروت) .

على أن هذه النعمة كانت مشروطة : فلقد كان يستحيل تدبير الأمر بحيث يتسلل ستة ركاب مجانيين دفعة واحدة الى مركب واحد ؛ لذلك كان علينا أن نسافر اثنين اثنين ، على ثلاث مراحل .

تلك الحقبة هي التي شهدت ولادة مشاريع معينة كان من شأنها فيما بعد أن تغير تاريخ أمريكا اللاتينية . فلقد دارت بيننا مناقشة ودية ، لا ريب أن تأثر غيفارا بحماستنا خلالها جعله لا يبدي الكثير من الاعتراض ، وجعله آخر الأمر يعدل عن فكرة الاستقرار في فنزويلا، حيث كان يعتزم اللحاق بالدكتور (غرانادوس) في مستشفى الجذام في (سان بابلو) . كما قرر (كاليكا فرير) الافتراق عنا سعياً وراء حلمه بالاغتناء في الصفقات العقارية .

قلت لغيفارا ذلك المساء :

– كيف تريد الذهاب الى فنزويلا ، هذا البلد الذي لا سبيل فيه الى أكثر من اكتناز الدولارات ؟

فعاد غيفارا يحتج بأنه ارتبط بعهد تجاه صديقـــه « غرانادوس » ، وانه حريص على الوفاء بهذا العهد . ورددت عليه قائلاً :

– اصغ الي ، يا صاحبي . التاريخ اليوم يكتب أحداثه في غواتيمالا . هناك تفجرت ثورة ذات شأن. وعلينا أن نذهب لنراها .

وأخيراً أجابني :

– موافق . ولكن شريطة أن نظل معاً ...

ثم أضاف ، بلهجة يختلط فيها المزاح بالتهديد :

– ... وبشرط أن لا تذهب برشدنا البيروقراطية الغواتيمالية . أفهمت ؟ انني ألح على ذلك لأنكم ، أنتم الاصلاحيين ، اختصاصيون في البيروقراطية ...

وعاودنا المرح ذلك المساء حين اتفقنا على أن يكون لقاؤنا جميعاً في (باناما) فنصل بعدها الى غواتيمالا . وزاد غيفارا من هذا المرح حين ربح رهاناً : فلقد قال ان سرواله الداخلي – وهوالوحيد لديه منذ شهرين – كان من التشبع بغبار الطرقات بحيث يستطيع الوقوف وحده . ولما كنا نرفض تصديقه فقد أسقط سرواله الخارجي فكشف عن لباس داخلي يصعب تحديد لونـه ، كان أدنى الى الشبه بمئزر عمال البناء لشدة ما تصلب نسيجه ، ثم خلعه فاضطررنا الى الاقرار بأنه كسب الرهان : لقد وقف السروال حقاً على (قدميه) . ووعدنا صاحبه ، وجميعنا ننفجر بالضحكة الصاخبة ، أن يجعله مع الزمن قادراً على السير ...

وفي ٩ تشرين الأول ١٩٥٣ كنا ، أنا و (فالدوفينوس) ، نستعـد للرحيل بوصفنا القافلة الأولى ، بينما كان (اندرو هربرو) يعلـــن في الدقيقة الأخيرة قراره بالعودة الى الارجنتين ، بعد أن كلّ حياة المغامرة ولج بـــه الحنين الى أسرته وأصدقائه . أما غيفارا و (غوالو غارسيا) فكان مقرراً أن يلحقا بنـا في الرحلة التالية ، بعد بضعة أيام .

تلك هي قصة الحلقة الأولى من الصداقة التي جمعت بيننا بعد أن تعارفنـا

هذا التعارف الحميم ، والتي كان لصحبة الأسفار فيها ولما تقاسمناه من بلوى وشظف فضل توحيد حياتينا حتى النهاية .

وهكذا كان الحدث الأول الذي لا يكاد يصدق أن دخل (ارنستو غيفارا) في دوامة أمريكا الوسطى بفضل بطاقة سفر مجانية قدمتها له شركة (اليونايتد فروت) الأمريكية .

•

٢

الدوّامة في حوض «الكاريبي»

منذ ١٧ حزيران ١٩٥٢ ، تاريخ اعلان الاصلاح الزراعي ، كانت غواتيمالا المختبر الرئيسي للثورة في أمريكا اللاتينية ، وكان المثل الذي تقدمه أفعل أثراً في النفوس من المثل البوليفي : فالثورتان قد تمتا في ظروف حادة التباين ، وعلى الخصوص كانت الأرض التي أعيد توزيعها في بوليفيا منتزعة من مالكين كبار بوليفيين ، بينما انتزعت هذه الأرض في غواتيمالا من شركات امريكية تتمتع بالنفوذ السياسي .

ولم تكن غواتيمالا – منذ استقلالها عام ١٨٢١ حتى مولد تحركها الثوري القومي عام ١٩٤٤ – قد شهدت غير حكومتين فحسب تم انتخابهما بصورة دستورية . كان الاستيلاء على السلطة بالعنف ، والتضامن المتبادل بين الطبقة المالكة ورأس المال الأجنبي ، قد طبعا بميسمها كل تاريخ غواتيمالا الماضي . وكان الاستعباد والجهل والبؤس كل الثمار التاعسة التي ولدها هذا التعاون ويوم قامت الثورة الزراعية ، كان ثمانية من كل عشرة في غواتيمالا يمشون حفاة ، وكان سبعة من كل عشرة أميين . وكانت الاقطاعية المحلية ، المتعاونة مع الرأسماليين الأمريكيين ، توغل في النفاق الى حد رفع عقيرتها بالشكوى من

آثار هذا الوضع الذي تكذب في زعم نسبته الى أن نصف السكان من منشأ محلي ، وبالتالي فهم على الأغلب ينتسبون الى « المايا » ، الذين لم يجرؤ أحد مع ذلك على نكران ما كان لهم من حضارة . بهذا ، كان هنالك نظام ينهب أمة بكاملها ، ثم يستخدم الدعاية لاقناعها بأن أسباب دائها هي في كيان شعبها ذاته . وكان استغلال تدهور الولاء الوطني ، وتشجيع الاستسلام للواقع والايمان بالمكتوب، هما سبيل تحالف الأغنياء المحليين وأصحاب الملايين الأجانب الى محاولة استنزاف ثروة البلاد استنزافاً لا نهاية له .

وفي عام ١٩٤٤ استطاع بعض الضباط الشباب وبعض المثقفين أن يستولوا على السلطة ، مستهدفين تطبيق برنامج للاصلاح غير واضح المعالم، لم ينشأ التطلع اليه عن أية نظرية ذات طموح بعيد المدى بقدر ما نشأ عن مجرد الشعور بأن غواتيمالا كانت أمة تعيش بلا كرامة ، وان هذا الشعب كان قد هدر كل ميراثه . فلقد كان « المايا » يكتبون ويرسمون فيحسنون الكتابة والرسم، وكانوا ينقشون الحجر فيصنعون منه التماثيل ، ويستخدمون الفسيفساء في الأبنية . كانت لهم مدنية تشهد عليها المخطوطات والهياكل والآثار الموزعة في كل أنحاء البلاد. ثم جاء الاستعمار الاسباني وبعده الاستعمار الرأسمالي فقضيا على أفضل ثمار هذه الحضارة وأغرقا سكان البلاد الأصليين في العوز والجهل على انهم كانوا استطاعوا الحفاظ على الكثير من تلاحمهم الاجتماعي والتاريخي . وبالتالي فان صفحة جديدة أطلت مع الضباط والمثقفين الشباب زعماء ثورة ١٩٤٤ ، صفحة تعمل سريعاً على استرداد نصف الشعب الغواتيمالي لدمجه في دولة وطنية حقاً .

إذن ، كان الاعتراف للسكان الأصليين بصفة المواطن ، سواء بسواء مع البيض المتحدرين من الأوربيين ، هو هدف الجانب الأكبر من الاجراءات الحكومية : ألغيت أسس العهد القديم وأركانه واحداً بعد واحد ، ولا سيما القنانة والتعامل بأشخاص الهنود ، وهو إلغاء كان يتفق على اقراره أولئك الذين كانوا يثورون على هذا النوع من العبودية باسم الأخلاق وحدها وأولئك

الذين كانوا في الوقت نفسه مقتنعين بأن ضآلة الانتاج الزراعي في البلاد انما تعود الى تلك الأساليب المعمول بها في الملكيات الكبيرة . على أن المشكلة كانت في أن أي تبديل في الوضع الراهن الاجتماعي كان من شأنه بالضرورة أن ينال من امتيازات الـ ٥٩٠. مالكا الذين كان في حوزتهم ما يزيد عن نصف أفضل الأراضي الصالحة للزراعة ، وأهم هؤلاء المالكين كان شركة « اليونايتد فروت » ، شركة الفواكه الاحتكارية الأمريكية الشهيرة . وحين عمدت الحكومة الغواتيمالية عام ١٩٥٣ الى الاستيلاء على ١٦٠،٠٠٠ الف هكتار كانت ملكاً لشركة « اليونايتد فروت » ، أدركت هذه الشركة أن تحقيق مطالب الهنود سينتهي بها الى فقد كل ممتلكاتها ، فحركت على الفور جهازها العملاق الناجع ، جهاز الضغط والتهديد . وهكذا رأينا وزارة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية تتدخل لحماية الشركة ، تدخلاً ضاعف من حدته أن اثنين من أبرز شخصيات الحكومية الامريكية ، وهما « فوستر دلس » و « مورس كابوت » ، كانا في الوقت ذاته من أعمدة « اليونايتد فروت » الرئيسية .

وكانت الثورة، حتى ذلك الحين ، قد اتبعت خطاً شبه مستقيم : كان الرئيس « خوان خوسه أريفلو » [1] قد أعلن : « نحن اشتراكيون لأننا نعيش في القرن العشرين ولكن لسنا باشتراكيين ماديين. فالانسان ليس معدة بالدرجة الأولى، ونحن نؤمن أن الأولوية للكرامة » . ولكن كان على رجال الثورة ابتغاء لهذا الهدف أن يعمقوا الاصلاحات الاقتصادية : فصدق ايمانهم بأن المكانة الأولى ليست للمعدة لم يكن ليغير شيئاً من ادراكهم للواقع العملي، وهو أن المعدة — في مواجهة

---

(١) رئيس جمهورية غواتيمالا من ١٩٤٤ الى ١٩٥١ ، بعد سقوط الدكتاتور « خوسه أوبيكو » . تميز عهده بسياسة ذات اتجاه يساري ، اصلاح زراعيّ ، قوانين اجتماعية ، رقابة على الشركات ... وفي الوقت نفسه كانت سياسة « قومية » ، تطالب بهوندوراس البريطانية . خلفه في منصبه الرئيس آربنز . و « أريفلو » مؤلف دراسة ضد الولايات المتحدة عنوانها : « التمساح وسمك السردين » .

المصالح الاقتصادية الكبرى – هي حقاً وفعلاً صاحبة المكانة الأولى .

وهكذا ، في مدى تسع سنوات بطيئة التطور ، تخلى فيها عن الكفاح ثوريون كثر ، رأينا الواقع يعلم قادة غواتيمالا أشياء كثيرة لم تكن الكتب تفسرها أو لم تكن تقدم لها التفسير الصحيح . كذلك ظل هناك عدد من هذه الأشياء لم يفهموه إلا بعد فوات الوقت ، بعد أن كانوا أضاعوا السلطة . ومن هذه الأشياء الأخيرة أن العسكريين المحترفين يتخلون عن الثورة بأسرع كثيراً مما يقتضيه تحمس الجماهير الهندية لها ، وأن هذا التباين في وتائر المسيرة الثورية يهدد بافساد كل شيء . وهذا ما حدث فعلاً آخر الأمر ، فجعل التجربة الغواتيمالية خائرة مبهورة الأنفاس .

ومع ذلك ، في تشرين الثاني ١٩٥٣ ، حين وصلت مع « فالدوفينوس » الى مرفأ « سان خوسه » ، كان حماس مؤثر يهيمن على غواتيمالا . على أننا بعد بضعة أيام لم نعتم أن لمسنا وراء هذا الحماس إلى أي مدى كانت أحاديث المقاهي وغيرها من المنتديات مشحونة بالكهرباء ، وبأي قلق مبهم كان التجار يلمحون الى النزاع بين الحكومة وبين « اليونايتد فروت » .

كنا ، طوال عشرين يوماً ، قد انتظرنا عبثاً وصول غيفارا و « غوالو غارسيا » الى « باناما » ، حيث كانت الشمس اللاهبة والمظاهرات المعادية لأمريكا تتعاون على خلق مناخ مشبع بالحمى ، فترتفع الحرارة مع عنف الأهواء السياسية وتهتاج الأهواء السياسية في حمارّة القناة الرطبة ، ثم لا يلبث المرء أن يقتنع بأنه لا سبيل الى تغيير المناخ ولا تغيير الوضع السياسي فيصبح عاجزاً عن احتمال التعايش مع هذين العنصرين . لذلك وجدنا أنفسنا ، بعد ثلاثة أسابيع أعاننا على قضائها حس التضامن لدى الطلاب ، نقرر استئناف رحلتنا دون مزيد من الانتظار .

وكنت أسافر بجواز أرجنتيني ذي طبيعة خاصة ، إذ لم أكن أستطيع

– رسمياً – استخدامه إلا للسفر الى غواتيمالا ، البلد الذي منحني حق اللجوء السياسي . وكان هذا الجواز ، وهو مجرد تذكرة مرور ، يحدد خط مسيرتي سلفاً ويضعني بصورة طبيعية تحت تصرف السلطات الغواتيمالية بمجرد وصولي الى نهاية الرحلة . لذلك ذهبت أقدم نفسي إلى وزارة الشؤون الخارجية منذ اليوم التالي لوصولنا إلى العاصمة . وكان وزير الخارجية يدعى « راوول أوثيفيدا » ، وهو مربٍ درس في الأرجنتين ، مثل « أريفلو » ، ولكنه على خلافه كان قد عاش مع الطلاب البوهيميين وفي ملاهي الليل . وكان قد كسب كفاف عيشه في الأرجنتين كموسيقي في احدى الفرق الشعبية ، يعزف على « الغيتار » في الحفلات الراقصة . وقد ظل يحفظ لتلك السنوات حنيناً وذكريات رقيقة .

وأصبح الوزير « أوثيفيدا » ظهيرنا ووليّ نعمتنا ، فدفع نفقات مقامنا المتواضع قريباً من الشارع الخامس ، وفتح لنا أبواب المجتمع الرسمي والسياسي في غواتيمالا .

كان هذا العالم السياسي حافلاً بالنشاط والحياة ، ولكنك ما تكاد تمعن النظر فيه ببعض البصيرة حتى تنتهي الى الاقتناع بأن النظام كان يسير على منحدر الأطماع الشخصية المزوقة بمظاهر الاتجاهات العقائدية . ولقد لفت نظرنا ما لهذه الظاهرة من ملامح غريبة أصيلة : اذ كانت كل الأحزاب تعلن ولاءها للثورة وتمسكها بها ، فكان ممكناً إذن أن تقوم ديمقراطية متعددة الأحزاب ومتحدة في الوقت ذاته من حول هدف الثورة الواحد . وكان في هذا تناقض صارخ مع ما نعرفه نحن القادمين من الأرجنتين ، حيث يحكم رئيس « قوي » يؤيده حزب جماهيري ولا يجنح كثيراً الى الاغضاء على دسائس الأشياع والمناورات الصغيرة . لم يكن في وسعنا اذن تجاهل تلك الظاهرة البينة ، ولكن الزمن وحده كان الكفيل بالحكم على مدى قدرة مثل هذا النظام أن ينهض بأعباء مسيرة ثورية .

في تلك الفترة علمنا بوصول أرجنتينيين أخوين كانا يقومان برحلة بين الولايات المتحدة وبونس آيرس على سيارة « فورد » من طراز ١٩٤٦ . وكان أكبر هذين الأخوين ، ويدعى « والتر بيفراجي أليندِه » ، أستاذاً للاقتصاد السياسي في جامعة بوسطن ، سبق له أن كان بطلاً لفضيحة دولية انتهت بدفع الرئيس بيرون إلى حرمانه من الجنسية الأرجنتينية ، في ظروف لا سابقة لها عندنا وقلما عرفت مثلها دول أمريكا اللاتينية الأخرى . وكان يعبر الحدود حاملاً توصية خطية من وزارة الخارجية الأمريكية ، تبرز صفته كأستاذ في احدى جامعات الولايات المتحدة . أما الأخ الأصغر ، « دومنغو بيفراجي أليندِه » ، فكان قد هرب الى الأوروغواي دون وثيقة سفر ، وها هو ذا يرافقه حاملاً بطاقة صادرة عن الأوروغواي تشير الى جنسيته الأرجنتينية .

وبالطبع ، مثل هاتين الشخصيتين كان لا بد لهما أن يلتقيا بنا في مكان ما على سطح الكرة ؛ وقد تم هذا اللقاء في غواتيمالا . وفي الوقت نفسه وجدت زميلي « فالدوفينوس » ، الذي كان قد تزوج تتويجاً لقصة غرامية قصيرة مع فتاة ارستقراطية في باناما ، يتخذ القرار بهجران المغامرة وبالعودة إلى امرأته التي تنتظره في بلدها .

وهكذا حملت تذكرة مروري وارتضيت صحبة الشقيقين المسافرين . وكنا ثلاثتنا نحمل وثائق السفر الأشد اثارة للشبهات ، في تلك الحقبة وفي أمريكا الوسطى . فاذا ما قدمت هذه الوثائق معاً كان من شأنها أن تثير الذعر لدى أي قنصل . وهذا ما حدث بالفعل لقنصل « السلفادور » ، وهو موظف لا يمتاز بالكياسة ظل يحدجنا بنظره من أعلى إلى أسفل ويهز رأسه من الشمال إلى اليمين هزة الرفض ، إلى أن استطاع الوزير « أوثيغيدا » اقناع سفير السلفادور نفسه بأن مرورنا ببلاده لم يكن له إلا هدف « ثقافي » .

وكانت غايتي أن أعثر على غيفارا و « غوالو غارسيا » ، اللذين كنت أفترض أن يكونا متورطين ببعض المشكلات الادارية مع السلطات البانامية ، بل كان

يبلغ بي الأمر أحياناً أن أخشى أن يكونا قد أخفقا حتى في الإبحار على ظهر سفينة « الأسطول الابيض » التي كان مفترضاً أن تخرج بها من الاكوادور .

ولذلك ، ولأن الأخوين صاحبي « الفورد ٤٦ » كانا يواصلان رحلتهما باتجاه الجنوب ، انضممت اليهما وبدأنا رحلة عسيرة عبر « جمهوريات الموز » كما تسميها صحافة أمريكا الشمالية . وكان موسم الأمطار قد بدأ وغمر السيل قسماً من الطريق الوحيدة الصالحة للسيارات ، فتعثرت كل المواصلات البرية وقرر كثيرون من سائقي الشاحنات أن يوقفوا رحلاتهم حتى انتهاء هطول الأمطار . أما نحن فاجتزنا جمهورية السلفادور وفي يوم ١٦ كانون الأول كنا ندخل هوندوراس من نقطة الحدود في « المانتيليو » ، ثم نعبرها مباشرة الى نيكاراغوا التي وصلنا حدودها بعد يومين فحسب . وبعد ذلك اتجهنا نحو « ماناغوا » ، ومنها الى « ريفاس » ، تلك المدينة الصغيرة ذات الطراز « الاستعماري » التي سألنا فيها الكثيرين فألحوا جميعاً في نصحنا بعدم مواصلة السير نحو الجنوب ، قائلين إن مياه الامطار قد ذهبت بقطاعات كاملة من الطريق وأنه يستحيل عملياً على أية سيارة أن تدير عجلاتها في مثل هذا الحال .

ولكن رفيقي صاحبي « الفورد » كانا قد أخذا يقودها وتركا نصائح القرويين الحكيمة تتناثر مع الريح . فما كدنا نقطع خمسة عشر كيلومتراً بعد « ريفاس » ، وقد أصبح الماء يؤلف ستاراً صفيقاً تستحيل رؤية ما وراءه ، حتى أخذنا نتساءل هل يقدر لنا في مثل هذا الطوفان أن نصل ذات يوم الى « بيبدرا بلانكا » ، مدخلنا إلى « كوستاريكا » .

وكنا نسير وأعصابنا متوترة ،وعيوننا مشدودة إلىذلك الطريق الذي يشق لنفسه ممراً عبر الغابة العذراء الأشد كثافة في كل أمريكا الوسطى . وفجأة بصرنا شبحين يخوضان في الوحل . ولم يكن هنالك سبيل إلى الشك في أنهما كانا رجلين يخطوان ببالغ العسر على حافة الطريق في الاتجاه المعاكس . وكنا نتداعى إلى التوقف لسؤالهما عن حال الطريق الذي قطعاه حين انشقت كوة

في الافق المظلم أتاحت لنا أن نتبين وجهيهما ، فاذا هما « ارنستو غيفارا » و « غوالو غارسيا » وزكيبة السفر على ظهرهما، متبللين حتى العظام ، ووجهاهما يتصببان مطراً وعرقاً معاً

وهتفت :

– قف !

وكان هتافي من القوة بحيث تسمرت العربة في مكانها وتسمر الشخصان السائران أيضا .

وغمرنا بعضنا بعضاً نتعانق . ولم أعن بالشكليات ، ونحن على تلك الحال ، في تعريفي صاحبيْ « الفورد » على غيفارا و « غوالو غارسيا » . أما المعلومات التي أعطيانا إياها عن حالة الطريق فقد وقف لها شعر رأسنا : فالطوفان كان قد ذهب بكل الجسور وبكل المنخفضات المردومة ، وكانت سيارتنا أول وسيلة نقل يلتقيان بها منذ ست ساعات ، مما يدل دلالة قاطعة على أن البيانات الرسمية كانت قد أعلنت أن الطريق غير سالكة وعلى أن محطات الاذاعة قد نصحت سائقي الشاحنات بالعدول عن رحلاتهم المقررة .

واعتزمنا أن نعود أدراجنا الى « ريفاس » . وكنت وغيفارا في بالغ الغبطة ، فلم نتوقف طوال الطريق عن تبادل الحكايات عما وقع لنا منذ افتراقنا في « غواياكيل » ، وعن رسم مشاريع العودة الى غواتيمالا .

هكذا علمت أن « الاسطول الابيض » أنزلهما الى البر في « باناما » فانتقلا منها الى « كوستاريكا » تارة على ظهر الشاحنات وتارات على الاقدام . كما علمت أن حادثاً وقع لهما : إذ كان غيفارا جاثماً على ظهر تلك الشاحنات فوق صناديق الفواكه الاستوائية ، فانقلبت الشاحنة في حفرة فتطاير غيفارا في الهواء قبل أن يقع على الارض ، وبعد عشرة أيام كان لا يزال يشكو ألماً في أوتار ذراعه الأيسر وعضلاته ، ويحركه بصعوبة .

وبلغنا « ريفاس » مع الغروب ، فاكتشفنا قريباً من ميدانها الرئيسي القديم

نزلاً كان فيه رجال يدخنون في هدوء بينها الفتيات يعددن طعام المساء ، فنزلنا فيه ، فكانت ليلة لا تنسى ، حفلت بشراب « المتة » [1] وبالحنين إلى الوطن البعيد حنيناً ترجمه صديقانا صاحبا « الفورد » الى أغان يرافقها « القيثار » .
وحوالي الساعة السابعة أطعمونا ارزاً مع الدجاج الحمر ، وصلا مباشرة إلى مائدتنا في القدر الذي طبخا فيه . كان غيفارا يأكل في تؤدة ، « تكويناً للاحتياطي » ، وفقاً للفلسفة التي كان شرحها لي في بوليفيا . وكانت تلك أول وقعة طعام حقيقية ينعم بها غيفارا ورفيقه منذ خمسة أيام ، فاحتفلنا بهذا الحدث في تفاؤل ساذج ، يعود الى لقائنا على تلك الصورة غير المنتظرة وإلى يقيننا بأن كل شيء سيجري على ما يرام في غواتيمالا .

وفجأة اكتشفنا أننا ، بلبوسنا الشاذ وبموسيقانا وأغانينا الشعبية الارجنتينية ، كنا نقدم مشهداً مسرحياً مرتجلا بالغ الغرابة ، فاذا المستمعون يتحلقون حولنا في اهتمام وجذل ، واذا أمواج من الاطفال قد قطعت ألعابها لتأتي فترانا من قريب وتستمع إلى أغانينا .

وقال غيفارا ، وهو يسأل ويبادر إلى الجواب دون أن ينتظره منا :
– أتعرفون بماذا فكرت حين رأيتكم قادمين ؟ لقد قلت في نفسي : هؤلاء « اليانكي » [2] هم أبناء زانية ... لهم السيارة في هذا المطر الملعون وعلينا نحن السير على الاقدام !

وكان غيفارا على حق في هذا الخاطر ، إذ كانت سيارة « الفورد » تحمل لوحة ترخيص أمريكية ولوحة أخرى كتب عليها : « جامعة بوسطن » . لذلك

---

(١) « المتة » أو « جربا متة » شراب من جذور مغلية يستخدم بديلاً من الشاي في جنوب أمريكا اللاتينية ، ويتكاثر وجوده على الأخص في شمال الأرجنتين وجنوب الباراغواي . (المعرب)

(٢) « يانكي » و « غرينغو » مصطلحان شعبيان تحقيريان يشيران الى سكان الولايات المتحدة .

ظن غيفارا مدى لحظة أن المحظوظين المسافرين في تلــك السيــارة كانوا من أمريكا الشمالية .

وفي « ريفاس » — هذه المدينة التي دخلت التاريخ بعد سنوات حين قتل فيها الدكتاتور « آناستاسيو تاتشو سوموزا »[1] — حدث أن قرر صديقانا صاحبـا « الفورد » أن ينكصا عن مواصلة رحلتهما في السيارة . وكان هذا التغيــير في البرنامج يخلق مشكلة جديدة لأن السيارة مسجلة في الولايات المتحدة فليس من الممكن بيعها دون وجود ما يقتضيه هذا البيع من وثائق استيراد . وبعـد أن حسبنا مقدار ما يمكن أن يعود به علينا بيع السيارة، قررنا بالاتفاق أن نذهب إلى « سان خوسه » عاصمة « كوستاريكا » ، على أمــل أن يساعدنا صديقي « أوثيفيدا » على بيع سيارتنا في غواتيمالا بصورة قانونية .

واحتفلنا بمولد عام ١٩٥٤ في « سان خوسه » ، العاصمة الأكـثر احتفاظاً بالطابع الاسباني والأشد رعاية للتقاليد في أمريكا الوسطى . وكانت قــد أصبحت مقراً عامـــاً لقيادة منظمـة كان من أعضائهـــا الرئيس « خوسه فيغيريس[2] » نفسـه .

---

(١) جنرال من نيكاراغوا ، ولد عام ١٨٩٥ ومات مقتولاً عام ١٩٥٥ . اشترك عـــام ١٩٢٥ في انقلاب تؤيده فرق « البحرية » الأمريكية . وبأوامره قتـل زعيـم المعارضة « ساندينو » عام ١٩٣٢ . أصبح رئيساً للجمهورية من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٧ ، ثم خلفه مؤقتاً وتابع نهج سياسته المتسلطة الأمريكية الرئيس « لا كايو » . [المعرب : الطريف أن هذا الاسم الاسباني يعني في الوقت نفسـه : التابـع ، العبد ، الذيلي]. ثم أعيد انتخابه للرئاسة عام ١٩٥٠، وفي عام ١٩٥٥ ـ قبيل الانتخابات التالية ـ جرح جرحاً خطيراً خلال حفلة راقصة ، فحملته طائرة الرئيس أيزنهاور الخاصة الى باناما ، حيث مات . وكانت سياسته بين ١٩٥١ و ١٩٥٥ قد خلقت توتراً شديداً بين نيكاراغوا وبين كوستاريكا في عهد الرئيس « فيغيريس » .

(٢) قاد « فيغيرس » ثورة ١٩٤٨ في كوستاريكا ضد الرئيس « كالدرون » ، ثم كان رئيساً لجمهوريتها من ١٩٥٣ الى ١٩٥٨. وهو نموذج « القومي الليبرالي » في أمريكا اللاتينية.

هذه المنظمة ، المسماة « فرقة الكاريبي »[1] ، كانت تمثل دور « أممية » ديمقراطية وتضم عدداً من الشخصيات « الليبرالية » بين أشهر الرجالات في هذه المنطقة من العالم . كانت قد أنشئت أيام رئاسة « كارلوس بريو سوكاراس » في كوبا ، وقت أن كان يقيم في هافانا كل من الفنزويلي « رومولو بيتانكور » والدومينيكاني « خوان بوش »[2] . ثم أصبح لها فيما بعد قدر من النفوذ استطاعت معه أن تفرض على رئاسة الحكومة الدومينيكية « اوتيليوابلاته »

---

(١) كانت هذه المنظمة الى حد بعيد « نادياً » يجمع اللاجئين السياسيين التقدميين في منطقة الكاريبي ، حاول أعضاؤه القيام بعمليات متعددة ضد « الأنظمة السلطوية » في بلدانها المتعددة، وكان أبرزهم « آربنز » و « أريفلو » « من غواتيمالا » و « بيتانكور » و « ليوني » (من فنزويلا) و « بوش » (من جمهورية سان دمينغو) . وكانوا على صلات وثيقة بالحزب الثوري المكسيكي وبنظام « فيغيريس » في كوستاريكا ... ومن أبرز منابرهم الجريدة « الليبرالية » الكولومبية « التيمبو » .

(٢) « بيتانكور » من سياسيي الطبقة الوسطى في فنزويلا . كان لا يزال طالباً حين اضطر للهرب الى « كولومبيا » خلاصاً من ارهاب شرطة الدكتاتور « خوان فيسنتي غومس » . وهو مؤسس « حزب العمل الديمقراطي » الذي كان في نشأته ذا نزعة تقدمية وقومية . وفي عام ١٩٤٥ على أثر انقلاب قامت به لجنة من الضباط ، سمي رئيساً بالوكالة ، فنزع ملكية الامتيازات البترولية الأمريكية (التي أعادها الدكتاتور « بيريز خيمنيس » فيما بعد) . ثم نفى العسكريون « بيتانكور » من فنزويلا فلم يعد اليها إلا عام ١٩٥٨ لينتخب رئيساً للجمهورية، فكان على صلات طيبة بكاسترو لم يلبث أن فسدت على أثر محاولة لاغتياله اتهم الكوبيين بالتحريض عليها . وهو صاحب « نظرية بيتانكور » القائلة بأن الدول الديمقراطية في أمريكا اللاتينية لا ينبغي لها أن تقيم أية علاقة مع الأنظمة التي تبلغ السلطة بقوة السلاح . وهو يقيم في سويسرا بعد انتهاء ولايته عام ١٩٦٣ .

أما الدومينيكي « خوان بوش » فقد أمضى أكثر حياته في المنفى بسبب معارضته لنظام أسرة « تروخيليو » . فلما سقطت هذه العائلة عاد الى بلاده وانتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٦٣ . ولكن العسكريين لم يلبثوا أن أسقطوه ، (المعرب : وتدخلت قوى « البحرية » الأمريكية في الأزمة تحت ستار منظمة الدول الأمريكية) فذهب الى « بورتوريكو » ثم الى اسبانيا .

مرشح « فيغيريس » ، ثم « فيغيريس » نفسه فيما بعد. وحين استولى « فولخانسيو باتيستا » على السلطة في كوبا عام ١٩٥٢ اضطر زعماء « الفرقة » إلى مغادرة كوبا إلى « سان خوسه » .

واقع الأمر هو أن « الفرقة » لم تحقق قط انتصارات عسكرية هامة . ولكن مع ذلك ، وبرغم الهزائم ، استطاعت الحملات المتتابعة التي قام بها « كايو كونفيتس » و « لو بيرون » على الدكتاتور « تروخيليو » في « سان دومنغو » أن تؤلف جنيناً لتنظيم عسكري في حوض « الكاريبي » ، وأن تعلم عدة مئات من الشباب استخدام الأسلحة الحديثة ؛ وهي بصورة خاصة قد أسهمت بمغامراتها في استثارة حماس الطلاب في كل أمريكا الوسطى . وأخيراً فان « الفرقة » عملت على تنمية الأخوة حتى أمدائها القصوى بين أعضائها ، هؤلاء المواطنين الذين ينتسبون إلى أمة أوسع من تلك الأمم التي تحدها الفواصل السياسية البالغة الضيق . وتلك كانت نظرة مبنية على فكرة « بوليفار » ، فكرة الأمة اللاتينية الامريكية الكبرى ، وان كانت في هذه الحالة الخاصة تقصر نشاطها على بلدان الحوض الكاريبي . هكذا اشترك مواطنون من كوبا وهوندوراس ، متساوون عدداً مع الدومينيكيين ، في تنظيم حملات ضد « تروخيليو » تم إعدادها في كوبا بحماية الحكومة ، وانطلقت أحياناً من غواتيمالا تكلؤها عين الحكم الراضية . ان أسلوب تعبئة جنود « الفرقة » على هذه الصورة قد محا الحواجز بين الأوطان المحلية ، تماماً كما كان النضال ضد السيطرة الاسبانية في القرن الماضي وحدة اندمجت فيها كل أمم القارة .

في تلك الحقبة كان زعماء « الفرقة » يعيشون في مدينة « سان خوسه » الوادعة ، في ضاحية سكنية كان الفنزويليان « رومولو بيتانكور » و « راوول ليوني » [1] والدومينيكي « خوان بوش » يقطنون معاً في أحد منازلها . فاذا

---

(١) رئيس جمهورية فنزويلا منذ ١٩٦٣ . وكان خلال حقبة طويلة رفيق « بيتانكور » في منفاه وساعده الأيمن في قيادة حزب العمل الديمقراطي .

فكر المرء أن ثلاثتهم قد وصلوا بعد سنوات إلى الرئاسة ، كلاً في بلده كان أيسر عليه أن يقدر مدى ما كان يشهده هذا المنزل في « سان خوسه » من زيارات ومن حوار فكري .

ولذلك لم يدهش « بيتانكور » أبداً يوم ذهبنا اليه ، أنا وغيفارا ، وأبدينا رغبتنا في التحدث معه بشأن السياسة اللاتينية الأمريكية . وكانت مهارة « بيتانكور » في الجدل تكشف عن تربية ماركسية ، ولكن طلاقة لسانه في النقاش كانت تكشف أيضاً عن طموح إلى السلطة لا يقاوم . ولقد كان مستحيلاً إذ ذاك أن يعرف المرء الثمن الذي كان « بيتانكور » مستعداً لدفعه لتحقيق ذلك الطموح . ولكن ، أياً كان الحال، كان لا بد للمرء أن يعجب بسعة معارفه وبصفاء فكره . ولذلك كان اللقاء الأول مرضياً ، وقرر « بيتانكور » تعميقه بدعوتنا الى الغداء .

في تلك الايام،كان توجيه مثل هذه الدعوات الينا أفضل ما يمكن أن نسمعه من أخبار . وكان المفروض أن نطرب كثيراً ، كما نطرب للخبر المفرح ، كلما دعانا « بيتانكور » الى الأكل ، بصرف النظر عن الظروف ، في مطعم ايطالي صغير كانت صاحبته الكهلة ، والتي لا تزال برغم ذلك جميلة ، تقوم بخدمتنا فيه دون أن يفوتها تبادل النظرات ذات المعنى مع « خوان بوش » . وكان « بوش » ، هذا الخلاسي ذو النظرة العميقة والاناقة العفوية غير المصنوعة،يصرف كل اهتمامه إذ ذاك لكتابة الروايات التاريخية .

على أن غيفارا شعر لتوه ، وبصورة عفوية ، بالانجذاب نحو « خوان بوش » ، بينما نفر سريعاً من « بيتانكور » . فمع « بوش » كان يتحدث عن أدب أمريكا اللاتينية ، وعن القصص التي كان يكتبها ذلك الدومينيكي ، وعن كوبا التي جعل منها مادة لكتاب مفعم بالحب لم ينشر بعد ، فتنطلق قريحته العميقة الحساسة على سجيتها ، وتؤلف هذه الاحاديث امتداداً لشغفه بالمطالعة وبالموسيقى . أما « بيتانكور » فكان بينه وبين غيفارا حاجز غير مرئي. ولئن

كنت أعتقد أن الامر بالدرجة الاولى أمر اختلاف بين المزاجين ، فانهما لم يكونا أكثر تفاهماً على صعيد الافكار . كان « بيتانكور » مثلا يرى للولايات المتحدة صورة مزدوجة : أحد وجهيها قريب إلى القلب ، يمكن أن ينتظر منه العون والتفهم ، أما الآخر فكريه مقيت لأنه وجه « الامبريالية » التي كان يعتزم مكافحتها . ولكن غيفارا كان يرد بأن هذا التقسيم يطرح مشكلة زائفة ، هي كجميع المشكلات الزائفة لا تفيد الا الطرف الأقوى . لذلك كانت كل مناقشاتهما حول وجوه علاقات امريكا اللاتينية بالولايات المتحدة مناقشات دائمة العقم ، وان ظل غيفارا على استعداد للاصغاء في احترام للحجج التي يقدمها محدثه .

وذات يوم ، في أحد المقاهي الصغيرة في « سان خوسه » ، بينما نحن نتحدث من مائدة إلى أخرى ، قامت الصلات بيننا وبين لاجئين سياسيين آخرين ، في مثل شبابنا ، كانوا قد وصلوا قبل قليل . وكان هؤلاء اللاجئون يؤلفون مجموعة كثيرة الفوضى والضجيج ، ويخوضون في حديث السياسة بمثل الوفزة التي تأخذهم إذ يتحدثون عن النساء ، ويعانون مثل ما نعاني من ضنك العيش في بلد لا يكادون يعرفون أحداً فيه .

هؤلاء كانوا كوبيي ٢٦ تموز ١٩٥٣ ؛ ونحن عرفناهم في « سان خوسه » في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ ، وسمعناهم يروون حكايات مؤثرة كحكاية المذبحة التي جرت في أعقاب الغزوة الفاشلة لثكنة « مونكادا » ، وكالارهاب الذي بدأ يلطخ بالدماء شوارع المدن في كوبا ... حديث كان يدفع إلى أذهاننا ، أنا وغيفارا ، صوراً عن عالم غريب مرعب ، الاعدام بالجملة وبلا محاكمة ، وفيه ألوان استخدام المتفجرات في الهجوم ، والمناورات العسكرية داخل حرم الجامعات ، وفيه المصادرات وطلقات الرشاشات ، يتحدثون عنها جميعاً عفو الخاطر فنذهل لحديثهم ونضطرب . ثم ينصرفون ليطرقوا الباب بعد الباب ، يبيعون سلعاً صغيرة صنعوها بأنفسهم أو يقبضون حوالات أرسلها اليهم

أقرباؤهم أو أصدقاؤهم في كوبا أو في الولايات المتحدة .

ومنهم ، لأول مرة ، سمع غيفارا حديثاً عن « فيدل كاسترو » .

ولكن غيفارا في« سان خوسه » كان نادراً ما حمل أحاديثهم على محمل الجد. وكان كثيراً ما يضع نهاية لحكاياتهم العجيبة المؤثرة بمثل هذه الجملة الساخرة : « كفى هذراً . لماذا لا تقصون علينا واحدة من روايات رعاة البقر ؟ »

وغادرنا « كوستاريكا » إلى « سان سلفادور » في احدى سيارات النقل المشترك . كان صديقانا صاحبا « الفورد » ، اللذان سبقت لهما معرفة بالرئيس « فيغيريس » ، قد استطاعا آخر الأمر الحصول على ترخيص ببيع سيارتهما ، فتركناهما يكملان اجراءات هذا البيع .

وحين دخلنا « السلفادور » ، توقفت السيارة يوماً في « سانتا آنا » ، ثانية مدن الجمهورية ، لتحمل بعض الركاب الجدد . إذ ذاك تذكرت أن سفير السلفادور في غواتيمالا كان قد تلطف بنصحي بزيارة رجل يدعى « الكولونيل فيديس » إذا مررت بهذه المدينة ،فاغتنمنا فرصة التوقف للأخذ بهذه النصيحة. واذ سألنا عن « الكولونيل فيديس » عرفنا أنه أقوى شخصيات المدينة وأحد العشرة الكبار في « السلفادور » ، بحيث أتصلنا به في يسر ، فلما عرف سبب زيارتنا بالغ في الترحيب بنا واستضافنا في مزرعة واسعة للبن تدعى « مزرعة الصلبان » ، مغروسة وفق أحدث الاساليب ومجهزة بأكثر المعدات تعقيداً لمعالجة المحصولات . وكانت للكولونيل ابنة خارقة الجمال ، عرضت أن تكون دليلنا في زيارة أرجاء المزرعة ، التي أدهشنا نجوع أسلوب استغلالها ولكن لفتت نظرنا فيها تفاصيل تدفع إلى الحيرة : اذ كانت المزرعة محاطة بأسلاك شائكة ترتفع مترين وكان يطوف فيها أناس ذوو بزة عسكرية ولكنهم لا يحملون ما يشير الى رتبة لهم في جيش « السلفادور » ولا ألوان رايته ، بل يحملون بدلاً من ذلك مسدسات ضخمة من عيار ٤٨ وأن بدوا على رغمها مسالمين . وتلطفت ابنة الكولونيل فأرضت توقنا الى معرفة السر : قالت ان

هؤلاء هم رجال « الشرطة الداخلية » في المزرعة ، المكلفون باعادة النظام فيها اذا ما تمردت « تلك الجماعة » ، مشيرة بيدها الى النساء والاطفال الذين كانوا ينتظرون الرجال في أكواخ بالغة القذارة .

واحتبس صوتنا للبساطة البريئة التي ذكرت لنا بها هذا التفسير ، فلما كان المساء شرح لنا أبوها أن « الشرطة الداخلية » كانت أمراً لا بد منه نظراً لما يتصف به الفلاحون من عدم انقياد ومن كراهية للعمل . ولعله خشي أن نكون لم نفهم بعد فذكر لنا أن رتبة الكولونيل لم تأته ثمرة للدراسة في الكلية العسكرية ، بل مكافأة له على أنه – قبل خمس وعشرين سنة قضى على حركة تمرد فلاحية .

ولا حاجة الى القول بأن تلك كانت ليلتنا الأولى والاخيرة في مزرعة الصلبان ، ضيفين على الكولونيل اللطيف الذي يؤدب الفلاحين برصاصه وعلى ابنته الحلوة التي كانت تحاول طمأنتنا بقولها :

« ان أبي مثال في طيبة القلب » ! ...

ولكننا لم نكد نصل الى غواتيمالا حتى أثارت دهشتنا الصورة النقيضة .

ففي أواسط كانون الثاني ١٩٥٤ كانت الحرارة السياسية ترتفع ارتفاعها الخطر في غواتيمالا ، وكان يكفي أن يكون المرء على بعض الخبرة بمثل هذه الظروف ليدرك أن شيئاً ما كان وشيك الانفجار .

وفي ٢٩ كانون الثاني كشف الرئيس « آربنز » [١] عن أن هناك غزواً مسلحاً

---

(١) عسكري ورجل سياسي غواتيمالي . انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٥٠ فتابع نهج سياسة الرئيس « أريفلو » ولكن بصورة راديكالية . وهو الذي قرر تأميم أراضي شركة « اليونايتد فروت » ، فأعلنت الولايات المتحدة في ٦ تموز ١٩٥٣ أن الحكومة الغواتيمالية هي « بين أيدي الشيوعيين » وضغطت على دول امريكا اللاتينية لتقطع معها علاقاتها . وفي آذار من العام التالي ، في المؤتمر العاشر لمنظمة الدول الأمريكية في كراكاس ، كانت غواتيمالا الدولة الوحيدة التي عارضت اعتبار الشيوعية « خارجة على القانون » في أمريكا . وقد استقال « آربنز » في ٢٧ تموز ١٩٥٤ بعد غزو « كاستيليو آرماس » بمساعدة الولايات المتحدة ، ولجأ الى المكسيك ثم الى سويسرا .

كان مهيأ ضد بلده ، وان قوة عسكرية كانت تحشد لهذا الغرض في السلفادور والجمهورية الدومينيكية ونيكاراغوا وفنزويلا ، وأن « حكومة شمالية » كانت وراء هذه المؤامرة . وبالطبع ، كان هذا التصريح يعني القطيعة عملياً بين غواتيمالا والولايات المتحدة ؛ إذ أن أي حكومة في أمريكا اللاتينية ، حتى ولو كانت في أقصى الجنوب ، انما تعني حكومة واشنطن حين تتحدث عن « حكومة شمالية » . ولذلك سارعت وزارة الخارجية الأمريكية ، في اليوم التالي مباشرة ، وفي تعجل واضح المغزى ، الى الرد على وزارة خارجية غواتيمالا منكرة التهمة وقائلة انها تؤلف جزءاً من « مؤامرة شيوعية تستهدف الحيلولة دون نجاح المؤتمر العاشر للدول الأمريكية » الذي كان قد دعي الى الانعقاد في كراكاس في الأيام الأولى من شهر آذار التالي .

وكنا ، أنا وغيفارا ، قد نزلنا في نفس المسكن الذي سبق لي أن أقمت فيه وتكرم الوزير « اوثيغيدا » بدفع أجره . وذات يوم ، على حين غرة ، زارنا سفير الأرجنتين في غواتيمالا ، « نيكاسيو سانتشز تورنصو » . كانت وزارة الخارجية الغواتيمالية قد أعلمته بوجودي في البلاد ، باعتباري لاجئاً سياسياً . ولم يكن ممكناً بالطبع أن تكون زيارة « سانتشز تورنصو » لنا زيارة صديق ، ولكنها بالمقابل لم تكن زيارة عدو ، بدليل محسوس قدمه الينا : إذ جاء يحمل الينا « المتة » ، أفضل هدية كان يمكن أن نحلم بها بعيداً عن الارجنتين . وكان « سانتشز تورنصو » دبلوماسياً من أنصار بيرون ، بالاضافة الى أن شقيقاً له كان جنرالاً يعتبر من أكثر العسكريين ولاء للرئيس الأرجنتيني .

وتكررت زيارات « سانتشز تورنصو » . وكان في كل زيارة يحمل الينا « المتة » العزيزة التي يتلقاها بالطائرة من بونس آيرس ، وهدية أخرى لا تقدر بثمن : هي الصحف الأرجنتينية التي أصبح في وسعنا أن نقرأها ولما ينقض على صدورها أسبوع واحد . وكان يتابع تطورات الثورة الغواتيمالية بعطف ، وان كان لا يخفي مدى قلقه من عقابيل التدابير الانتقامية التي تحركها الولايات

المتحدة . وكان ما ان يطرق هذا الموضوع حتى ينتقل الى تحليل للعلاقات بين بيرون والحكومة الغواتيمالية ، فيضعني أنا وغيفار في موقف حرج ، بوصفنا كلينا من خصوم بيرون . ذلك أن الرئيس الارجنتيني كان دائم التأييد لحكومة غواتيمالا ، في حدود طاقته ، وكان مستعداً لمواصلة هذا التأييد كما تبين خلال مؤتمر كارا كاس . والحق أن اخلاص بيرون في علاقاته مع غواتيمالا كان يجعل موقفنا بالغ الارتباك .

ولقد زاد من هذا الارتباك ، بعد قليل ، أن الرئيس السابق « خوان خوسه أريفلو » كشف لنا – حول هذا الموضوع ذاته – عن أمر كنا نجهله من قبل : كان أحد أنسبائه القرابى قد توفي خلال مقامنا في غواتيمالا ، و « أريفلو » سفير في الشيلي ، فعاد فوراً الى غواتيمالا للاشتراك في مأتمه . وهناك أبلغه « أوثيفيدا » نبأ وجودنا فدعانا الى تناول الغداء معه قريباً من بحيرة «آماتيتلان»، في موقع رائع الجمال على بعد عشرين كيلو متراً من العاصمة. هناك، سألناه في لهجة ودية عن الأسباب التي كانت أيام رئاسته قد دفعته الى منح بيرون وسام « كتزال » ، أعلى الأوسمة التي تمنحها غواتيمالا لأجنبي ، فروى لنا الحادثة التالية : بعد قليل من صدور قانون العمل الغواتيمالي عام ١٩٤٧ أعلنت شركات النقل البحرية الامريكية أن بواخرها ستمتنع عن التوقف في الموانىء الغواتيمالية . وكان معنى هذا القرار فرض الحصار على غواتيمالا ، لأنها لا تملك أسطولاً خاصاً بها ، فبادر « أريفلو » الى مفاوضة بيرون سراً ، بواسطة زميله القديم في المدرسة العسكرية الارجنتينية ، الاقتصادي « خوان نونيز آغيلار » ، من هوندوراس . وذهب « آغيلار » الى صديقه القديم يشرح له المعضلة التي تواجهها غواتيمالا ، فاذا الرئيس ينادي لفوره مدير البحرية التجارية ويصدر اليه أمره بأن تعرج البواخر الارجنتينية على الموانىء الغواتيمالية . ثم اعترف لنا « أريفلو » بأن بيرون فعل في الواقع أكثر من ذلك : كانت البواخر الأولى التي دخلت موانىء غواتيمالا تحمل لها أيضاً أسلحة كان مصدرها مستودعات الجيش في بونس آيرس . وبعد هذه الاعترافات ، التي تفسر تكريم غواتيمالا

البالغ لبيرون ، كان هناك اثنان على الاقل من خصوم بيرون في أشد حـالات الخجل والارتباك .

في تلك الأيام ، كانت مقاهي غواتيمالا تعج بالانباء الكاذبة والشائعات السيئة القصد وبعملاء أجهزة المخابرات الامريكية . وكان عددمنهؤلاء العملاء يتصرفون بطلاقة كاملة : فلم يكن سراً على أحد أين مقر قيادتهم ولا أين وكيف يمكن بيعهم المعلومات الهامة التي يدفعون ثمنها بالدولارات . وكانت كل الاحاديث تنتهي عند الاشارة الى اسم « كولونيل » امريكي يدعى « كارل ستودر » ، يؤكد بعضهم أنه رآه ، ولكن الاقرب الى الواقع أنه كان « يهتم » بشؤون غواتيمالا من مقره في « ماناغوا » مستخدماً شبكة تجسس ضخمة .

وفي واحد من هذه المقاهي التقينا ببعض الكوبيين الذين سبق لنا أن تعرفنا بهم في كوستاريكا . كانوا مثلنا في بالغ القلق على الثورة التي تحيق بها الاخطار ، وفي الوقت نفسه كانوا يعدون العدة لثورتهم الخاصة . وكان من رأيهم أن قضية كوبا ستجد بداية طريقها الى الحل يوم يخرج « فيدل كاسترو » ، زعيم حركة ٢٦ تموز من معتقله في « جزيرة الصنوبر » [١] فيستطيعون الالتقاء به جميعـاً في المكسيك ، التي كانوا على وشك الانتقال اليها ، والتي كان وجودهم فيها سيجعلهم أقدر على مباشرة التأثير في بلادهم .

أما نحن فكان لنا وضع مختلف . كان غيفارا قد أعلن يومـاً أن واجبنا يقتضينا الالتحام التام بالثورة الغواتيمالية وخدمتها بصورة عضويـة ، عـن طريق احتلال منصب محدد من شأنه السماح بمباشرة هذه الخدمة . وكان بـلوغ هذا الهدف يبدو يسيراً على طبيب . ومع ذلك ، يوم قصدنا وزارة الصحـة العامة نحمل رسالة توصية من « أوثيفيدا » ، اكتشفنا أن القضية أكثر تعقيداً مما كنا نظن : عرض غيفارا خدماته بوصفه طبيباً ، وأعرب عن رغبته بالعمل في

(١) ظل كاسترو سجيناً في هذه الجزيرة من ١٩٥٣ الى ١٩٥٥ .

منطقة « بيتين » ، التي كانت تشهد تنفيذ برنامج هام لرعاية السكان المحليين ، وكانت في الوقت نفسه مقر احدى أروع أوابد حضارة « المايا » ، وهي هيكل « تيكال » الذي يرتفع سبعين متراً . كان الشغف بالآثار لا يزال اذ ذاك جانباً من اهتمامات « غيفارا » .

ودار الحديث سلساً ودوداً حتى خيل لغيفارا أن المنصب الذي يطلبه أصبح في جيبه ، ثم أضاف الوزير يسأل بلهجة تقليدية :

– بالطبع ، لديك بطاقتك ، أليس كذلك ؟

– أية بطاقة ؟

– بطاقة الانتساب الى « حزب العمل الغواتيمالي » طبعاً ...

فأجاب غيفارا وهو يخفي دهشته في صعوبة :

– لا . أنا رجل ثوري ، ولا أعتقد أن مثل هذا النوع من الانتسابات الشكلية يفيد حقاً ...

– هذا مؤسف . انها شكليات نحتاج اليها .

قال الوزير ذلك في لهجة قاطعة وهو ينهض من مقعده ، مشيراً الى انتهاء الزيارة . واذ ذاك صرخ به غيفارا وهو يودعه :

– اسمع ، أيها الرفيق . يوم أقرر الانتساب الى حزب ما ، سأفعل ذلك عن اقتناع لا تنفيذاً لطلب . هل فهمت ؟

ولعل الوزير فهم . المهم أن غيفارا لم يصبح قط طبيباً في « بيتين » . وكل هذا لانه رفض ملء ورقة انتساب الى « حزب العمل الغواتيمالي » ، وهو الاسم الرسمي للحزب الشيوعي . وكان الزعيم الشيوعي قد شجع العصبيات في حزبه الى حد جعله آخر الامر يختنق بها هو نفسه ، ثم يصبح بعد سنوات عدواً للشيوعية أشد العداء ، ويمثل تعصبه السابق .

وكانت جماعة اللاجئين السياسيين من بلدان أمريكا اللاتينية الى غواتيمالا تضم فريقاً وافر النشاط من البيروانيين أعضاء « الآبرا » ، الذين كانوا قد عهد اليهم

بالعمل في أجهزة التخطيط الاقتصادي والزراعي ، حيث كان للكثيرين منهم خبرة سابقة ممتازة . وقد كانت لقاءاتنا الودية مع البيروانيين سبب تعرف غيفارا الى « هيلدا غاديا » ، وهي شابة غريبة القسمات يشترك في رسم ملامح وجهها نسباها الهندي والصيني بنصيبين عسيري التحديد ، كانت تعمل في « الهيئة الوطنية لتنمية الانتاج » . وقد أثمرت علاقات غيفارا وهيلدا فيما بعد ابنة صغيرة تزوجا بعد ولادتها في المكسيك ، ولكن هيلدا في بداية عام ١٩٥٤ لم تكن أكثر من « رفيقة » غير ذات شأن بين اللاجئين ، لم يلبث غيفارا أن وقع في غرامها .

وفي شباط أخذت الحركة الشعبية المعادية للولايات المتحدة تزداد اتساعاً . وطرد من البلاد صحافيون أمريكيون ، كاجراء ثأري ، جزاء على حملتهم المنظمة ضد الحكومة وعلى اتهامهم لها بأنها كانت أسيرة الشيوعية . كذلك أنذر المسؤولون الكنيسة الكاثوليكية بأنهم لن يسكتوا عن معارضتها لهم ، واضطروا أحد الرهبان الى مغادرة البلاد .

وأتيح لنا الاشتراك في رحلة دراسية نظمتها رئاسة الجمهورية بغية اطلاعنا على المنجزات الصحية التي تم تحقيقها في « كيزالتينانغو » ، التي أقامت الحكومة الثورية فيها مستشفى وأوصلت اليها مياه الشفة . وفي هذه الرحلة التقينا عرضاً بأستاذ جامعي أمريكي يدعى « روبرت ألكسندر » ، ترافقه زوجته الجامعية أيضاً . كان « ألكسندر » أستاذاً للاقتصاد في جامعة « روتجرس » ، في « نيو برنشفيك » ، وكان — شأنه شأن زوجته — لا يفتأ يطرح أسئلة يسجل الاجابات عنها بعناية وتدقيق ، مظهراً ذلك الحرص على النظام الذي يمتاز به الجامعيون الأمريكيون دون سائر الأساتذة في بقية أنحاء العالم . وكان هذا الحرص على تسجيل كل شيء متعة لها بها غيفارا ، فقضى ردحاً من الوقت يتملى من منظر « ألكسندر » وهو يرصد ملاحظاته .

وكنا قد جلسنا ، أنا وغيفارا ، على المقعد الأمامي في عربة نقل ، الى

جانب أحد كبار الموظفين . ولقد لفت نظرنا ونحن نصعد رشاش وضع على أرض السيارة ؛ فلما سأل غيفارا الموظف عن سبب وجود مثل هذا السلاح أجابه بصلافة :

– لأننا ، نحن ، لا نريد أن يأخذونا على غرة ، عزلاً من السلاح ، شأنكم أنتم الأرجنتينيين . هنا ، سيكون عليهم أن يقتلونا حتى آخر رجل . وسيرون ...

وصحيح أننا كنا ، نحن الأرجنتينيين ، نستشعر في أنفسنا الغربة والضآلة أمام مثل هذا العنفوان ، المألوف في حوض الكاريبي الذي كان اذ ذاك أشبه بساحة حرب . ولئن عدت إلى حديث هذا الموظف مع غيفارا بعد بضعة أشهر ، فالحق أنه في لحظته تلك قد جعلني أقتنع أنه محارب مستعد أن يهب حياته لبلاده .

وحين عدنا من رحلتنا الى « كيزالتينانغو » كان غيفارا على استعداد لعدم تصديق كل ما رأته عيناه ، ولكنه كان جازماً قاطعاً في أمر واحد : هو أن ذلك الاستاذ الأمريكي ، الذي لم يدع دقيقة واحدة تفوت دون أن يسجل شيئاً ما في دفتر مذكراته ، لم يكن يمكن إلا أن يكون جاسوساً . فلما أعربت له عن شكي شخصياً في ذلك أجاب :

– « يا نكيون » ، أمريكيون في كل مكان . ماذا تحسبهم أتوا ليفعلوا هنا ؟ هل هم علماء باحثون أم جواسيس في جهاز المخابرات الأمريكي ؟

وكان هذا سؤالاً تشق معرفة الجواب عليه ، بينما كان يكفي أن تخرج إلى الشارع لتشير باصبعك الى المحرضين العاملين في خدمة أجهزة المخابرات الأمريكية ، ولتراهم جماعات في المقاهي ، يطلبون بصوتهم الخفيض معلومات عن التنظيم السياسي في الجيش ، ولا سيما عن درجة استمرار ثقة الجيش بالحكومة .

وكانت مشكلة الجيش أعقد المعضلات في كل تطورات تلك الأزمة ، وان لم يفهمها الثوريون أنفسهم على هذه الصورة . ومن هذه الوجهة ، كان غيفارا مقتنعاً بأن تخلف غواتيمالا كان أشد خطراً بكثير من تخلف بوليفيا . ففي بوليفيا كان لعمال المناجم والفلاحين تنظيم عسكري ، إذا كان لا يتمتع بكثير من التلاحم فهو في أية حال يعتمد على كون العمال المسلحين قد استطاعوا إلحاق الهزيمة بالجيش المحترف . أما في غواتيمالا فالجيش النظامي كان منذ عشر سنوات متتالية يشارك في الحكم ، ولكن الاجراءات الثورية كانت قد انزلقت على منحدر يتزايد ميلاً كل يوم . فهل كان العسكريون سيرتضون للسياسة الثورية أن تستمر في اندفاعها الحاد بعد أن أعلنت الولايات المتحدة معارضتها لها بصورة رسمية ؟ هذا ما كان غيفارا على شك من أمره ، ولذلك ذهبنا يوماً نسأل في شأنه قيادة الشبيبة الثورية . قال غيفارا لزعماء هذه القيادة :

– أنتم على ثقة غير محدودة بالضباط الشباب ، أليس كذلك ؟

– نعم ، لأنهم كانوا تلاميذ للكولونيل « آربنز » في الكلية العسكرية ...

– ولكن هل تعتقدون أن طراز الحياة والتربية العائلية ، وبصورة عامة كل ما يميز هذه الفئة من وجهة النظر الاجتماعية ، سيستطيع الصمود في وجه الضغط « اليانكي » إذا ما أصبح هذا الضغط شرساً عنيفاً ؟ .

ورد الشبان الثوريون بالايجاب . ولكن غيفارا نصحهم بتسليح فرق « ميليشيا » من الفلاحين ، كتلك التي شهدناها في بوليفيا ، بل أفضل اذا استطاعوا : فرق تملك عند الاقتضاء أن تسيطر على الجيش ، بل أن تحل محله وأن تقوم هي نفسها بكل أعباء الدفاع عن السيادة الوطنية .

وكانت لما تنقض أشهر قليلة حتى تحققت مخاوف غيفارا بصورة مأساوية . ولكني لم أكن هناك لأشهد تطورات الأحداث : ففي آخر شباط ١٩٥٤

غادرت غواتيمالا إلى المكسيك ثم إلى الولايات المتحدة، حيث قدّر لي أن أقضي سنة كاملة .

وتعانقنا . وهتـف بي بينما كانت سيارة النقـــل المشترك تتحرك في اتجاه الحدود :

– انتظرني في المكسيك .

هذا بينما كانت قصة الثورة في غواتيمالا تقترب من فصلها الأخير .

٣

ولادة ثائر

« وماذا في ذلك ؟ » .

قال غيفارا هذا في ابتسامة متحدية ، وهو يدور حول مائدة متواضعة من خشب الصنوبر ، وبيده آلة تصوير شمسي رخيصة يتظاهر بالتقاط الصور بها في حركات مفتعلة . وكان قبل ذلك ، وبعد التحيات المألوفة ، قد بدأ يشرح لي ، في خبث ، كيف يربح معاشه بالتقاط الصور في الميادين والشوارع . وكان يقول لي ان المعضلة « الفنية » الوحيد في هذا العمل هي أن الوحيدين القادرين في المكسيك على دفع ثمن تلك الصور الملتقطة في الشارع هم السائحون ، والسائحون في أكثريتهم الكبرى من سكان الولايات المتحدة ، ومن العسير أن تتخيل سائحاً من هؤلاء لا يحمل معه جهازه التصويري الخاص . وأضاف غيفارا وهو يمزح : « السوق النظرية ضخمة بالمورد، أما السوق الفعلية ففيها ما يقتلك جوعاً ... » .

كان ذلك في نيسان ١٩٥٥ . وكنت بعد سنة قضيتها في الولايات المتحدة قد ركبت الطائرة الى « مكسيكو » وفاءً بوعد قطعته لبعض الأصدقاء بالالتقاء بهم مرة أخرى في هذه المدينة . وكنت أعرف أن غيفارا لا يزال على قيد

الحياة ، وأنه خرج من غواتيالا في الدقيقة الأخيرة ، كما كنت في شوق الى لقائه والى سماع روايته الشخصية حول سقوط حكومة « آربنز » .

وكان غيفارا يحتل شقة متواضعة في المنزل رقم ٤٠ من شارع نابولي ، يعيش فيها مع زوجته « هيلدا غاديا » وطفلتهما التي كانت لا تزال بنت بضعة أشهر . كذلك كان هنالك مستأجر آخر ، هو غواتيمالي ضئيل القامة كان قد انضم الى غيفارا فهربا معاً من غواتيالا ، في القطار الذي حملهما الى « تاباتشولا » ، آخر محطة قبل الوصول إلى العاصمة . وهذا الغواتيمالي القصير ، الذي كانوا جميعاً ينادونه « الباتوخو » [1] ، كان شريك غيفارا في صناعة التصوير البائسة تلك ، بالاضافة إلى شريك ثالث هو المكسيكي الذي كانت تظهّر في معمله « الأفلام » التي كان الآخران يلتقطانها كل يوم .

تلك هي السنة التي قررفيها غيفارا – ربما خلال لجوئه الى سفارة الأرجنتين في غواتيالا – أن يحترف العمل السياسي ، وأن يسلك الى ذلك طريق الثورة . كان أكثر هزالاً ، وكان برغم عمله كمصور في الشوارع لا يزال على ذلك التسيب في مظهره وكأنه طالب في اجازة ، مع أن مكسيكو مدينة كبيرة ، لا يملك حتى المتمردون على الأعراف مثل غيفارا الا أن يحترموا بعض تقاليدها الاجتماعية .

وبدأ غيفارا يروي لي ما حدث في غواتيالا منذ رحيلي عنها ، فكان مطلع قصته هذا السؤال :

– هل تذكر ذلك الموظف الحكومي الكبير الذي كان يحمل رشاشاً في سيارته ؟

وكيف كان لي أن أنساه ، وهو قد أذلنا الاذلال كله برشاشه وبمواعيده أن يقاتل حتى الموت ...

---

(١) لقب شعبي يعني « ذا الساقين القصيرتين » .

– هل تذكره ؟ عال . لقد كان في طليمة الهاربين !

وانفجر في ضحكة ملعلعة تختلط فيها خيبة أمله العميقة بما كان دائماً يستشعره من ازدراء تجاه الأدعياء والقوالين .

وكان غيفارا قد شهد عودة ثورة غواتيمالا الى الاشتعال ، ولا سيما بعد المؤتمر العاشر لمنظمة الدول الأمريكية ، الذي عقد في كراكاس في آذار ١٩٥٤ [١] .

كانوا في العاصمة يعلمون ، بفيض من التفاصيل ، كيف أن جيشاً من المرتزقة كان يتم تحضيره في « تيغو سيبالفا » ، في هوندوراس ، وكيف كان هؤلاء المرتزقة يتميزون علانية بصليب معلق في صدورهم يجتازه خنجر . وكانت هذه القوة غير النظامية تضم شباناً من نيكاراغوا وهوندوراس وسان دومينغو ، جمعوا من بلدانهم المختلفة ، بالاضافة الى أناس من كوبا وكولومبيا سبق لهم الاشتراك في الحرب الكورية وكانوا مؤقتاً بلا عمل . ولم يكن لهذه القوة ، التي لا تضم أكثر من ستمائة رجل يضاف اليهم حوالي مائتين من الغواتيماليين ، أن تمثل خطراً عسكرياً جدياً؛ ولكنها بالمقابل كانت قادرة على العمل من الداخل: فاذا هي قاتلت في مناطق موزعة متناثرة فان الحكومة ستكون أسرع الى السقوط دون أن تكون هناك حاجة الى صدام مباشر بين الجيشين .

وقبل أسبوع من موعد الغزو قامت طائرات يقودها أمريكيون باسقاط ملايين من المناشير تحث الشعب على الانضمام الى « جيش التحرير » المحتشد على الحدود . وأخذ الكولونيل « كاستيليو آرماس » [٢] . يملأ الأجواء بتهديداته الاذاعية ، بينما كانت تتدهور علاقات الحكومة مع الكنيسة الكاثوليكية التي

(١) هو المؤتمر الذي تقرر فيه اعتبار الحزب الشيوعي « خارجاً عن القانون » في كل البلدان الأمريكية ، كما تقرر فيه تضامن كل دول القارة في حالة غزو أو تمرد شيوعي داخلي .

(٢) عسكري غواتيمالي قاد عام ١٩٥٤ القوة التي أسقطت حكومة « آربنز » . وقد اصبح في أعقاب ذلك رئيساً للدولة وانتهج سياسة صارخة الرجعية . ومات مقتولاً عام ١٩٥٧ .

كانت ، من جانبها ، تبالغ في اعلان مخاوفها من تزايد انزلاق النظام نحو اليسار.

بدأ الغزو يوم ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٥٤ ، من أربع نقاط على الحدود مع هونდوراس. ولكن كان من الواضح جداً أن قوة الغزاة الضئيلة لن تستطيع مجابهة جيش نظامي من سبعة آلاف مقاتل ، بحيث لم يكن أحد يتوقع معركة حقيقية . وفي اليومين الأولين تقدمت قوى الغزو خمسة عشر كيلومتراً دون أن تلقى أدنى مقاومة ، ثم خيل للناس أن الجيش الغواتيمالي قد عزم أن يدافع عن الحكومة ،اذ وقعت ذلك اليوم اصطدامات أدت عملياً الى بعثرة قوى « كاستيليو آرماس » غير النظامية .

وكان غيفارا قد أدرك منذ البـــدء أن المعركة ستدور في العاصمة ذاتها ، بحيث يمكن أن يؤدي اضطراب القوى الثورية إلى انهيار كل مقاومة ، فسارع يبذل يائس الجهد لاقناع منظمات الشباب الثوري بأن واجبها يقتضيها أن تضع يدها فوراً على العاصمة . وكانت الخطة التي يقترحها غيفارا تستهدف أولاً ضمان السيطرة القوية على المدينة ، ثم عزل قوى الغزو التي كانت قدرتهـا على القتال تافهة من وجهة النظر العسكرية . ولو تمت هذه العملية المزدوجة لقضت على مغامرة « كاستيليو آرماس » ، ولكن « آربنز » كان عسكرياً محترفاً فرفض الأخذ بها لأنها كانت ستضطره الى تسليح جماعات من المدنيين ، لا فرق في ذلك بين الاحزاب العديدة التي تعلن ولاءها للثورة وبين المنظمات النقابية والفلاحية .

وهكذا ، بين ١٨ و ٢٦ حزيران ، بين بداية الغزو واليـــوم الذي استقال فيه الكولونيل آربنز ، كانت العاصمة كلها مسرحاً ضخماً انحسرت فيه الأقنعة عن كل ألوية الرياء والجبانة. وكانت معنويات الجيش تزداد هبوطاً كلما استطال خور الحكومة وماطلت في وقف تقدم جيش المرتزقة الهزيل . وكان « آربنز » لم يتخل عن السلطة بعد حين كان المدنيون من زعماء اليمين الغواتيمالي قد بدأوا يحضرون لعمليات الثأر الدامية التي شهدتها البلاد بعد سقوطه .

وفي تلك اللحظة ، في ساعة مبكرة من صبـــاح أحد الأيام ، طرق باب

غيفارا السفير الأرجنتيني ، ذلك الصديق الذي كان يحمل الينا « المتة » وجرائد بونس آيرس ، قائلاً :

– يا غيفار ، أريدك أن تأتي معي على الفور .

– لماذا ؟ لم يحدث شيء ولا يعرفني أحد .

– هذا ما تظنه أنت . ولكن معلوماتي تقول ان هناك أرجنتينياً في قائمة المخربين الذين أصبح مقرراً اعدامهم . وهذا الأرجنتيني هو أنت .

وحاول غيفارا في البداية أن يرفض اللجوء الذي اقترحه عليه السفير ، ولكن هذا انتهى الى إقناعه بملاحظة صغيرة :

– انك لن تستطيع أن تفعل وحدك ما لم تر الحكومة فعله .

وهكذا نجا « ارنستو غيفارا » من الموت بقضاء ما يقارب الشهر لاجئاً في سفارة الجنرال بيرون في غواتيمالا . وكانت الحكومة الارجنتينية قد رفضت إدانة حكومة « آربنز » ، ثم استطاعت بعد سقوطه الحصول على ترخيص بتسفير اللاجئين ، الذين كانت قد رحبت بهم سفارتها ، على متن طائرات عسكرية . وتلقى غيفارا عرضاً بالعودة الى الأرجنتين في احدى هذه الطائرات ، ولكنه رفض ، وطلب ترخيصاً بالسفر الى المكسيك .

وهكذا التقينا في المكسيك ، وغيفارا يقلد ضاحكاً حركات مصوّري الشارع : « كليك، كلاك ! » ثم يعاوده الجد فيستذكر مع « البا توخو » أحداث غواتيمالا : سقوط « آربنز » ، وموجات التطهير ، والمذابح ، وانتقام مالكي الأراضي ، وتصفية برامج انعاش الفلاحين ، وملكوت « اليونايتد فروت » الأبدي السرمدي .

وصباح يوم أول أيار ١٩٥٥ جاءني غيفارا الى الفندق الذي نزلت فيه ، يقول :

– لقد ماتت الثورة المكسيكية . قضت نحبها منذ عهد بعيد ولم ندرك نحن ذلك . تعالَ معي انظر مسيرة العمال المنظمين. كأنها جنازة .

كانت المسيرة تجري في ميدان « الصوكلو » ، والنقابيون بثياب العمل الزرقاء يتقدمون طوابير طويلة ، رافعين لافتات ضخمة تحمل اسم المنظمة التي ينتسبون اليها وتؤكد في الوقت نفسه ولاءهم للسياسة الرسمية : مشهد يكاد يجعلك تحسب نفسك أمام مسيرة عمالية في بلد اشتراكي من بلدان أوربا الشرقية ، وقد مشى فيه وراء العمال المرضات ومستخدمو المصالح الاجتماعية ، ثم المحاربون القدماء من رجال المعارك الفلاحية وأولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة من معاصري الأحداث التاريخية الكبرى التي عرفها الشعب المكسيكي . كانت هذه الجماهير تبدو متخثرة وراء شعاراتها الثورية ، وكان غيفارا ينظر اليها نظرة القانط اليائس ، قائلاً بنبرة حزينة :

– تحضير الميزانية ، والمناصب الحكومية : هذا كل ما يوحد بينهم . هيا بنا يا صديقي .

واختتمنا ذلك اليوم التاريخي ، يوم أول أيار ، أمام نصب الأطفال الشهداء الذي يعيد الى الذاكرة استشهاد ضباط الصف في « شابولتيبيك » ، الذين قاتلو حتى الموت ضد جيش الجنرال جاكسون الأمريكي [١] .

وفي اليوم التالي علم غيفارا بنبأ عظيم : اذ جاءه أصدقاؤه الكوبيون ، الذين عرفنا أكثرهم في كورستاريكا وغواتيمالا ، يبلغونه أن « باتيستا » بدأ يواجه متاعب ضخمة على الصعيد الداخلي والدولي ، وان هناك أملاً كبيراً في أن يسن قريباً جداً قانوناً للعفو . وفي يوم ٣ أيار تحقق هذا النبأ : فلقد كنا مجتمعين في احدى شقق فندق « الامبريال » ، حيث كان يعيش عدد غير ثابت من المنفيين الكوبيين ، حين سمعنا محطات الاذاعة الكوبية تعلن تصديق مجلس الشيوخ لقانون العفو المذكور .

كان « الامبريال » يضم جالية ضخمة العدد من المنفيين الكوبيين . وكنت

---

(١) المعركة الختامية في حرب ١٨٤٧ – ٤٨ بين المكسيك والولايات المتحدة .

تلتقي في طبقاته المختلفة بثوار ٢٦ تموز وبالمثقفين المعارضين من أمثال « راؤول روا » [1] الذي كان اذ ذاك خصماً عنيداً للشيوعيين . وكان مستقبل القسم الأكبر من هذه الجالية رهناً بقانون العفو ذاك ، اذ كان يعني اطلاق سراح فيدل كاسترو وكبار رفاقه الذين اشتركوا في الهجوم على ثكنة « مونكادا » . وكان الكوبيون في المكسيك قد بدأوا يعيدون تنظيم أنفسهم بانتظار كاسترو .

وفي الوقت نفسه كان غيفارا ، بعد شكوكه الأولى ، قد بدأ يستشعر حماساً متزايداً تجاه قضية الكوبيين . وهذا التغير في موقفه يرجع ، بصورة رئيسية ، الى أنه كان في غواتيمالا قد أضاع نهائياً ما كان لديه من أوهام حول نجوع الوسائل السلمية كطريق إلى بلوغ السلطة والى الاحتفاظ بها . يضاف الى هذا أن صلاته مع أصدقائنا جعلته يكتشف صدق القسم الأكبر من المغامرات التي رويت له ، بدليل العدد الضخم الذي خسرته صفوفهم بين قتلى وجرحى ومعتقلين .

وفي البدء ، لم تكن صلات غيفارا بالكوبيين تهدف الى غاية محددة . كان قد اجتذبه شبابهم ، وكون أكثرهم لا يزالون طلاباً ، وكذلك بالطبع مزاج الكوبيين المرح الذي كان يرتاح له كل الارتياح رجل مثل غيفارا متمرد على كل الأفكار التقليدية السائدة . كان من الضروري اللازب في رأي غيفارا أن يقوم المرء بعظام الأمور دون أن يفقد روح المرح ، ولذلك كان يشعر بالضيق في جو « الدكاترة » [2] اللاتينيين الأمريكيين ، بحركاتهم المحسوبة المصطنعة وعجزهم عن الانتقال الى العمل ، بينما يقدر كل التقدير هؤلاء الكوبيين المتحمسين ، القادرين على اقتطاف النجوم دون أن يفقدوا الابتسامة مرة .

---

(١) الذي اصبح فيما بعد وزيراً للخارجية في ظل نظام كاسترو .

(٢) في أمريكا اللاتينية ، يغلب أن يطلق لقب « دكتور » على كل من يحمل شهادة جامعية ، مهما ضؤل شأنها . (المعرب)

واقترح علي غيفارا أن أعرج على كوبا في طريق عودتي الى الولايات المتحدة، قائلا ان هذه الزيارة ستنتهي باقناعي بوجود قاعدة ثورية في الجزيرة . وبعد أيام لقيت هذه الفكرة تأييد «راوول روا» حين حدثته عنها في منزل الشاعر الفنزويلي « اندريس ايلوي بلانكو » [1] في « كوبرنافا كا » . وكان هذا المنزل ملتقى فريق من الفنزويليين المناضلين الذين يزدادون كل يوم ايماناً بالسلاح طريقاً الى السلطة ، وبينهم « غونثالو باريوس » [2] (الذي كان اذ ذاك شديد التأييد لضرورة « الحرب الشعبية »، ثم اذا هو بعد حين يصبح وزيراً للداخلية فيكون شديد الوطأة على أبطال حرب الغوار في بلاده) . كانت تلك الاجتماعات ودية مفتوحة ، تبرز خلالها رفاهة تفكير صاحب الدار ، أحد كبار شعراء أمريكا اللاتينية ، الذي لم يلبث أن مات بعد قليل ميتة فاجعة . وكان غيفارا يحب التردد على « كوبرنافا كا » ، حيث كانت الحماسة السياسية المشتركة بين الجميع تخلق جو أخوة دافئة .

ومع ذلك ، حين هبطت بي الطائرة في هافانا يوم ٧ أيار ١٩٥٥ ، بدا لي أن تفاؤل الجالية الكوبية في مكسيكو كان مفرطاً بعض الافراط . كان قد تعطل قانون العفو ، اما لأن « باتيستا » رفض اصداره ، واما لأن المعارضة طلبت لقاءه ثمناً اعتبره غير مقبول . وكنت أحمل رسالة توصية وجهها « روا » الى رجل يدعى « الدكتور مارتي » يطلب فيها منه أن يريني أهم ما كان يستحق المعرفة في كوبا في تلك الحقبة ، فتبين لي أن مجالات اهتمام « روا » و « مارتي » كانت جدّ متباينة ، اذ أن هذا الأخير اكتفى بالتطواف بي على مقاصف المدينة الليلية في عربة من آخر طراز . أما في الصباح فكنت أجول في منطقة شارع

---

(١) كان هذا الشاعر في الوقت نفسه عضواً فعالاً في حركة العمل الديمقراطي . ومات في المنفى .

(٢) هو اليوم رئيس مجلس الشيوخ الفنزويلي ومرشح « العمل الديمقراطي » لانتخابات الرئاسة .

« بيلاسكوان » ، حيث يوجد فندق « سان لويس » الذي حللت فيه بناء على نصيحة أصدقاء غيفارا الكوبيين ، الذين كان من رأيهم أن صاحبه من أنصار الثورة ، فاذا أنا لا أجد لديه إلا الحقد الشديد على « باتيستا » . وكان يحدث أن نسمع في وضح النهار صوت طلقات صادرة عن رشيشات، يقول صاحب الفندق دائماً ان مصدرها حرم الجامعة ، وكانت على العموم تنطلق كلما مرت فصيلة من قوى الشرطة قادمة للتفتيش .

اما « مارتي » المشار اليه ، والذي كان يدير جريدة « الموندو » ، فكان يستبعد احتمال أي تغيير سياسي في الجزيرة . كان يقول لي ، وهو يشير بيده إلى بعض البؤساء الذين غلبهم النوم في الظهيرة ، والحر كأنه نار جهنم ، فغفوا مستندين إلى أحد الأبواب :

— أنظر ، أنظر . أي تغيير يمكن أن يطلبه مثل هؤلاء ؟ انهم هادئون مستسلمون . وهم ، على طريقتهم ، سعداء . وفي كوبا لن يتغير أبداً شيء .

على أن ما أدركته على الفور كان أن أي شيء هام لن يحدث خلال اقامتي القصيرة في هافانا . كان يبدو أن قانون العفو حبيس في مكتب « باتيستا » ، وأنه لم يكن قد بقي إلا أمل ضئيل جداً في أن ينشره ذات يوم . وهكذا عدت الى نيويورك أحمل معي عن هافانا صورة مزدوجة ، هي صورة المدينة الرافهة في الليل ، تتناقض مع صورة المدينة البائسة التي تكشف عنها كل صباح أشعة الفجر الأولى .

في حزيران ١٩٥٥ ، لدى خروجي من مصنع التعدين الذي كنت أعمل فيه ، كان باعة الصحف ينادون أن بونس آيرس قد قذفت بالقنابل وان الموتى يعدون بالمئات ، فصعقتني صدمة النبأ ، الذي كان صحيحاً مع الأسف : كانت تلك محاولة انقلاب عسكري ضد بيرون ، أخفقت ولكنها أصابت حكمه بضربة في الصميم . وصحيح أني كنت خصماً سياسياً لبيرون ، وشرطته كانت تبحث عني وتعرض المكافآت ثمناً لرأسي ، ولكن لم يكن هنالك أي سبب

يجعلني أغتبط بتلك القنابل . وفي الأيام التي تلت ذلك تلقيت رسائل من أسرتي فاذا هي تعلق على الحدث من وجهة شخصية محضة : كان ما يعنيها في الدرجة الأولى أن يسقط بيرون لتصبح عودتي الى بونس آيرس ممكنـــة ، دون اهتمام بالمعنى التاريخي للحدث في ذاته .

كان أبي ، في مزرعته في ولاية « انتري ريوس » ، لا يطيق التفكير في أن ابنه المحامي مضطر إلى كسب معاشه كعامل صناعي في الولايات المتحـــدة . فاذا هو أذعن لهذا القدر ، فلأنه على أية حال يفضل أن أكون عاملاً في أمريكا الشمالية اذا كان لي في هذا منجى من أكون معتقلاً سياسياً في الأرجنتين . أمـا أنا فكنت قد ألفت فكرة البقاء حقبة طويلة في الولايات المتحدة ، ولئـن لم يساورني قط التفكير بالاقامة فيها بصورة دائمة فلقد أخذت أتطبع بمحيطها كما يفعل المهاجر العادي . كان أول عمل لي جني التبغ في « هاتفورد » ، في ولاية « كونيكتيكت » بين زنوج الهند الغربية البريطانية ، الذين كانوا يمثلون أحط الدرجات في سلم البروليتاريا الأمريكية . ثم أصبحت « موديلا » في مشغل فني عنـد ملتقىالشارع ٥١ بالشارع الخامس ، حيث كانت تعطى دروس في الرسم يحضرها بعض مديري المشروعات الذين يشمرون بالغربة في مجتمعهم الرأسمالي . وحينأخذت أعمل في التعدين ، وصلت الى ربح دولارين و ٧٠ سنتاً في الساعة ، باعتباري صقالاً ماهراً ، مع أني كنت بدأت من أدنى السلم بين العملة . وكنت بالاضافة الى ذلك أستطيع حضور دروس العلوم السياسية في « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي » ، ومحاضرات الأستاذ « فرانك تانباوم » عن سياسة أمريكا اللاتينية ، في جامعة كولومبيا .

أما عن الأحداث ذاتها ، فقد تلقيت معلومات دقيقة من صديقي « آرتورو فرونديسي » الذي كنت أتابع اتصالي معهبالرسائل منذ بداية حياتي في المنفى. وكنا ، أنا وغيفارا ، نقرأ معاً بعض رسائل فرونديسي الملأى بالأفكار حول مستقبل الأرجنتين فنناقشها ونحللها كوثيقة ثمينة . وكان غيفارا يقبل ما كنت

أقوله له اذ ذاك عن شخصية فروندیسي الفكرية ، ولكنه كان دائماً ينتهي الى المهمة بأن فروندیسي لو بلغ السلطة قد يفعل خيراً من الآخرين ، إلا أنه لن يفعل ذلك بأسلوب مختلف .

وكانت أنباء اصدقائي تتوقع أن تقوم القوى المسلحة باسقاط الحكومة البيرونية في ايلول . وسقط بيرون فعلا في ايلول ، بينما كان الارجنتينيون في نيويورك خلال تلك الحقبة موضع التمجيد والاحتفاء ، ولا سيما في الأوساط الجامعية . ولكن ، على الرغم من أن طبيعة النظام الجديد الذي قام في الأرجنتين ظلت غامضة مدى بضعة أسابيع ، لم يكن أحد يجهل أن الاتجاه الذي أتى بالانقلاب إلى السلطة كان الى اليمين .

وأبرق لي فروندیسي يقول ان طائرة تابعة للأسطول الارجنتيني ستتوجه إلى مكسيكو لتعيد إلى بونس آيرس الأرجنتينيين المتناثرين في أمريكا الوسطى ، وان على هذه الطائرة مكاناً لي ، فذهبت إلى مكسيكو قبل الموعد المرتقب لوصول الطائرة . على أني وصلت اليها وباعة الصحف يعلنون سقوط الجنرال « لوناردي » [١] ، الذي أزاح بيرون عن الحكم ، وعودة هذا الأخير إلى السلطة . وكنت قد تركت عملي الشخصي في نيويورك ، فكان احتمال عدم قدوم الطائرة الموعودة لحملنا مصدر قلق لي كبير .

وذهبت لتوي إلى منزل غيفارا . وكان يتابع تطور أحداث الأرجنتين بانتباه فلم يلبث أن أعطاني عن الوضع صورة أدق وأحفل بالتفاصيل من تلك التي كان يقدمها باعة الصحف . وفي ذلك المساء ، جاء دوري أنا لمحاولة اقناعه بالعودة الى الأرجنتين ، وبلغ بي الأمر أن تعهدت له بتدبير مكان له على الطائرة العسكرية التي كانت ستعود بي الى الوطن ، وهو مكان لم أكن في تلك اللحظة واثقاً من تدبيره حتى لنفسي ، ولكن قائد الطائرة « الكابتن باسي » منحني

---

(١) أول رئيس للحكومة المؤقتة بعد سقوط بيرون .

اياه دون صعوبة بعد بضعة أيام .

على أن غيفارا أجابني :

ـ لا ، لن أرحل . ولماذا الرحيل ؟ هنا يتم التحضير لمشروع بالغ الأهمية ، هو مشروع الكوبيين ، الذي يكتسب كل يوم أبعاداً جديدة . أما هناك ، فما الذي ينتظرنا ؟ حكومة عسكرية تحاول تضييق الدور الذي تلعبه الطبقة الكادحة في قيادة البلد السياسية . وحتى لو توقعنا سقوط هذه الحكومة كما سقطت سابقتها أمس ، حتى لو استلم صديقك فرونديسي السلطة وأصبحت أنت وزيراً ، ما الذي ستستطيعون فعله ؟ ستقيمون حكماً غنياً بالنوايا الطيبة ، ولكنه لا يأتي إلا بالقليل من التغيير العميق. فاذا قر عزمكم ذات يوم على تحقيق هذا التغيير ... ـ وهنا لم يكمل غيفارا جملته ، بل رفع يده الى عنقه في حركة من يقطع رقبة بسكين عريض ...

ولم تصل الطائرة الأرجنتينية المنتظرة إلى مكسيكو إلا بعد ثلاثة أسابيع ؛ وكان سبب هذا التأخر أن الصراعات الداخلية في النظام العسكري الجديد كانت تفرض على كل جناح أن يكون دقيقاً في حساب قواه . وغياب طائرة لم يكن خسارة هزيلة في ميزان هذه القوى .

خلال ذلك كنت قد نصحت غيفارا بالاتصال بأكبر أصحاب دور النشر في مكسيكو ، الارجنتيني « أرنالدو أورفيلا رينال »[1] ، الذي كان يشرف على « دار الثقافة الاقتصادية » وكان غيفارا قد ترك مهنة التصوير ـ فاستقل بها صديقه « البا توخو » ـ وأخذ يبيع كتباً بالتقسيط ، واجداً في ذلك فائدة مزدوجة : ربحاً اجزل ، وقدرة على قراءة بعض الكتب الغالية الثمن والتي كان يحلم بمطالعتها منذ عهد بعيد . فكان في المساء ينكب في شراهة على قراءة المؤلفات الماركسية الرئيسية ، وكتابات لينين ، وبعض النصوص التي تتناول

---

(١) هو الآن مدير دار نشر « القرن الحادي والعشرين » .

الستراتيجية العسكرية في الحرب الاهلية الاسبانية ؛ فاذا جاء الصباح أعاد هذه الكتب مرة أخرى إلى الحقيبة الجلدية التي كان يطوف بها على المكاتب والمنازل الخاصة .

على أن لقاء غيفارا بالناشر لم يأت بثمرة إيجابية ، وهذا يعود دون ريب إلى حاجز الكبرياء الذي كان غيفارا ينصبه بينه وبين محدثه حين يكون عليه أن يطلب معروفاً من هذا المحدث ، و « اورفيلا رينال » كان اذ ذاك في مكسيكو شخصية قوية . لقد كان غيفارا ، وهو اللبق المقنع حين يتحاور مع أصدقائه ، يفقد كل موهبته هذه حين يضطر إلى طلب خدمة ، فيذهب سحره وتنقلب سحنته مقطبة جامدة . وبالطبع ما كان لهذه الحلة أن تهيء النجاح لبائع كتب متجول .

كذلك كان « فيدل كاسترو » قد وصل الى مكسيكو ، ومعه أخوه « راوول » . وكان قبل لقائي الجديد بغيفارا قد قام بجولة في الولايات المتحدة ، وذهبت أنا نفسي مرة أستمع الى أنصاره خلال اجتماع نظموه في نيويورك ، اختتمته بعض الفتيات الجميلات بجمع المعونات في وعاء من الخشب والورق الملون صنع على هيئة سلاح « اوتوماتيكي » .

وفي الاسبوع الثاني من تشرين الثاني ١٩٥٥ عرفني غيفارا بكاسترو . كان الأخوان يحتلان شقة في فندق « أمبريال » ، مقر القيادة العامة للثورة الكوبية ، حيث التقيت مرة أخرى مع « نيكو لوبيز » ، الذي كنت عرفته في غواتيمالا ، ثم لقي حتفه في العام التالي خلال هجوم « غرانما » . وكان الاجتماع حافلاً بأناس مولعين بالكلام الكثير ، يتحدثون بصوت مرتفع ، ويعلو جدلهم وهم يقتعدون الأرض بسبب عدم وجود مقاعد كافية ، وقد غرقوا في سحابة كثيفة من الدخان الذي ينبعثه « السيجار » الضخم في أفواههم ، فتختلط نكهته برائحة العرق القوية تنشرها أجسادهم الفتية المتكدسة في كل الغرف . وكانت جلبتهم تصم الآذان ، فشدني غيفارا من ذراعي وصرخ في أذني : « تعال نحبس أنفسنا في

المطبخ. انه المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الواحد أن يفهم ما يقوله الآخر».

وفي المطبخ وجدنا فيدل كاسترو ، وهو يضع على النار قدراً ضخماً مليئاً بالمكرونة : مهمة مرتجلة كان اللاجئون الكوبيون يضطرون اليها باستمرار في شتاء المكسيك القارس وفي مناخ التآمر الدائم الذي كانوا يعيشون فيه . وبدأ كاسترو بناء على طلب غيفارا ، ودون أن يتوقف عن مراقبة طبخته ، يعطيني فكرة عامة عن الجوانب العسكرية من خطته :

— لدينا المركب والأسلحة ، ولدينا الرجال الذين نقوم الآن بتدريبهم . وفي العام القادم سنذهب إلى كوبا ، فنموت أو نصبح أحراراً . أما الآن فالشرطة المكسيكية لا تغمض بصرها عنا لحظة ، بالاضافة إلى الجواسيس الذين يبعث بهم « باتيستا » لمراقبتنا . قل لي : هل أنت هنا في وضع قانوني تجاه الشرطة ؟

فرويت له كيف قضيت سنتين أحمل تذكرة مرور مشبوهة ، ثم قلت له اني أصبحت الآن أستطيع الحصول على جواز سفر أرجنتيني جديد ، بالاضافة الى أن السلطات المكسيكية كانت تعرف أننا ننتظر طائرة تابعة لقوة طيران الأسطول الأرجنتيني ستحمل كل أولئك الراغبين بالعودة إلى بونس آيرس .

— عال . أنت إذن في وضع أفضل . أما نحن فيساورنا الشعور بأنهم يهيئون مؤامرة ما لاستفزازنا ، كيما يستطيعوا اعتقالنا بعض الوقت . أما عن الحملة ، فمتى استطعنا التسلل الى الأرض الكوبية سيبدأ العمل الجدي في المدن . بل الواقع أنه بدأ فعلاً اذ أن رفاقنا يتكفلون به . ولكن ، منذ اللحظة التي نكون قد وضعنا قدمنا فيها على الأرض الكوبية ، سيكون لكل قنبلة تنفجر في هافانا ألوف من التعليقات وردود الفعل ، وسيتحدث الجميع عنا ، عن أولئك الذين اختاروا الكفاح طريق السلاح . هل فهمت ؟

وكان باب المطبخ يفتح باستمرار ، يطل منه الرجال الذين يحمل كل منهم رسالة ، كذلك الذي جاء يروي أنه سمع لتوه في اذاعة هافانا تعليقات تسخر

من ثرثرة كاسترو التبشيرية خلال جولته الأخيرة في الولايات المتحدة . وكان كاسترو يجيب على كل سؤال ، ثم يعود إلى اغلاق باب المطبخ بضربة من قدمه .

أما أنا فقد ألحفت في سؤاله عن تفاصيل الخطة التي ينوي تطبيقها ، الى أن انتهيت الى الاقتناع بأنهم لم يكونوا حقاً يملكون المركب الذي سيبحرون عليه إلى كوبا ، وإن كان من المحتمل أن يكونوا جمعوا المال الكافي لشرائه . كذلك كان يبدو أنهم لم يبلغوابعد مرحلة التدريب العسكري المنظم ،وان كانوا يوشكون أن يبدأوه في وقت قريب . وقد أثارت أسئلتي حول هذا الموضوع نظرات ذات مغزى أخذ يتبادلها الرجلان ، وتلميحاً لرجل كانا يداعونه « أستاذ الانكليزية » وهو تلميح لم أفهم القصد منه إلا بعد زمن طويل ، حين ذكرني غيفارا بهذا اللقاء ، وكشف لي عن أن « أستاذ الانكليزية » لم يكن إلا « الكولونيل باجو » ، وهو ضابط من أصل كوبي كان قد احترف العمل العسكري في اسبانيا ، وهو الذي قام باعداد قوات كاسترو للقتال اعداداً فنياً.

وأعترف بصراحة أن المشروع الذي كان كاسترو يشرحه لي بكل ذلك الحماس بدا لي متهافتاً غير متناسق ، فاعتقدت أنه عملياً لا بد منته إلى الفشل ، فاذا انتصروا فسيكون انتصاراً ضئيل الاحتمال لا تشجع على رجائه أوضاعهم الراهنة . على أني فيما بعد فهمت أن ظفر حملة رجال « غرانما » الاثنين والثمانين انما يرجع بالذات إلى أنها كانت مستحيلة النجاح . انهم لم يطبقوا أياً من قوانين النقل البحري أو التموين ، ولم يحترموا أية من قواعد استخدام المعدات العسكرية أو من قواعد الحرب ذاتها . كانت الحملة تحدياً غير معقول ، تماماً كما كان غير معقول – وعلى قياس أكبر – تحدي الفييتكونغ لجيش الولايات المتحدة .ولكن ، لأن المعركة كانت مواجهة بين طريقتين مختلفين كل الاختلاف، كان هذا التباين ذاته سبباً جعل الطريقة الأضعف ، من وجهة نظر القوة ، فعالة ناجحة حتى النهاية . لم يكن في وسع الجيش الكوبي أن يحمل على محمل الجد – عسكرياً – تهديد القوة التي تمثلها جماعات ٢٦ تموز المسلحة ، تماماً كما فعل

الجيش الغواتيمالي حين استضعف قوى الغزو التي كان يقودها « كاستيليو آرماس » . ومع ذلك فان كلا الجيشين النظاميين خسر المعركة لأن حل النزاع كان آخر الأمر من شأن السياسة .

أما في تلك الأيام ، حين كان كاسترو يشرح لنا استراتيجيته العسكرية ، فان نجاح خططه كان يبدو رهاناً ضئيل الأمل . ولقد قلت له ذات يوم ، وهو يحدثنا عن تلك الخطط للمرة الألف :

— هل تعلم أين نحبس ، في بونس آيرس ، أولئك الذين يحملون أفكاراً كأفكارك ؟ في « فييتس » !

وضحك غيفارا ملء قلبه وهو يشرح للآخرين أن « فييتس » هي التسمية الشعبية لأقدم مستشفيات الأمراض العقلية في الارجنتين .

حتى الدقيقة الأخيرة ،بذلت كل جهد ممكن لاقناع غيفارا بأن يهتبل الفرصة التي تقدمها طائرة قوى الأسطول الجوية فيعود معي الى بونس آيرس . وقد عدنا الى هذا الحديث كثيراً وطويلاً ونحن نذرع شوارع المدينة من أدناها الى أقصاها وفقاً لطريقة غيفارا المفضلة في معالجة القضايا الهامة . كان ولوعاً بالمشي لا يستريح ولا يتعب ، في المدينة والريف على السواء ، بحيث كان حذاؤه دائماً مثقوب النعال ، يكشف عن هذه العورة البشعة كلما جلس واضعاً احدى ركبتيه فوق الأخرى . ولم يكن ذلك ليثير لديه أي ضيق ، ولكنه كان في الغالب يؤدي إلى مواقف مضحكة ، كما حدث يوم ذهبنا نزور الشاعر الاسباني الكبير « ليون فيليبي » .

كان هذا الشاعر واحداً من الخمسين ألفاً من المنفيين المقيمين في مكسيكو اذ ذاك ، والذين كان الاسبانيون يؤلفون أضخمهم جالية . وكان غيفارا قد اكتشف عبقرية « ليون فيليبي » الشعرية في واحد من الكتب التي كان يبيعها طلباً للرزق ، فلما علم أن الشاعر يقطن في المدينة طلب مني أن أرافقه الى « نادي الجمهوريين الاسبانيين » حيث كان يمكن أن نلقاه . وذهبنا الى النادي

يوماً في الأصيل ، فدلنا أحدهم على الشاعر باصبعه ، فدعانا الى الجلوس وجلس مع غيفارا على أريكة بينما جلست أنا في مقعد يقابلهما . وخـــلال شكليات التعارف ، وفي وقت واحد ، وضع غيفارا وفيليبي كلاهما رجـــله اليمنى على اليسرى ، فلم أستطع منع نفسي من الابتسام : لقد كشف كلاهما ، مدى لحظة ، عن نفس الثقب الضخم في نعل حذائه المهترىء .

وفي عام ١٩٦٤ ، وغيفارا قد أصبح واحداً من أبرز الشخصيات في كوبا ، تذكر الشاعر العجوز فبعث اليه برسالة حارة يقول فيها : « لعله يسرك أن تعلم أن واحداً من كتابين أو ثلاثة أحتفظ بها على المائـــدة الى جانب وسادتي هو ديوانك : « الرقيق » . ويؤسفني أنه قلما أتيحت لي فرصة قراءته ، لأن النوم – بل حتى مجرد الراحة – لا يزال يؤلف في كوبا جريمة ضـد الدولة . ولكني قبل أيام حضرت اجتماعاً بالغ الأهمية لدي . كانت الصـــالة مكتظة بالعمال المتحمسين ، وكان المرء يشعر في هـذا الجو بميلاد جيـــل جديـد من البشر ، فاستيقظت في نفسي روح الشاعر العاثر الحظ وجاءت اليك أستشهد بشعرك ، وأعود الى مساجلتك من بعيد . هذا كل تمجيدي لك ، فأرجو أن تقبـــله على حاله ... أما اذا أغراك التحدي فهات ردك عليه » .

كانت مكسيكو – وهي جنة اللاجئين ، التي كثيراً ما استقبلت بالترحاب آخر أفواج القادمين – تنقلب ظالمة في النهاية ، بسبب ما يثقل كاهل الأجانب فيها من تحريم العمل عليهم بحكم القانون . في هذه المدينة ، التي عرف فيها أشد نوبات الربو وأطولها ساعات ، انطلق غيفارا ، مجازفاً بكل شيء ، يشترك في مغامرة لم يكن يؤمن بنجاحها الا نصف ايمان ، كما اعترف هو نفسه بعد النصر . وكانت زوجته هيلدا ، رفيقتنا في غواتيمالا ، تدعم ميزانية الأسرة الهزيلة بفضل عمل مكتبي ضئيل الأجر . أما ابنتها ، التي سمياها هيلدا أيضاً ، فكانت قـد بدأت تكبر في حلقة اللاجئين هذه ، التي يختلط فيها الامل بمشاعر الاخفاق .

في مثل هذا المناخ المثبط للعزيمة ، كان مستحيـلاً أن يرتضي غيفارا لنفسه

حياة اللاجيء التقليدي . وكذلك كاسترو وأصدقاؤه ، الذين لم يكونوا فيما يبدو على استعداد للبقاء طويلا في المنفى ، ولو ساورهم التردد لكفى مشهد جالية اللاجئين الاسبانيين المنهارين لإقناعهم بضرورة التحرك سريعاً على طريق العودة الى الوطن .

وفي مكسيكو تنامت شخصية غيفارا على صورتها الاخيرة: فأهمل المشاغل العلمية التي كانت ذلك الحين تستحوذ على كل اهتمامه ، وارتقى الى مستوى نظري رفيع على صعيد الايديولوجية ، واكتسب بفضل « أستاذ الانكليزية » دربة عسكرية ممتازة .

وبحكم هذه الصورة التي تحددت معها شخصيته ، ما كان لغيفارا أن يجد ميداناً للعمل أفضل من بلدان الكاريبي . فلو أنه سلك سبيل العمل السياسي في الارجنتين على الصورة التي اتخذها هذا العمل بعد سقوط بيرون لاضطره ذلك الى انتهاج أسلوب لم يكن قط أسلوبه ،وهو َبعْد مكسيكو أبعد عن نفسيته مما كان في الماضي . أما تكاثر الفئات الصغيرة والشيع التي تتنافس على السلطة في غواتيمالا فكان يذكره بكل أولئك الذين يتنافسون على زعامة المعارضة في كوبا . وكان غيفارا لا يستشعر الا الازدراء تجاه فنون الديمقراطية «الليبرالية»، فلم تكن الارجنتين عام ١٩٥٥ قادرة على أن تقدم له إلا غوصاً في رمال الفوضى شبيهاً كل الشبه بالحال في غواتيمالا وكوبا . ومن المؤكد أن ازدراء غيفارا للعبة الحزبية كان ذا مناط أخلاقي ، أما فيدل كاسترو فقد بلغ الى هذه النتيجة نفسها ولكن من طريق آخر ، هو طريق تجربته الشخصية ، الغنية على قصرها بالدروس . ولما كانا كلاهما قد اتخذا موقفاً واحداً على رغم تباين ظروفهما الشخصية واختلاف جنسيتيهما، فلقد طرحا جانباً كل ما لا يخدم المعركة، وجعلا رسالتهما أن يخلقا جيشهما الصغير .

وقبل أيام قليلة من بدء التدريب العسكري بقيادة « الكولونيل باجو » ، وعلى مألوف عادتنا منذ لقائنا الاول في بوليفيا ، قمنا بتنظيم رحلة ، فركبنا

السيارة حتى « الباخيو » ، أحد المواضع الاكثر بؤساً في المكسيك ، حيث كان الفلاحون يجدون بالغ العناء في اجتناء هزيل الثمار من أرض الهضبة المتيبسة التي يطرد جفافها عملياً كل اشكال الحياة . وكنا في يوم أحد، والفلاحون يدخلون صامتين كنيسة صغيرة في ضواحي « كيريتارو » ، فدخلنا أنا وغيفارا وراءهم ، فاذا هم يؤدون شعائر صلاتهم كما يفعل العبيد ، ولكنها شعائر لا يعرف المرء هل هي من مخلفات السيطرة الاسبانية أم امبراطورية « الأزتك » . وكانوا يحملون ، في يدهم أو في سلالهم المضفورة ، قرابينهم الى الراهب : بيضاً وفراخاً وأكواز ذرة . ثم يخلعون قبعاتهم ويرفعون سراويلهم البيضاء كيما يركعوا فيكشفون عن نعالهم الغليظة : لوحة فنية رائعة الجمال ، ولكنها مثبطة للعزيمة من وجهة النظر التاريخية ، اذ إنها تعني أن هؤلاء الفلاحين التعساء من سكان البلاد الاصليين قد توقف الزمان بهم في « الباخيو » ، بينما كنا نحن شديدي العزم على دفع الزمن الى أمام .

وهز غيفارا كتفيه بشدة ، كأنما ينفض عنهما روعة هذا المشهد الاقطاعي ، قائلاً :

– في رأيي أن الثورة المكسيكية المجيدة لم تصل الى داخل البلاد ، مهما رفعت من شعارات معاكسة ...

أما في « كيريتارو » فكان الامر على العكس : كان جمود المكان يكذبه عنف التاريخ . فهناك كان العصاة المكسيكيون قد أعدموا « مكسيميليان » امبراطور النمسا ، في القرن الماضي ، واضعين بذلك حداً للسيطرة الاوربية .

ودمدم غيفارا في هذا الموقع التاريخي :

– هؤلاء الهنود ليسوا جبناء أمام الصراع . يكفي أن يجدوا من يهتم بأن يشرح لهم كيف يجب أن يقاتلوا ومن عدوهم . ألست من هذا الرأي ؟

وفي كانون الاول ١٩٥٥ تركت غيفارا في المكسيك . كان قد أصبح يشعر بتفاؤل كبير بشأن برنامج كاسترو ، وبصداقة مخلصة تجاه أصدقائه الكوبيين .

وكانت تلك المغامرة تهمه من جانبها السياسي ، ولكن على الصعيد الانساني أيضاً : فمع الكوبيين كان يعيش بروح إخاء حقيقية ، وكان بخصاله الشخصية قد استطاع أن يكسب احترام الجميع .

وأعطاني رسالة الى أمه ، « سيليا » ، سلمتها اياها بيدي بعد بضعة أيام ، في بونس آيرس . وكانت تلك هي المناسبة التي ولدت فيها صداقتي الحميمة المتبادلة مع هذه المرأة الرائعة ، الاستثنائية في تفانيها . وهي صداقة دامت ما يقارب العشرة أعوام ، حتى وفاتها عام ١٩٦٥ .

الكتاب الثاني

غيفارا وزيرًا في كوبا

مُقـَـدّمة تـَـاريُخيـّـة

في ١٠ آذار ١٩٥٢ قام « الكولونيل فولخانسيو باتيستا » – وهو رقيب سابق – بانقلاب أسقط الحكومة الدستورية في كوبا ، بتأييد الولايات المتحدة، وفرض دكتاتورية عسكرية استمرت ستة أعوام وعشرة أشهر .

وبعد ستة عشر شهراً من استيلاء باتيستا على السلطة قام الزعيم الطلابي فيدل كاسترو ، وهو فتى في السادسة والعشرين سليل أسرة من أغنياء المالكين في الريف ، بقيادة أول انتفاضة مسلحة ضد الدكتاتورية . تلك كانت محاولة الاستيلاء على ثكنة « مونكادا » ، في مدينة « سانتياغو ده كوبا » ، التي اشترك فيها ما يقارب المئة شاب . وقد أخفق الهجوم ، ولكنه كان منطلقاً لتنظيم حركة التمرد ، التي سميت « حركة ٢٦ تموز » تمجيداً لذكرى ذلك اليوم. وفي تشرين الأول ١٩٥٣ حدد كاسترو وهو في المعتقل أهدافه السياسية في مرافعة تاريخية ألقاها أمام قضاته أنفسهم ، فلم تلبث أن انتشرت في كل الجزيرة وأصبحت الميثاق النظري والعملي للحركة الثورية .

كانت مثل كاسترو « قومية » وديمقراطية ، فامتدت جذورها على الفور بين طلاب الجامعات في كل أنحاء كوبا ، ثم اتسعت في المدن فشملت شرائح اجتماعية أخرى ، وان كانت في تلك الحقبة بينة القصور ، اعتبرها شيوعيو كوبا مثلا

حركة بورجوازيين راديكاليين يشترك معهم مغامرون وانتهازيون ، فظلوا على حذر منها ولم يمنحوها تأييدهم في أية لحظة . وكانت التشكيلة المتناقضة التي تتألف منها اجتماعياً وعقائدياً مصدر عطف محسوب من جانب الرعيل الأول من رجال السياسة في كوبا ، الذين كانوا على أتم الاستعداد لاستغلال طاقات أولئك الشبان ومواهبهم الشخصية . كما أن بطولات مناضلي الحركة أخذت تبهر مجتمع « الصالونات » الذي كثيراً ما شعر أبناؤه بالانجذاب نحو المتمردين . وبالمقابل ، ظلت الأكثرية الكبرى من الفلاحين في كوبا غريبة عن حركة ٢٦ تموز هذه ، فلم يكد يسمع لها خارج المدن الكبرى إلا صدى بعيد خافت .

وبعد أن قضى كاسترو مدة عقوبته في السجن ، غادر كوبا الى المكسيك حيث نظم حملة تضم ٨٢ رجلاً على ظهر اليخت « غرانما » في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، اجتازت البحر في فوضى لتنتهي الى نزول متعجل على البر ، يوم ٢ كانون الأول ، على شاطىء الجزيرة الجنوبي ، في موقع يدعى « بيليك » قريباً من « سييرا مايسترا » ، هذا بينما كانت تفشل في الوقت ذاته محاولة عصيان أخرى قادها الزعيم الطلابي « فرانك بايس » .

وفي ٥ كانون الأول هاجم الجيش أعضاء الحملة وقتل منهم القسم الأكبر . وقد ظل « تشي » غيفارا حتى النهاية يذكر هذا الصدام الدامي الذي اشترك فيه ، إذ فيه تقرر نهائياً خياره بين الطب وبين العمل الثوري . كتب يقول فيما بعد : « لعل تلك كانت المرة الأولى التي واجهني عملياً فيها الصراع بين واجباتي كطبيب وواجباتي كجندي في الثورة . كان أمامي كيس مليء بالأدوية وصندوق ذخيرة ، وكانا من الثقل بحيث لم أكن أستطيع حملها معاً ، فأخذت صندوق الذخيرة وتركت الكيس لاجتاز المنطقة الخلاء التي كانت لا تزال تفصل بيني وبين حقل قصب السكر » .

وفي ١٨ كانون الأول ١٩٥٦ تم تجمع الرجال الاثني عشر، الذين نجوا وحدهم من تلك المذبحة ، ليؤلفوا أول عصابة للغوار في « السييرا مايسترا » انضم اليها

في الشهر التالي الفلاحون الخمسة الأوائل . وكان هذا ميلاد التحالف بين شبان المدينة المثاليين وعمال الريف الأشداء، الذين خاضوا المعركة جنباً الى جنب ضد ثكنة « لا بلاتا » ، في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ .

وفي ١٣ آذار ١٩٥٧ قامت منظمة أخرى ، تضم طلاباً متمردين وتدعى « القيادة الثورية » ، بهجوم على قصر الحكومة في هافانا كان يستهدف قتل « باتيستا » . وأخفق الهجوم . ولكن هذه الهزيمة ، وعملية القمع الدامية التي أعقبتها ، زادتا من انقسام المجتمع الكوبي ، فأخذ الكثيرون من الشباب يهجرون الحواضر الى الريف ويحاولون الوصول الى « السييرا مايسترا » ، بينما ظل آخرون في المدن ينظمون عمليات الارهاب . وفي الأشهر التالية حطمت المتفجرات مولدات الكهرباء في هافانا وأخذت القنابل تنفجر في كل مكان . وفي شهر أيار استولى مغاورو كاسترو على ثكنة وضعوا يدهم فيها على كمية كبيرة من الأسلحة ؛ فطاش صواب باتيستا واعتقلت شرطته السرية الزعيم الطلابي « فرانك بايس » وقتلته بعد قليل ، فاذا جنازته تنقلب إلى مأتم وطني واذا كل مدينة « سانتياغو ده كوبا » تنزل الى الشارع لترافق جثمانه . وخشي مدير الشرطة المحلي من انتفاضة شعبية جديدة فأصدر أوامره باطلاق نيران الرشاشات على النساء والاطفال الذين كانوا في الصفوف الأولى من الجنازة . وعبرت المدينة عن غضبتها على هذه الهمجية باضراب شامل عطل كل مرافقها ثلاثة أيام .

ولم ينجح عنف التدابير الانتقامية التي اتخذها الدكتاتور باتيستا وشرطته الرهيبة إلا في حمل قطاعات أخرى من الشعب على مناصبته العداء ، فاذا قسم من رجال الاسطول يشتركون مع بعض شبان حركة ٢٦ تموز في الهجوم على مدينة « سيينفويغوس » والاستيلاء عليها . وفي ليلة ٩ تشرين الثاني ١٩٥٧ انفجرت مئة قنبلة في مدينة هافانا ، فأصبحت كوبا كلها تعلم أن أول « منطقة حرة » قد تم انشاؤها في « الهومبريتو » ، في « السييرا مايسترا » ، وأصبحت الحرب منذ ذلك اليوم حرباً بالمعنى الكامل ، وبلا هوادة .

وفي ٨ آذار ١٩٥٨ كان « راؤول كاسترو » شقيق « فيدل » الأصغر ، يفتح « الجبهة الثانية » في جبال الشمال ، بينما كان الملازم الشاب « كاميلو سينفويغوس » ينزل الى السهول ويناوش الجيش بأساليب حرب الغوار ، وكان « خوان ألميدا » ومعه فريق آخر من المسلحين يقترب من « سانتياغو ده كوبا » ويهاجمها .

هكذا أصبحت حركة ٢٦ تموز حركة وطنية ، ولكنها كانت لا تزال ضعيفة النفوذ في الطبقة العاملة . كانت قد حققت الكثير من التقدم منذ ١٩٥٣ وأخذ الفلاحون ينضمون الى كتائبها ، ولكن عمال المصانع في المدن لم يتخلوا عن تحفظهم ، وحين صدرت دعوة الى الاضراب العام يوم ٩ نيسان ١٩٥٨ لم يلبوها .

وفي تلك الحقبة أدرك باتيستا أن عليه أن يستخدم كل ثقل جيشه ليطحن قوى المغاورين بأسرع ما يستطيع ، بعد أن بدأت الاحزاب السياسية تنشط في المدن ، والتجارة تتعثر ، والسياحة تتضاءل ، وبعد أن أخذت قوى المال الكبرى من كوبية وأمريكية تتساءل عن مدى ما تتمتع به الدكتاتورية من قوة فعلية . لذلك وجه ضد قوى كاسترو أربع عشرة فرقة عسكرية تحميها الطائرات والمدفعية والبحرية ، فاذا الجيش في أكثر قليلاً من شهر يحتل عسكرياً ٩٠ ٪ من الأرض التي كانت في يد المغاورين . وأصبح على كاسترو والرجال الثلاثمائة المقاتلين تحت قيادته أن يقاوموا ألوفاً من الجنود .

على أن المغاورين استردوا المبادرة في حزيران ١٩٥٨ ، وبعد معركة دامت أحد عشر يوماً استسلم لهم مئتان وخمسون جندياً . وأضاف كاسترو الى هذا النصر العسكري نصراً سياسياً حين وافقت كل أحزاب المعارضة ، الوسطي منها وحتى اليميني ، في كراكاس ، في العشرين من الشهر ذاته ، على أن توقع معه ميثاق وحدة يستهدف اسقاط الدكتاتورية . أما الشيوعيون فلم يوقعوا هذا الميثاق بل ظلوا على تشكيكهم في أهداف كاسترو .

وفي شهر آب اتسع نطاق المعارك حتى شمل كل انحاء الجزيرة ، وتحطمت كل معنويات الجيش ، بينما كانت قيادته تعجز عن اخفاء ما يصطرع داخلها من خلافات ، والانقسام بين أصحاب الحظوة لدى باتيستا وبين الآخرين يتبدى في وضح النهار .

وأعلن الدكتاتور عن انتخابات عامة تجري يوم ٣ تشرين الثاني ١٩٥٨ ، كان هدفه الواضح منها أن يفرض مرشحاً يتمتع بثقته ، وفي الوقت نفسه أن يغري الاحزاب بالاشتراك في عملية هذه الخلافة « الدستورية » . ولكن حركة ٢٦ تموز قاطعت هذه الانتخابات ، كما قاطعتها الأحزاب الأخرى وفاء للميثاق الذي عقدته . وأمام هذه الهزيمة السياسية لجأ « باتيستا » مرة أخرى الى العنف الارهابي،فتكاثرت حوادث القتل في المدن رداً على الارهاب الثوري،وأصبحت الجثث مشهداً يومياً مألوفاً في الشوارع ، وأصبح مستحيلا منع إلقاء المتفجرات حتى في قلب العاصمة التجاري .

وأكمل المغاورونهزيمة باتيستا السياسية بهجوم عام : اجتاز طابور « كاميلو سيينفويغوس » ثلاث ولايات وصل بعدها الى وسط الجزيرة من ناحية الشمال ؛ وفي الجنوب بلغ طابور « تشي » جبال « الاسكمبراي » ، حيث أقام الاتصال بغاوري « القيادة الثورية » ؛ وأخذ طابور ثالث على عاتقه حصار « سانتياغو ده كوبا » بينما كانت تتجه الى الالتقاء عندها طوابير فيدل كاسترو وخوان ألميدا وراؤول كاسترو .

أما المعركة الحاسمة فدارت باحتلال طابور « تشي » لمدينة « سانتا كلارا »، يوم ٢٩ كانون الاول ، اذ حطم في الوقت نفسه قطاراً عسكرياً وأسر أكثر من ألف سجين بأسلحتهم ومعداتهم وهكذا تمت تصفية النظام . وفي يوم ٣١ كانون الاول ، بعد حرب غوار دامت خمسة وعشرين شهراً ، هرب باتيستا الى الجمهورية الدومينكية مع أفراد من أسرتهومع بعض معاونيه الاقربين. وحاول قسم من هيئة القيادة العسكرية ، بتأييد سفارة الولايات المتحدة ، أن يستولي

على الحكم ، ولكن فيدل كاسترو أعطى الامر بالاضراب العام وبتوجيه كل طوابير المغاورين الى العاصمة . وانتهت « سانتياغو ده كوبا » بالاستسلام ، وهي ثانية مدن الجزيرة ، بينما شل الاضراب العام محاولة انقلاب العسكريين العملاء لأمريكا .

ويوم ٣ كانون الثاني ١٩٥٩ وصل « كاميلو سيينفويغوس » و « تشي » مع رجالهما الى هافانا ، فاحتل الاول حصن « كولومبيا » والثاني حصن « كابانيا » . وفي الرابع منه أقسم القاضي « مانويل أوروتيا » اليمين بوصفه رئيساً مؤقتاً لكوبا ، بينما كان فيدل يقطع الجزيرة كلها برجاله ، من « سانتياغو ده كوبا » حتى هافانا ، وجنود الجيش النظامي يستسلمون بالألوف ، وبالألوف يلتحق المتطوعون بجيش الثورة . وفي الخامس منه اعترفت بالنظام الجديد خمس بلدانلاتينية أمريكية،في طليعتها فنزويلا،وفعلت مثلها بريطانيا العظمى وعدة دول أخرى . وفي السابع منه انتهت الولايات المتحدة هي الاخرى الى اعلان اعترافها ، ثم اضطر السفير « ايرل سميث » في العاشر منه الى الاستقالة تحت ضغط الرأي العام الكوبي الذي كان يتهمه بأنه عاضد باتيستا .

وفي الثامن من كانون الثاني دخل كاسترو دخوله المظفر الى هافانا ، فأعلن على الفور تدابيره الحكومية الأولى ، ومن بينها سحب البعثة العسكرية الكوبية الدائمة من الولايات المتحدة . وفي السادس عشر منه أعلنت واشنطن عن تسمية « فيليب بونسال » سفيراً جديداً لها في هافانا ، بينما كان فيدل كاسترو في اليوم نفسه يتسلم سلطات رئيس الوزراء .

ابتداء من هذا التاريخ تقوم صلة وشيجة بين الاجراءات الداخلية التي تتخذها الحكومة الثوريةوبين ما يمكن أن يكون لهامن ردود فعل في واشنطن، وهي ردود فعل لم يلبث عنفها أن أصبح بدوره هو المحرك الرئيسي للتغييرات الداخلية ، فتبدت تبعية كوبا السياسية والاقتصادية على أجلى ما تكون ، ما دامت تفاعلات السياسة الداخلية والسياسة الخارجية تلتقي كلها في النزاع

مع واشنطن .

في نيسان ١٩٥٩ خيل للناس أن العلاقات بين الدولتين تتجه إلى التحسن ، حين قامت جمعية ناشري الصحف في الولايات المتحدة بتوجيه دعوة الى فيدل كاسترو لزيارة البلاد . وتحدث كاسترو مع نائب الرئيس « ريتشار نيكسون » ومع وزير الخارجية « كريستيان هرتر » . ولكن الموقف ظل شديد التوتر بنتيجة شعور العداء تجاه الوطنية الكوبية والتهديدات المبطنة رداً على الاتجاه الاقتصادي للحكومة الجديدة .

وفي ٢ أيار ١٩٥٩ تكلم كاسترو في بونس آيرس أمام اللجنة الأمريكية المكلفة بمعالجة التخلف ، فاقترح أن تقدم الولايات المتحدة مبلغ ثلاثين مليار دولار معونة لتنمية دول أمريكا اللاتينية ، فاذا مساعد وزير الخارجية الأمريكية « دغلاس ديلون » يجيب – قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة – ان الرقم المطلوب مبالغ فيه إلى حد بعيد . ولم يجد اقتراح كاسترو تأييداً من الحكومات اللاتينية الأخرى فسحبه .

وفي يوم ١٧ أيار ١٩٥٩ أصدرت الوزارة الكوبية في « السييرا مايسترا » قانون الاصلاح الزراعي ، وهو قانون يلغي الملكية الكبيرة ويحدد مساحة أربعمائة هكتار حداً أقصى للملكية العقارية ، فرأت الصحافة الأمريكية فيه عدواناً على حرية الأفراد في تجميع الثروات ، وهبطت أسهم شركات السكر الكوبية في بورصة نيويورك هبوطاً عمودياً . ولما كانت هذه الأسهم ملكاً لعدة آلاف من الأمريكيين فان سقوطها خلق جواً من العطف على أعداء كاسترو ، ولا سيما على بعض رجال الأمن والعسكريين الذين كانوا يعملون في ظل نظام باتيستا ، والذين تعتبرهم الحكومة الكوبية من جهتها مجرمي حرب .

وفي حزيران قامت أولى الأزمات في الحكومة الكوبية ، باستقالة خمسة وزراء . وسافر « تشي » للقيام بجولة طويلة في افريقيا وآسيا . ولما لم يكن قد مضى الا عشرة أيام على زواجه – بالكوبية « آليدا مارتش » – فقد فسرت

رحلته بأنها نتيجة الضغط على كاسترو من قبل أولئك الذين يعتبرون غيفـــارا يسارياً أكثر من اللزوم . ودامت رحلة « تشي » حوالي ثلاثة أشهر زار خلالها مصر واليابان واندونيسيا وسيلان والباكستان والسودان والمغرب ويوغوسلافيا.

على أن ضغوط اليمين لم تتوقف بعد رحيــل « تشي » . ففي ٣٠ حزيران هرب إلى الولايات المتحدة « القومندان دياس لانس » قائـد القوى الجويـــة الكوبية ، فتحدث أمام جلسة استثنائية عقدتها اللجنة الفرعية للأمن الداخـلي في مجلس الشيوخ ، وأمام اجتماع سري في وكالة المخابرات المركزيـــة ، فاتهم الحكومة الكوبية بأنها تحت سيطرة الشيوعيين . وفي اليوم نفسه طلب باتيستا حق اللجوء الى الولايات المتحدة ، من ملجئه في الجمهورية الدومينيكية .

وفي شهر تموز لم تنفك معارضة اليمين للمشاريع الثورية عن التعاظم . لذلك استقال كاسترو يوم ١٨ تموز واتهم الرئيس « أوروبتا » علناً بتعطيل مشاريـــع الحكومة . واذ ذاك انفجر اضراب عام ، تأييداً لكاسترو، تحت ضغط الجماهير العمالية والفلاحية ، فاستقال « أوروبتا » من الرئاسة حيث حل محـله المحامي « أوسفالدو دوريتكوس » . وفي السادس والعشرين منه ، أمـــام ستمائة ألف فلاح اجتمعوا في هافانا ، سحب كاسترو استقالته ، بينما كان يقف على يمينه رئيس المكسيك الأسبق « لازارو كوردناس » ، زعيم « القوميين » في أمريكا اللاتينية منذ صادر عام ١٩٣٨ الشركات البترولية الأجنبية .

وفي ١٨ آب وصف كاسترو مؤتمر وزراء الخارجيـــة المنعقد في عاصمة الشيلي بأنه « مهزلة » . كما اتهم « تروخيليو » دكتاتور سان دومنغـو بالتآمر المستمر ضد كوبا .

وفي ٧ أيلول ١٩٥٩ عاد « تشي » الى كوبا بعد رحلته التي انفجرت خلالها الأزمة بين كاسترو وبين عناصر اليمين في الحكومة . عاد وقد أصبح كاسترو في موقف أشد متانة بكثير . وليس من ريب في ان إبعاده عن كوبا لأكثر الزعماء

الثوريين مثاراً للخـــلاف ، بينما كان يخوض تلك المعركة ، كان منـــاورة سياسية بارعة .

وفي ٣٠ أيلول أعلنت هافانا أنها باعت ٣٣٠ ألف طن من السكر للاتحـاد السوفياتي، فطالبت الصحافة الأمريكية بعقوبات اقتصادية فورية ضد حكومة كاسترو ؛ وبدأ في الوقت نفسه تحويم « طائرات القراصنة » فوق كوبا ، قادمة من الولايات المتحدة .

وفي ٧ تشرين الأول ١٩٥٩ ترأس كاسترو اجتماعاً للمعهد القومي للاصـلاح الزراعي ، أعلن فيه رسمياً تسمية « تشي » رئيساً للقسم الصناعي في هـــذه المؤسسة . وكان هذا يعني في الوقت نفسه أن على غيفـارا أن يستقيـــل من المسؤوليات الأخرى التي كان يمارسها في القوات المسلحة .

وفي ١٤ تشرين الأول وجهت واشنطن مذكرة رسمية الى هافانا بشأن مصير استثمارات رؤوس الأموال الأمريكية في كوبا . وفي السابع عشر منه وجهت هافانا احتجاجاً الى واشنطن لأن وزارة الخارجية الأمريكية حاولت اقنـاع بريطانيا بعدم بيع كوبا طائرات عسكرية .

وفي الحادي والعشرين منه أعلن عزل « القومندان هوبرت ماتوس » ، قائد حامية « كاما غواي » ، بسبب اشتراكه في مؤامرة ، فـلم تنقض على ذلك النبأ خمس ساعات حتى كانت القنابل تتساقط كالمطر فوق هافانا . وقـالت كوبا ان الهجوم انطلق من أراضي الولايات المتحدة ، فأعلنت الحكومة الأمريكية أنها ستفتح تحقيقاً بشأن هذا الاتهام . وخلال ذلك كان مليـون شخص يتظاهرون احتجاجاً على العدوان .

وفي آخر تشرين الأول نشر الرئيس « دورتيكـوس » نص محادثة دارت بينه وبين السفير الأمريكي « بونسال » ، يعرب فيها هذا الأخير عن قلقه بشأن تطورات الاصلاح الزراعي .

وفي ٢٦ تشرين الثاني سمي « تشي » رئيساً لمصرف كوبا الوطني ، بقرار من مجلس الوزراء جعله عملياً مسؤولاً عن جماع شؤون البلاد المالية .

أما السنة التالية فقد سيطر عليها جميعها عداء الولايات المتحدة للنظام الكوبي . وتبرز في هذا العام ١٩٦٠ ثلاثة أحداث فاصلة : في كانون الثاني طلب الرئيس أيزنهاور من الكونغرس تفويضه بتغيير حصص استيراد السكر ، على حساب كوبا . وفي حزيران رفضت مصافي البترول الامريكية والبريطانية تصفية البترول الخام المستورد من روسيا فصادرتها الحكومة الكوبية . وفي تشرين الثاني انسحبت كوبا رمزياً من المصرف العالمي .

وكان « تشي » ، بوصفه رئيساً للمصرف الوطني، هو أول من عرض الجواب الكوبي على التدبير الأمريكي المتعلق بحصص السكر ، فأكد أن هذا الاجراء سيزيد من استقلال كوبا تجاه الولايات المتحدة،وأعلن أنه سيتم الحد من الاستيراد للمحافظة على احتياطي النقد النادر ، وقال ان كوبا – خلافاً لنصائح السفير « بونسال » – لن تقوم بأي تنازل لاجتذاب رأس المال الاجنبي، واصفاً بكثير من الازدراء دور الاستثمارات الاجنبية ، وصفاً عاد اليه كاسترو بعد بضعة أسابيع وزاده تفصيلاً . وهذه السياسة الصريحة في عدائها للرأسمالية وجدت ما يكملها في زيارة المبعوث السوفياتي « آناستاز ميكويان » الذي حط في هافانا في نفس الوقت الذي كان ايزنهاور يعلن فيه الانتقام من كوبا بقطع حصتها من السكر ، فأعلن منح كوبا قرضاً بمائة مليون دولار ، قرضاً من حكومة إلى حكومة ، طويل الاجل منخفض الفائدة ، كان من شأنه أن يؤدي الى تغييرات على كل صعيد . ففي المجال الدبلوماسي ، مثلاً ، جعل كوبا تتبنى – بصورة طبيعية – سياسة الدول الاشتراكية الاخرى أثناء الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، التي انعقدت في ايلول . وفي هذا الشهر ذاته أقامت حكومة هافانا علاقات دبلوماسية مع الصين الشعبية ومع كوريا الشمالية .

وعاد « تشي » يغادر الجزيرة مرة أخرى على رأس بعثة تجارية ، يوم ٢١

تشرين الثاني ، فزار تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي والصين الشعبية . وفي كانون الاول وقع اتفاقاً تجارياً مع كوريا الشمالية في « بيونغ يانغ » .

وفي نهاية عام ١٩٦٠ لم يكن أمام واشنطن وهافانا إلا أن تقوما بالخطوة الاخيرة : فكان قطع العلاقات الدبلوماسية بينهما ، في ٣ كانون الثاني ١٩٦١ .

١

اليقظة المسلحة ارتقاباً للغزو

القدر توشك على الانفجار والثواني – في هذه اللحظة البالغة الخطورة – تمر في مثل بطء الساعات : ذلك كان الانطباع الذي يواجه القادم وهو يهبط في مطار « رانتشو بوجيروس » في هافانا ، في كانون الثاني ١٩٦١ . كان الرئيس أيزنهاور قد قطع العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وكوبا ، ثم لم ينقض أسبوعان حتى كانت حكومة هافانا تلجأ إلى الهدنة في حربها الدبلوماسية الصغيرة مع واشنطن ، واضعة ثقة غير عادية في الرئيس الجديد « جون كنيدي » ، الذي كان سيخلف ايزنهاور يوم ٢٠ كانون الثاني. ومع ذلك لم تكن العاصمة تستطيع ، حتى بمرسوم ، أن تغير بين يوم وليلة من مظهرها المسلح ، وعلى الطريق القادم اليها من المطار كنت تلتقي في كل لحظة بشاحنات عسكرية وبجنود في لباس المعركة . كما أن توقع الشعب لمثل هذا التغيير كان هو الآخر موضع تساؤل .

كان اول ما بادرت اليه ، لحظة وصولي الى فندق « ناسيونال » ، أن طلبت التحدث الى غيفارا في مكتبه في المصرف الوطني . ولكني كنت أعلم أن

غيفارا لا يذهب إلى المصرف إلا في العشية ، بعد أن يكون قد صرف وقته في مهمة أخرى أكثر إلحاحاً ، يمكن أن تدعوه في أية لحظة الى أي مكان من الجزيرة .

لذلك اخترت الخروج إلى الشارع ، الملتهب تحت شمس الظهيرة . كان رصيفا حي « فيدادو » العريضان يعكسان حرارة جهنمية ، وحدة الضياء تجرح الاعين . وغير بعيد عن الفندق ، كان فصيل من « الميليشيا » النسائية يخطو خطوه العسكري ، وعلى المناكب البنادق الرشاشة ، وفي الاقدام أحذية جنود المظلات ، والقمصان مفتوحة على النحور ، والعمرات تميل على يمين الجباه .

وفي كل مكان كانت تواجهك صورة بلد في حالة حرب . قريباً من أرصفة الميناء كانت تنتصب خيام المعسكرات ؛ وسائق العربة التي ركبتها لاجوب المدينة قال لي ان شارع « فيا بلانكا » كان ملغوماً ، وانه في « غوانابو » ، على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من هافانا ، قد اضطر إلى الانحراف عن طريقه لان جنود « الميليشيا » كانوا يحفرون أرض الشارع ليدسوا فيها شحنات المتفجرات . على أنه برغم ذلك لم يفقد مرحه ؛ وبينما كان يتحاشى الفتيات الجميلات اللواتي يجتزن الشارع دون تبصر ، كانت الطمأنينة بادية على وجهه وهو يذكرني بما قاله كاسترو في الليلة الماضية : مع كنيدي كان « يمكن أن تستأنف العلاقات » بين كوبا والولايات المتحدة . تلك كانت جملة متفائلة ، تستند على ما كان للجميع من ثقة بالرئيس الجديد،ذي الخصال التي تجعله علىطول الخط نقيضاًلذلك الجنرال المراض ، الذي قطع علاقاته الرسمية مع كوبا قبل أيام قليلة .

كان المرء يستشف تناقضاً واضحاً بين نبرة كاسترو المطمئنة ، التي نزلت برداً وسلاماًعلى كثيرين كانت أعصابهم وشيكة الانهيار،وبين النشاط العسكري الذي كان يبدو في تصاعد لا في هبوط . ومع ذلك ، كانت كوبا مهددة بسلسلة طويلة من الاخطار ينبغي التصدي لها : لم يكن هناك الخطر الرئيسي وحده ،

خطر غزو بحري تؤيده أمريكا الشمالية ، بل أيضاً أخطار أخرى ثانوية ، كشبكات التخريب الداخلي التي كان نشاطها في ازدياد . وسائق السيارة هو الذي لفت نظري إلى ذلك وهو يعود بي الى الفندق ، حين دلني على ثقوب طلقات الرصاص في أحد الجدران . ففي ليالي هافانا الرائقة ، بينما الناس يطلبون الراحة من حر النهار الخانق ، كانت طلقات النار تسمع في جلاء ، صادرة إما عن منطقة « الكابيتول » ، أحد أفضل الأماكن لاصطياد أفراد الحرس الشعبي من ظهورهم ، وإما عن حي الفنادق الكبرى لبث الذعر في نفوس نزلائها .

كنت أملك رقم خط الهاتف المباشر الذي أستطيع به الاتصال بغيفارا . أعطاني اياه قبل بضعة أسابيع ، في مدينة « بون » ، الصحافي الارجنتيني « خورخي ماسيتي » الذي كان يعمل في الحقل الاعلامي في تعاون وثيق مع غيفارا .

وأدرت قرص الهاتف وانتظرت الجواب ، فلم يرد عليّ أي « سكرتير » ، بل كان صوت غيفارا نفسه يسأل ببعض الضيق :

– من المتكلم ؟

فأجبت :

– « المحارب الهاوي » في زيارة رسمية لدى « التشانشو » .

فأطلق ضحكة مجلجلة . ذلك أني بهذا الجواب كنت قد أيقظت من غفوة النسيان لقبين كنا نتبادل اطلاقهما أحدنا على الآخر خلال رحلاتنا الطويلة في بلدان أمريكا اللاتينية . فيوم تعارفنا كان غيفارا رجل فكر ، مثقفاً هاوياً في نهم لمعرفة العالم ، وكنت أنا رجلا حزبياً ملتزماً ، فأخذت اذ ذاك أسميه « المحارب الهاوي » . على أنه في المكسيك ، حين انقلب الوضع فأصبح يشعر أنه ملتزم الالتزام كله بالثورة في كوبا وأمريكا اللاتينية ، أعاد لي هذا اللقب الذي كنت أسميه به فأخذ يطلقه عليّ ، إذ لا ريب أن مشاركته في الثورة كانت قد

أصبحت لديه أكثر أهمية ، وقد أثمرها قرار لا رجوع عنه . أما « تشانشو »[1] فكان لقب غيفارا أيام مراهقته . كان قد أطلقه عليه زملاؤه في فريق « الروغبي » في نادي « سان ايسيدرو » ، وهو فريق يضم مجموعة من الشباب الارستقراطيين كانوا يقضون وقتهم في المجون الطائش الصاخب . وارتضى غيفارا هذا اللقب دون احتجاج ، وبادل رفاقه هديتهم فأطلق على ستة منهم ألقاباً ساخرة . ثم جعل من لقبه هذا اسماً مستعاراً أخذ يوقع به المقالات التي يكتبها تعليقاً على مباريات « الروغبي » . بل أخذ يدعو أصدقاءه إلى مناداته بهذا اللقب . فلقد قال لي حين توثقت بيننا العلاقة في بوليفيا :

– اسمع يا هذا . الأصدقاء يدعونني « تشانشو » ... ثم أضاف شارحاً : انهم يقولون انني كالخنازير ، أحدث جلبة حين آكل .

أما الآن فقد تحول « تشانشو » إلى « تشي » : الأرجنتيني الأكثر شهرة بعد بيرون .

وطلب أن أذهب اليه على الفور . صحيح أن برنامجه لذلك المساء ذاته كان مكتظاً بالعمل ، ولكنه مع ذلك كان يرغب في أن أحضر احدى مقابلاته ، وأن يطلعني على أسلوب العمل في تلك المؤسسة الثورية الضخمة ، وأن يجعلني أراقب من الداخل ذلك الجهاز القوي المكلف برسم الخطوط العريضة لسياسة كوبا الاقتصادية .

كان مكتب غيفارا يقوم في أحد الأدوار العالية من عمارة ضخمة لم يستكمل بناؤها بعد ، شيدت أيام باتيستا لتكون مقراً لوزارة الحرب . وكان غيفارا يحتل مع معاونيه وجهازه الاداري سلسلة من الغرف الرحبة المتتابعة ، في واحدة منها – تكاد تكون بلا أثاث – يستريح حرسه الشخصي الذي يضم مقاتلين قدماء في الحرب الثورية كانوا يرافقونه الى كل مكان . ولم يكن وجود

---

(١) « تشانشو » تعبير شعبي أرجنتيني يعني الخنوص ، أي الخنزير الصغير .

هؤلاء الرجال الملتحين ، بشباب المعركة ، ليبعث على الدهشة في المناخ الحربي الذي كانت تعيشه هافانا ، ولكنهم دون ريب أفزعوا العديد من الموظفين الدوليين ومن أصحاب المصارف الأوروبيين وهم يفتحون لهم باب رئيسهم .

وكان هناك : في قدميه حذاء جنود المظلات ، وقميصه مفتوح الياقة ، وذراعاه ممدودتان . وبدا لي أكثر سمنة ، ولكنه لم يلبث أن شرح لي أن مواظبته على تعاطي « الكورتيزون » هي سبب انتفاخ وجهه . قال :

– لا ، هذا ليس شحماً . فليس لدى المرء هنا وقت للسمنة .

ولم تكن صلاتنا قد انقطعت خلال الأعوام الماضية ، ولكننا كنا لم نعد إلى التلاقي منذ كانون الأول ١٩٥٥ ، يوم ودعني بعد أن ربط مصيره نهائياً بمصير الثوار الكوبيين وبدأ يستعد لاكتساب خبرته العسكرية على أيدي أستاذه « الكولونيل باجو ». وهو بعد ذلك قد حارب سنتين، وها هو منذ سنتين أخريين مضتا عضو في الحكومة الكوبية ، وفي جسمه آثار من ثلاث رصاصات على الأقل ، وقد تزوج من جديد ، بفتاة كوبية هذه المرة عرفها أثناء الحرب .

قلت له :

– ان حكايتك تغذي خيال شباب العالم **كله** . والموظفون العجائز في الحكومة الألمانية يرفضون تصديقي حين أروي لهم أننا كثيراً ما نمنا معاً في العراء ولم نكن نجد طعاماً غير الموز .

ثم أضفت أسأله ، بلهجة مصطنعة العناء :

– ما الذي يجب أن أفعله كي يصدقوني ؟

فأجابني بنفس النبرة الجادة الساخرة معاً :

– هل تعتقد أن تصريحاً مكتوباً وصورة لنا مشتركة يمكن أن يكفيا لإقناعهم ؟

كان هو نفسه ، بالضبط ، غيفارا الذي تركته قبل خمس سنوات ، باختلاف

وحيد يكمن في قوة شخصيته التي لم يعد يظهر فيها أي انقسام ، أو أية فجوة .
وحتى هذا الاختلاف كنت في أواخر أيام اقامتي في مكسيكو قد لحظت أولى امارات التحول اليه ، وأهمها بزوغ هذا الفكر المنهجي الصارم الذي كشف فيما بعد عن قدرته على العمل الدائب يوم أن يعثر على رسالة خليقة بمزاياه . ولئن كان اذ ذاك ميالاً بعض الميل الى الفوضى ، فان هذه النزعة نفسها زالت تدريجياً بقدر ما كانت أفكاره تزداد وضوحاً واتساقاً . فهو بمعاشرته الواقع قد اكتشف البربرية والاستغلال والتعاسة التي تعيش فيها أمريكا اللاتينية ، ثم درس أسبابها العميقة ، دراسة مسبرية منهجية أخذت عليه لبه وجعلته يهمل كل ما كان من قبل يشعر بالانجذاب اليه ، فألقى جانباً بمجلدات « فرويد » الضخمة ، وبنظريات « شبنغلر » حول تفوق الانسان الأبيض ، وانصرف عن العالم الثقافي الأوربي بقدر ما كان هذا العالم يعجز عن المساعدة على تحرير الانسان الهندي أو الخلاسي أو الأسود أو الأبيض في أمريكا اللاتينية . ومنذ اليوم الذي التقى فيه ذكاؤه بالواقع المحيط به ظل هذا الذكاء وهذا الواقع متحدين تماماً كما لو كانا قطعتين في آلة واحدة . ويوم أن تم له اعطاء اتجاه نهائي لقدرته الفائقة على العمل وعلى الابداع الصامت حلت السكينة في وجدانه المضطرم . وثوار كوبا اذن انما عرضوا المشاركة في الحكم على رجل كانت جميع ملكاته وطاقاته قد أصبحت طوع يديه .

قال لي :

– يا رجل ! أنا في انتظارك منذ شهر . وكنت آمل أن أجدك هنا لدى عودتي من آسيا . أين كنت مختفياً ؟

فرديت له كيف أني ، بعد استقالتي من منصبي الدبلوماسي في سفارة الأرجنتين في « بون » ، قضيت ثلاثة أسابيع في نيويورك ، حيث كنت لا أزال موجوداً يوم قطع العلاقات الدبلوماسية مع كوبا . وسألني غيفارا عن رأيي بشأن ردود فعل الرأي العام الأمريكي على أثر هذه القطيعة ، فقلت له

ان رجل الشارع يبـــدو صادقاً في اقتناعه بأن من الممكن أن تصدر عن كوبا أسوأ التصرفات ، بما في ذلك الهجوم المسلح ، بل أن تكون كوبا ستاراً لعدوان سوفياتي أو لأي شيء آخر من هذا القبيل . وكان غيفارا يصغي اليّ في صمت ، وبين شفتيه « سيجار » ضخم . وقد سجل بعض الملاحظات القصيرة حـــين رويت له أمر مقابلتين أجريتهما في نيويورك ، أولاهما مع « جوزيف نيومان » المشرف على قسم أمريكا اللاتينية في جريدة « نيويورك هيرالد تريبيــون » ، والأخرى مع « مانويلو راي » ، الوزير السابق في حكومــة كاسترو ، والذي كان يزعم التميز عن بقية رجال المعارضة في المنفى بدفاعه عما حققته الثورة من منجزات اجتماعية .

وكنت قد رافقت « نيومان » في زيارته لعدة ولايات أرجنتينية ، قبل قليل من استلام « فرونديسي » للسلطة عام ١٩٥٨ ، إذ كان « فرونديسي » قــد رجاني اطلاعه على كل ما يريد مشاهدته فقمنا برحلة استمرت بضعــة أيام . فلما مررت بنيويورك تذكرته فذهبت أزوره في جريدته . فلما عــلم اني ذاهب إلى كوبا استجوبني استجواباً حقيقياً حول موضوع لم أكن أستطيــع بشأنه أكثر من التخمين : كان يريد أن يعرف درجــة التحام الجماهير الكوبية بالنظـــام الكاستروي ، وهل يمكن توقع انتفاضة شعبية إذا حدث أن استطاعت قـــوة غازية تكرار مأثرة كاسترو واقتحام الجزيرة . وكان « نيومان » نفسه قد عاد حديثاً من جولة في كوبا انتهى منها إلى أن مثل هذه الانتفاضة ضئيل الاحتمال . ومثل هذا الاهتمام اللجوج كان يدفع إلى الظن بأن « نيومان » انمـــا كان يقوم بتحقيق فعلي حول أمريكا اللاتينية لحساب شخصية عاليــة المقام في واشنطن . ولقد علمت فعلاً بعد سنوات أنه كان يعمل مخبراً لدى « آرثر شليسنغر » ، وان هذا الأخير قد نقل للرئيس كنيدي معارضة نيومان لأي هجوم على كوبا ، الا أن هذه المعارضة لم تحل دون القرار الأخير بالهجوم .

وأغمض غيفارا عينيه نصف إغماضة ، كما اعتاد أن يفعل إظهاراً لفضوله ، وسأل :

– وأنت ، يا صاحبي ، بِمَ أجبت نيومان هذا ؟

– قلت له : أنا لم أذهب بعد إلى كوبا ، ولكنك أنت نفسك ، يا نيومان ، كنت في الارجنتين عام ١٩٤٥ حين اشترك السفير « برادن » ووزارة الخارجية الأمريكية في شل سياسة بيرون ، فهل تعتقد أن الارجنتينيين كان يمكن اذ ذاك أن يؤيدوا محاولة غزو تقوم بها الولايات المتحدة ؟ فأجابني نيومان باشارة من رأسه : لا

وبعد ذلك حدثت غيفارا عن لقائي مع « مانويلو راي » ، هذا المهندس الذي يبدو طيباً الى حد السذاجة ، والذي يزعم أن الولايات المتحدة لا تعارض كاسترو بسبب سياسته الاقتصادية والاجتماعية بل بسبب ولائه للاتحاد السوفياتي ، ثم ينطلق من هذا الرأي إلى القول بأن في الامكان مواصلة الثورة إذا تم استبعاد كاسترو .

فصاح غيفارا وهو ينهض :

– « راي » هذا لغز عجيب . لا أعرف أبداً هل هو ملاك أم وغد قذر ، أم هو مزيج من كليهما متحول النسب .

ومن المؤكد أن غيفارا كان على قناعة تامة بأن تغيير الحكم في الولايات المتحدة لن يوقف الاستعدادات التي كانت تتخذ تحضيراً للغزو ، وهي استعدادات كانت لدى المسؤولين في هافانا معلومات دقيقة عنها ، ولا سيا تلك التي كانت تتم في غواتيالا . أما ما كانوا يجهلونه فهو الجواب على هذا السؤال : إلى أي درجة كان كنيدي يستطيع أو يريد أن يستخدم سلطات الرئاسة لتعطيل قوى الغزو تلك وبعثرتها . وكان من رأي غيفارا أن على كوبا أن تعمل لإحداث تغيير في تصميم الولايات المتحدة على محاولة غزو الجزيرة ، لولا ان مثل

هذا التغيير كان غير منطقي من وجهة النظر التاريخية . قال :

– هل فهمت ما أقصد ؟ ان القول بامكان مثل هذا التغيير يعني الاعتراف بأن « بيتانكور » كان على حق . يعني أن هنـــاك ولايات متحدة « خيرة » وولايات « شريرة » ، وأن مصير أمريكا اللاتينية رهن بأي المعسكرين تكون له السلطة . ان المصالح الاقتصادية تظل تحتفظ ببعض التأثير ، ولكن هـذه الأمة ستظل كتلة واحدة متماسكة كالاسمنت الى أن تكسب طبقتها العامـــلة وعياً طبقياً وإلى أن ينظم الزنوج ثورتهم . وهذا أو ذاك لن يتم غداً !

والظاهر أن الحكومة الكوبية بمجموعها كانت تعيش هذا التوقع المزدوج : لقد كان محتملاً، في ظل كنيدي ، أن تتحسن العلاقات مع الولايات المتحدة بل أن تصبح مقبولة . ولكن ، في الوقت نفسه ، كان احتمال غزو الجزيرة ضروري التوقع هو الآخر .

وبرغم ذلك ، قرر الكوبيـــون مرة أخرى أن يقيموا البينة على حسن نواياهم بغية تيسير الوصول إلى اتفاق ، فأعادوا إلى العمل في الحقول وحدات كاملة من حرس « الميليشيا » ، وأحاطوا هذا الاجراء بدعاية اعلامية ضخمة حتى لا يفقد شيئاً من مغزاه السياسي .

وفي ٢٣ كانون الثاني دعاني غيفارا أن أرافقه إلى « كابانياس » ، وهي قرية صغيرة تبعد حوالي سبعين كيلومتراً غرب العاصمة . وجاء يأخذني من فندق « ناسيونال » مع الصبـاح الباكر ، إذ كانت تلـــك هي اللحظة الوحيدة التي يمكن السفر فيها دون معاناة المزيد من القيظ الاستوائي . وكان يرافقه « مانريسا » ، كاتم سره الموثوق ، وهو رجل بسيط كتوم مهذب ، كان نموذجاً للرجال الذين يحاول غيفارا أن يحيط نفسه بهم . وكان « مانريسا » قد خدم في جيش باتيستا ؛ ولكن هذا لم يغير قط شيئاً من عزيمة غيفارا على اطلاعـــه على الكثير من شؤون الحكم : فلقد كان واحداً من تلك القلة المخلصة المتفانية التي تقرأ استقامتها في أعينها .

وفي « كابانياس » كان السكان جميعاً قد زحفوا إلى الساحة الرئيسية ، التي احتل قسماً كبيراً منها أفراد « الميليشيا » العائدون إلى الأعمال المدنية . وكان جمهور الفلاحين يهتف بشعارات ثورية موزونة الايقاع ، ويلوح بالقبعات العريضة المصنوعة من القش المضفور ، ويصفق لجنود « الميليشيا » ، الفلاحين مثله ، والذين تعلموا كيف استخدام السلاح ثم ها هم يعودون إلى حقول قصب السكر .

وفي الضحى ألقى غيفارا خطاباً فيه الكثير من الحيطة ، فقال ان كنيدي لم يكشف بعد عن سياسته المقبلة تجاه كوبا،وبالتالي يحسن مؤقتاً أن يعود الرجال إلى العمل المنتج . وأضاف : أما اذا هددتنا الحكومة الجديدة ، فنحن دائماً على استعداد للعودة الى خنادقنا .

أما جمهور المستمعين فكان يبدو موزع المشاعر : فلئن تراخت الأسارير حين أشار الخطيب الى احتمال تحسن العلاقات مع الولايات المتحدة ، فهي قد عادت إلى التصلب واتسمت بملامح العزيمة حين أشار إلى احتمال العودة للخنادق . فالكوبيون بالطبع لم يكونوا يتمنون الحرب ، ولكنهم لم يكونوا يخشونها .

وأصبحت عادة لدينا أن نلتقي كل مساء عند منتصف الليل ، الموعد الذي يبدأ فيه غيفارا باستقبال زائريه في مكتبه حتى الساعة الخامسة صباحاً . وفي الغرفة المجاورة ، حيث كانت زوجته « آليدا » تستقبل الزوار غالباً ، كان هناك دائماً كيس « متة » مع الأوعية اللازمة لتحضيرها. تلك كانت عادة قديمة من وطنه الأول احتفظ بها ، وكان أصدقاؤه القرابى يعرفون ان « المتة » كانت أفضل ما يفرح به من هدية . وقد شاع سريعاً نبأ ذلك ، فلم تعد ترى وفداً طلابياً أو سياسياً أو عمالياً قادماً من الارجنتين أو الاوروغواي أو الباراغواي

يهبط من الطائرة إلا ومعه قربان متواضع من « المتة » .

وبينما كان الصباح يشرق في الخارج ، كانت « المتة » تواصل انتقالها من يد إلى يد ، وأرجنتينيو كوبا يمارسون هذا الطقس الموروث من « الفاوتشوس »[١] في غرفة « تشي » . وفي هذه الغرفة أتيح لي أخيراً أن أعرف « ألبرتو غرانادوس » ، عالم الكيمياء العضوية الذي رافقه غيفارا في رحلته الأولى خارج الأرجنتين ، حين كان لا يزال طالب طب . وكان « غرانادوس » يعمل في كوبا في حقل اختصاصه ، وكان يظهر ولاءً لغيفارا لا يعادله إلا المودة التي كان غيفارا يشعر بها نحوه .

ضلال بالغ الضلة ، إذن ، ما يزعمه بعضهم من أن غيفارا كان قليل الميل إلى الصداقة ، أو على الأصح أنه كان يتملص مما تفرضه من التزامات ، بسبب من انصرافه المطلق إلى قضية الثورة فحسب . فمع « غرانادوس » و « ماسيتي » و « غوستافو روكا » ومعي ، مع كل أولئك الذين كانوا أصدقاءه في مختلف حقب حياته ، ولكن بصورة خاصة مع أولئك الذين عرفوه معرفة حميمة قبل أن يصبح شهيراً وقوياً ، كان غيفارا صديقاً نموذجياً ، ودوداً ، يهتم بمشكلات الآخرين إلى درجة تنسيهم تماماً أن صديقهم أصبح شخصية هامة .

في آخر كانون الثاني ألقى كنيدي خطاباً حول تسلل الشيوعية إلى الثورات القومية في أمريكا اللاتينية ، ففسرت كوبا هذا الخطاب على أنه بيان للرئيس الجديد موجه ضدها ، وردت عليه بالطبع . ولكنه جاء متواقتاً مع تصاعد في نشاط المخربين القادمين من أمريكا الشمالية (الأمر الذي قام الدليل عليه في

---

(١) « الفاوتشو » في أمريكا اللاتينية (الأرجنتين والاوروغواي وجنوب البرازيل) يقابل البدوي لدى العرب . و « الفاوتشوس » في الأغلب مزيج من الاسبانيين والهنود المحليين ، يسكنون مناطق المروج ، وهم كالبدو فرسان خيل ورعاة ماشية ، ولهم الكثير من تقاليد باديتنا . (المعرب)

حالات عديدة) والذين تجمعوا في منطقة جبلية قليلة الارتفاع ولكن تحميها كثافة الشجر كما يسهل الهبوط اليها من الجو ، وهي منطقة « سيرا اسكامبراي » .

ففي « سيرا اسكامبراي » ، الواقعة في ولاية « لاس فيلياس » ، في وسط الجزيرة تماماً ، كان فريق من خصوم النظام قد وجدوا ملجأ في مغاور تحجبها الغابة العذراء . وكانت الصحافة الأمريكية تصف هذا الفريق بأنه جيش حقيقي ، يضم ألوفاً من الرجال المجهزين بأفضل سلاح ، ولا ينتظر إلا الوقت المناسب للبدء بالهجوم . أما غيفارا فكانت لديه عن الموقف نظرة أكثر واقعية : كان يعتقد أن عدد عصابة المتمردين تلك لا يجاوز المائتين ، ولكنه على أية عدد يبرر قلق الحكومة الكوبية . ففي الليل كانت طائرات يحجبها الدخان تسقط بالمظلات طروداً تحوي بنادق من طراز « غاراند » ، وأسلحة آلية من طراز « براوننغ » ، وصناديق قنابل يدوية و « بازوكا » ، وكانت تمر غالباً فوق مخازن الأسلحة الحكومية مباشرة .

وما كان لوجود جماعات معادية لكاسترو أن يهدد استقرار النظام ، ولكنه ، كما حدث عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، كان يشجع على التخريب وعلى اثارة الاضطراب في المدن . ولذلك أعدمت الحكومة عدة أفراد رمياً بالرصاص ، منهم مستخدمون في محطة توليد كهرباء هافانا نسفوا بالمتفجرات قسماً من منشآتها. كذلك سيق عدد من مواطني الولايات المتحدة إلى الحاكم ، وكانوا جميعاً قد اعتقلوا وهم يحاولون التسلل إلى الجزيرة ؛ فكان وضعهم — الذي واجهت الولايات المتحدة كثيراً من العناء في تفسيره — يؤيد اقتناع الزعماء الكوبيين بأن دوائر الجاسوسية الأمريكية تعمل لتحقيق مشروع الغزو ، بصرف النظر عن موقف كنيدي أياً كان هذا الموقف .

اذ ذاك اتخذت الحكومة الكوبية قراراً بتطهير منطقة « اسكامبراي » الجبلية عن طريق عملية يشترك فيها حوالي خمسة عشر ألف من حرس

« الميليشيا » . وكانت هذه مهمة بالغة الخطورة ، لا بسبب ما يفترض من قوة العدو ، بل على الأصح بسبب ضآلة تجربة رجال « الميليشيا » الذين كانوا حتى ذلك الحين قد اشتركوا في تمارين عسكرية ولكنهم لم يخوضوا قط ، كلهم تقريباً ، معارك حقيقية .

وكنت بالغ الحماس وأنا أقبل الدعوة التي وجهها اليَّ غيفارا للانضمام إلى احدى وحدات القتال ، فاقترح عليَّ أن أذهب إلى « سانتا كلارا » حيث كان هو نفسه قد خاض واحدة من أهم المعارك الدامية في الحرب ضد باتيستا ، أسر خلالها أكثر من ألف سجين ، واستولى على قطار عسكري بكامله ، ثم استولى أخيراً على المدينة ذاتها . و « سانتا كلارا » هي محور السهل المركزي في الجزيرة ، وهي عقدة هامة للمواصلات الحديدية والبرية ، ويسكنها أكثر من مائة ألف شخص .

وكان غيفارا يذكر في تأثر جندياً اشترك في هذه المعركة ، هو واحد من محاربي الثورة المجهولين . كان قد وجده غافياً ، فاعتذر له الجندي عن ذلك بأنه لم يكن يملك سلاحاً يحارب منه ، بعد أن سحبوا منه سلاحه جزاء على تهوره ، إذ كان قد أطلق عياراً نارياً عن غير قصد . فقال له غيفارا :

– إذن فاكسب لنفسك بندقية أخرى على الخطوط الأمامية . اذهب أعزل وعد ومعك بندقية ، إذا كنت أهلاً لذلك .

وبعد حين ، في « سانتا كلارا » ، في مستشفى مرتجل للاسعافات الأولية ، دعي غيفار إلى جانب مريض يحتضر ، ما بصر به حتى قال له ·

– هل تذكر ، يا « قومندان » ؟ لقد ارسلتني لآتي بقطعة سلاح ، وها قد أتيت بها .

وفي « سانتا كلارا » ، حين وصلتها للالتحاق بوحدة « الميليشيا » ، كانت ذكرى غيفارا ماثلة في كل مكان . فمبنى محطة توليد الكهرباء ومبنى الجامعة كانا لا يزالان يحتفظان بآثار الرصاص على جدرانها ، وقريباً جداً من المكان

الذي أقيمت فيه أول صلاة كاثوليكية في أمريكا كان موضع مفصل السكة الحديدية الذي اصطاد عنده رجال « تشي » القطار العسكري المصفح .

كانت « الميليشيا » مؤلفة بصورة رئيسية من أهل الريف : أناس بسطاء أشداء ، ككل الفلاحين الذين سبق لنا أن التقينا بهم في تطوافنا بأمريكا ، وان كانوا أكثر طلاقة وبشاشة . كانوا يضحكون في يسر ويلهون بالأسلحة الآلية التي كان معدنها يلتمع تحت شمس الظهيرة . وكان بينهم كثيرون من الزنوج ، أشقاء ذلك الأستاذ الشاب المتطوع الذي كان خصوم كاسترو في « السييرا » قد شنقوه قبل ذلك ببضعة أيام . كانت تلك جريمة وحشية ، جريمة قتل عادية ، سبقتها مهزلة سموها محاكمة وحكموا فيها باعدامه بتهمة « الشيوعية » . فكان رجال « الميليشيا » السود يشعرون بأن واجبهم الثأر لأخيهم في الدم ، هذا الذي لقي حتفه بينما كان يؤدي رسالته التعليمية بين فلاحين مثلهم . لم يكن الحقد هو الذي يحركهم ، وانما كانوا قد وعوا دورهم ، وعياً بلغ تلك الدرجة التي كان غيفارا يعتبرها ضرورية محتومة اذا أريد للثورة أن لا تقهر . لقد فهم هؤلاء الرجال أنهم لن يستطيعوا كسب حريتهم إلا بمساعدة بنادقهم ، وأن سيادة كوبا وكرامتهم البشرية ستظلان مكفولتين ، غير مفترقتين احداهما عن الأخرى ، ما داموا يحتفظون بتلك البنادق في أيديهم .

ولقد نقلت انطباعاتي هذه فيما بعد إلى غيفارا ، فقال لي :

— لو أن زعماء غواتيمالا علّموا فلاحيها المساكين قبل فوات الأوان ، لما استطاع « كاستيليو آرماس » أو غيره ، ولا حتى « اليانكي » ، اجهاض ثورتهم الزراعية .

وكان من رأي غيفارا أن تثقيف الثوري عسكرياً يظل دائماً في حاجة إلى الاستكمال . لذلك وجد من الضروري أن يتعلم قيادة الطائرات ، فاكتسب على هذا الصعيد خبرة حقيقية في وقت قصير . وكان يقود طائرة ذات محركين

من طراز « سيسنا » ، كانت من قبل مخصصة لكاسترو . بل لقد حدث أن قاد طائرات « بريتانيا » الضخمة في مناسبات أسفاره في الخارج .

ولقد جبت الجزيرة من أدناها إلى أقصاها في طائرة غيفارا ، فكانت هذه تجربة غريبة ومفيدة في الوقت نفسه . كان العمل يتوقف في الحقول حين تمر الطائرة نهاراً فوق مزارع القصب . وقد شرح لي السبب اللازم « ايليسيو ده لا كاما » ، طيار غيفارا الخاص، الذي رافقني في التحليق فوق الجزيرة بكاملها، فقال أن هذه الطائرة لا يمكن أن يركبها إلا فيدل أو « تشي » ، فاذا ما بصروا بها في السماء وتعرفوا عليها تركوا مناجلهم جانباً ولوحوا لها بأذرعتهم .

وكان غيفارا قد طلب من الطيار « أن يعنى بي كل العناية » . قال له : « انتبه ، انه صديق قديم ! » ثم غمز بعينه وهو يضيف : « لا ينبغي أن يتصوروا أنه من أعداء الثورة ، فيسقطوا طائرتكما » .

وكان لهذه الحيطة ما يبررها : فقبل ذلك بأيام أسقطت المدفعية المضادة للطائرات طائرة بالقرب من شاطىء « فاراديرو » ، فمات ركابها الثلاثة ، وهم عسكريان وواحد من كوادر الحزب . وقد أثار هذا الحادث حنق غيفارا أعمق اثارة ، فقال في تشييع ضحاياه : « هؤلاء الرجال الثلاثة قتلهم العدو ، لأن العدو هو الذي يجعلنا نرى أشباحاً حيث لا أشباح » !

أما ما كان غيفارا يخشاه أكثر من أي شيء آخر فكان « ذهان [1] الغزو » ، وهي حال من الفصام الذهني تختلف كل الاختلاف عن الحال التي يمكن أن يستشعرها شعب يقف مستعداً لرد الغزو . وهو في تلك الحقبة قد تحدث عن هذا الموضوع في مناسبات مختلفة . انه لم يكن يستطيع نسيان نكبة الذهان الذي استحوذ على أهالي غواتيمالا عام ١٩٥٤ فجعلهم عزلاً خائرين أمام تقدم قوة مسلحة تافهة الشأن .

---

(١) قبلت المعاجم الفلسفية العربية الحديثة كلمة (ذهان) ترجمة لكلمة **Psychose** (المعرب)

يضاف إلى ذلك أنه كان يرى رابطة بين حكاية الغزو هذه وبين تناقص الانتاج ، وهو أحد همومه المسيطرة . كان يقول : « إذا ظللنا على حالة الحرب هذه مدى عام آخر فان انتاجنا سيهبط إلى الصفر ، وهذا أمر لا يحتمل » .

وذات مساء ، اقترح علي أن أرافقه مع الفجر في زيارة مفاجئة لأحد مصانع التعدين . كانت هذه الزيارات تهدف إلى التحقق من انتظام العمل ووتائره ، فكان ضرورياً أن تأتي على غرة وفي الصباح التالي،في الساعة الرابعة والنصف، وقفت سيارة « بونتياك » من طراز قديم أمام فندق « ناسيونال » . وأيقظني بواب الفندق وهو بالغ الانفعال يقول :

– « القومندان » غيفارا وحرسه في انتظارك .

وفي لحظة وصولي إلى بهو الفندق ، حيث كان غيفارا في انتظاري ، كان مئة على الأقل من طلاب الريف الشباب ، الذين يحضرون دورات تدريبية في العاصمة ، ينزلون من غرف نومهم ؛ فكانت مفاجأة بالغة الروعة لهم أن يروا هناك « تشي » بلحمه ودمه ، وبقميصه الذي نصل لونه في بعض مواضعه ، وحذائه المتسخ ، وبوجه يفيض سعادة هو وجه شاب ينطلق في نزهة ، الوجه الذي كان وجههم أيضاً في تلك اللحظة .

و « تشي » كان دائماً يوحي بمثل هذا الفضول الممزوج بالاحترام . فحيثما ذهب ، كانوا جميعاً – دونما كثير تفكير – يفهمون أن هذا الرجل المولود في الطرف الآخر من القارة انما كان يعمل في صفهم لأن الثورة الكوبية جزء من ثورة أوسع ، لكل منهم فيها دور عليه أن يمارسه .

وحين غادرنا المكان ، كان يبدو وكأن دهشة هؤلاء الفتيان الثوريين ظلت ترافقنا في الطريق . جلس غيفارا إلى مقود السيارة، وارتص حراسه الاربعة في المقعد الخلفي ، وجلست أنا إلى جانبه بينما كان الآخرون يضعون رشيشاتهم بين أفخاذهم وكان أحدهم يعيد إشعال سيجاره الذي انطفأ . كان هؤلاء الرجال الخارجون من عامة الشعب ، والمكلفون بحراسة غيفارا ضد احتمالات مؤامرة

ارهابية ، قد رافقوه من « السييرا مايسترا » حتى « لاس فيلياس » محاربين تحت قيادته في وحدة «سيرو ريدوندو » . كانوا أصلب فدائيي الجيش الثوري ، وكان يبدو أن إيمانهم المطلق غير المتسامح لا يعود إلى تحليل عقائدي عميق بقدر ما يرجع إلى ما يستشعرونه من اجلال لـ « تشي » .

وأشعل غيفارا سيجاراً هو الآخر ، ثم اقترح عليّ أن أفعل مثله وهو يومىء إلى علبة جميلة لماعة كانت موضوعة بيننا . فلما فتحتها لم أستطع كتمان صيحة مبهورة : فما تضمه العلبة لم يكن سجاير بل « دستة » من القنابل اليدوية ، صففت في عناية ، وجهاز الأمان فيها لا يزال سليماً . هذا إلى أن غيفارا نفسه ، بالاضافة إلى أسلحة الرجال الأربعة الجالسين خلفنا ، كان يحمل مسدساً من عيار ٤٥ موضوعاً في حافظـــة معلقة بحزام عريض منسوج من خيوط شباك الصيد . وقد استغربت كل هذا الحشد من العتاد وسألته :

– ما الذي يمكن أن يحدث ؟

– السلاح هنا حيطة ضرورية . وحياة الثوري مليئة بالأخطار . انها كثيراً ما تكون معلقة على شعرة . ووكالة المخابرات المركزية تقوم بتدريب بعض المخربين على تتبع زعماء الثورة وقتلهم . فاذا حدثت مثل هذه المحاولة ، فليس من سلاح دفاعي أرهب من قنبلة يدوية محكمة ، تقذف بدقة رياضية وسط مجموعة المهاجمين . يضاف إلى هذا أن مفعول هذه القنبلة يكون حاسماً اذا كان الذي يقذفها على قدر من رباطة الجأش يستطيع معه ان يحتفظ بها في يده بضع ثوان اضافية بعد أن ينتزع منها جهاز الأمان .

وبعد هذا ، أخرج سيجاراً حقيقياً من جيب قميصه وقدمه الي .

وما ان بلغنا مصنع الصلب الذي كنا ذاهبين لزيارته حتى قصد غيفارا إلى الادارة وطلب الاطلاع على سجل حضور المستخدمين ، فلاحظ أن ٢٥ بالمئة من العمال كانوا غائبين لأسباب مختلفة ، كالمرض أو مهمات الحراسة أو دروس التربية المدنية . اذ ذاك جمع المستخدمين في الساحة الكائنة خلف المصنع ، وقال لهم :

« بالعمل وحده وبالتضحية وحدها تستطيعون أن تزيدوا الانتاج . ان الموت في الخنادق أيسر من العمل ٣٦٥ يوماً في السنة » .

وبذل غيفارا جهده كما يوضح في جلاء أن الانتاج الوطني قد أصبح تحت سلطان البرولیتاریا . وعاد يقول : « اننا نعيش لحظة تاريخية للطبقة العاملة الكوبية وللطبقة العاملة في كل امريكا على السواء . ذلك لأن كل ما يحدث في كوبا في هذه الأيام الثورية له انعكاسات مباشرة في بلدان أمريكا الأخرى ... هنا ، في كوبا ، نخوض المعركة التي ستقرر مستقبل أمريكا . وكلما عملنا وتقدمنا خطوة إلى أمام نكون بعملنا الثوري قد أسهمنا في تحرير كل أمريكا من النير الرهيب الذي طال استعباده لنا جميعاً » .

وفي طريق العودة ، في الأصيل ، أعرب غيفارا عن قلقه لفوضى الانتاج ، قائلاً انها قد تزايدت بتأثير تهديد العدوان الخارجي ، ولكن مصدرها الأساسي كان التأويل الخاطىء لسلطان البروليتاريا على الصناعات .

وتوقفت السيارة أمام اشارة نور حمراء ، فنظر غيفارا من طرف خفي إلى سائق العربة التي توقفت هي الأخرى إلى جانبنا . كان هذا السائق يشزره بضغينة غير مكتومة ، وكانت عيناه تبثان شرراً ... فاستدار غيفار نحوي وقال بابتسامة مرة :

— هذا المخلوق ينتسب إلى الطبقة الوسطى ، التي لا يزال « فيدل » يحسب أنه يستطيع الاعتماد على دعمها . وأنت قد رأيت نظرته !

ولكن نور المفترق كان أصبح أخضر وعادت السيارة تنطلق من جديد ...

ذات مساء ، اكتشفت أن غيفارا كان قد وضع خارطة كبيرة للأرجنتين في غرفة الحمام الخاصة الملحقة بمكتبه . كانت واحدة من تلك الخرائط المطبوعة على الكتان والتي صنع منها « بمبورات » الآلاف ويجدها المرء في كل المدارس الأرجنتينية . ولكني استغربت أن أجد واحدة منها في دورة للمياه في هافانا ، فسألت غيفارا عن سرها فقال :

– لقد اعتقدت أن أعمل دماغي بينما أنا جالس على « العرش » ، فأفكر في الارجنتين ، في قوتها الاقتصادية غير المستغلة ، وفي الفائدة التي يمكن أن تعود على الثورة اللاتينية الامريكية لو أنها استطاعت الفوز بنقطة اتكاء وانطلاق لها كهذه النقطة ، بدلاً من الاتكاء حصراً على بلد صغير مثل كوبا .

وواقع الأمر أن الارجنتين كانت احدى شواغل فكره الرئيسية . ففيفارا كان على يقين من أن الثورة اللاتينية لن تمتد وتنتصر إلا بقدر ما تستطيع الاعتماد على بلد ذي قوة اقتصادية وسياسية كبيرة . وكان يحدث أحياناً أن يتجه فكره إلى البرازيل أيضاً ، لا سيما وأن وصول « جانيو كوادروس »[1] مؤخراً إلى السلطة فيها (وهو صديق للثورة الكوبية ، صداقة دفعته إلى زيارة الجزيرة) كان يسمح بالرجاء بأن تكون البرازيل هي البلد المدعو إلى القيام بهذا الدور الحاسم في تحرير أمريكا اللاتينية .

على أن احاديثنا حول الارجنتين أخــذت تتكاثر على اثر حادث لم أكن أتوقعه ، ولكنه قدم الينا طرفاً نتحاور معه كان ذا أهمية بالغة .

ففي ذات مساء ، بينما كنت أتهيأ لمغادرة فندقي للعشاء مع بعض الأصدقاء في مطعم « بوتان » ، في « فيدادو » ، تلقيت نداءً هاتفيا من شخص قال سلفاً لعامل الهاتف انه لا يعرفني ولكنه في حاجة إلى التحدث معي بأي ثمن .

ولم يكن هذا الشخص المجهول إلا « آنخل بورلينغي » ، الرجل الذي كان صاحب النفوذ الأكبر في حكومة بيرون ، حيث شغل منصب وزير الداخلية

---

(١) انتخب رئيساً للبرازيل عام ١٩٦٠ ؛ بعد ان كان حاكماً لسان باولو . اتخذ تدابير جريئة لمكافحة الفساد في الادارة وللاقتصاد في النفقات العامة ، وعمل على اعادة العلاقات التجارية مع كوبا وبلدان المعسكر الشيوعي . على أنه استقال يوم ٢٥ آب ١٩٦١ على أثر ضغوط عديدة عطلت تنفيذ سياسته . وغادر البرازيل الى انكلترا ثم الى اوستراليا . وفي الحقبة الأخيرة تحالف مع « كوبتشيك » و « لاسردا » ضد النظام العسكري القائم .

مدى أكثر من ثماني سنوات . ولم يكن « بورلينغي » يعرفني ، اما أنا فكنت اعرفه حق المعرفة ، بل كنت قد خصصته بشطر كبير من تفكيري طوال بضع سنوات ، لا سيما بعد أن وضع ثمناً لرأسي على أثر هربي من بونس آيرس .

وطلب « بورلينغي » أن يراني على الفور ، فقلت له ان ذلك مستحيل لأن هناك أناساً ينتظرونني على العشاء . وألحف ، ورفضت . وأخيراً قال لي بصوت خفيض :

– هذا هو الشأن الذي طلبت رؤيتك من أجله : انني معتقل . وأنا الآن في مخفر شرطة « ماليكون » ، غير بعيد عن السفارة الأمريكية .

هكذا شاء القدر : الوزير السابق الذي كان مطلق السلطة ، والذي زج بي في السجن لأني كنت أدافع عن المعتقلين السياسيين والنقابيين ، أصبح الآن في نفس موضع أولئك الذين كانت مهمتي الدفاع عنهم .

وشرح لي ضابط مخفر الشرطة التهمة الموجهة إلى « بورلينغي » : انه لم يعلن عن ملكيته لوحدتين سكنيتين ، وهذا كتمان يؤلف جريمة في ظل أحكام القانون الجديد للاصلاح الحضري . أما « بورلينغي » فكان يكرر أن قصده لم يكن استغلالياً، بل ان هناك أسباباً عائلية قديمة تضطره أن يكون له مسكنان في وقت واحد .

وحين أدركت أني لن أستطيع اخراج الوزير البيروني السابق من السجن ، طلبت هاتفاً وناديت غيفارا ، فشرحت له القصة بتفاصيلها . وإذ ذاك طلب غيفارا أن يتحدث مع ضابط المخفر ، فحياه وأشاد به ، وهنأه على حماسه في السهر على تطبيق القوانين الثورية ، ثم انتهى بأن اقترح عليه، بصورة استثنائية ، متابعة النظر في دعوى « بورلينغي » مع اطلاق سراحه بالكفالة . وقبل الضابط بهذا الاقتراح ، ولم تنقض دقائق حتى كان الوزير الارجنتيني السابق في الشارع .

وبعد بضعة أيام أراد « بورلينغي » زيارة غيفارا لكي يشكره شخصياً على وساطته . وقبل غيفارا . وهكذا اجتمعنا ثلاثتنا ذات مساء لنشرب « المتة »

ولنتحدث في السياسة ، ونحن جلوس على المقاعد الجلدية في مكتب غيفارا .
قال غيفارا :

– ليس هناك من ريب في أن بيرون كان التعبير الأكثر تقدماً عن الاتجاه الاصلاحي السياسي والاقتصادي في الارجنتين . ولكن تأمل : لو أنه هز القوى الاقتصادية التقليدية إلى أعماقها لما كانت في مثل هذا الوضع الملائم الذي استطاعت معه أن تسقط حكومته .

أما «بورلينغي» فكان من رأيه أن الارجنتين بلغت درجة من النمو أصبح يمكن معها الإيمان بقدرتها على التقدم المتصل ، دون أن تدعو الضرورة إلى قلب جذري لبنية المجتمع . وقال ان عدالة التوزيع التي أقامها بيرون كانت اكثر من كافية لتبرير حكمه أمام التاريخ . وكان صريحاً في الاعتراف بأن سرعة الثورة الكوبية كانت تصيبه بالدوار .

وكرر « بورلينغي » عدة مرات ، خلال الحديث ، واحداً من أفكاره المحببة لديه :

– قولا ما تشاءان ، ولكن اذكرا أننا ، حين كنت نقيباً لمستخدمي التجارة ، لم يكن لدينا إلا غرفة واحدة نعقد فيها اجتماعاتنا ، فلما جاء حكم بيرون أصبحت هذه النقابة أضخم وأقوى مؤسسة في أمريكا اللاتينية ، وأصبحت تضم خدمات اجتماعية عملاقة ، وأصبح في خدمتها ألوف من المستخدمين والفنيين . . .

وعجز غيفارا برغم كل محاولاته عن جعل « بورلينغي » – الذي كان في شبابه اشتراكياً ديمقراطياً على الطريقة الالمانية – يفهم الفرق بين النقابية الاصلاحية والتوزيعية وبين نقابية تؤمن ايماناً راسخاً بالمبدأ القائل ان دور الطبقة الكادحة هو أن تقود الأمة كلها .

وفي مكتب غيفارا أيضاً تعرفت على أحد كبار معاوني بيرون : وزير الخارجية السابق « خيرونيمو ريموريتو » . كان قد جاء إلى كوبا ليحاول اقناع

حكومتها بشراء مصنع للأسمدة من فرنسا ، كلفه أصحابه الفرنسيون بمفاوضات صفقته . وقضى غيفارا ساعات يناقش مع « ريموريتو » شؤون سياسة الولايات المتحدة وسياسة امريكا اللاتينية . وكان من رأي « ريموريتو » أن جوهر المشكلة هو أن نعرف إلى أي مدى يكون من المعقول الاعتماد على ولاء الاتحاد السوفياتي ، إذا ما أتى يوم يصبح فيه كل نزاع بين الكوبيين والأمريكيين ، في نظر تلك الدولة ، سابقاً لأوانه زماناً وبعيداً عن تهديد مصالحها مكاناً . كان يقوم :

— ان الروس قد يضحون بكوبا من أجل برلين أو فورموزا إذا ما أتى يوم يكون عليهم فيه أن يقدموا حلاً لاحدى هاتين المشكلتين المعلقتين . ان للروس سياسة قومية ومصالح مستمرة . وفي الوقت الراهن ، يبدو أن ما يخشونه فوق كل شيء ، هو المجابهة مع الولايات المتحدة ، ربما لأنهم يتوقعون أن وضعها الداخلي يمكن أن يقودها إلى سياسة عدوانية ، الى « فاشية » على الطريقة الأمريكية ، فلا تفصلهم اذ ذاك عن الحرب العامة الشاملة إلا خطوة .

وكان غيفارا يجيب :

— هذا مستحيل ، لأنه لو صح لكان معناه أن نقبل القول بأن هناك أخلاقاً سلوكية واحدة تتحكم بالدولة الشيوعية وبالدولة الرأسمالية على السواء ، وفي هذا رفض للمبادىء الأساسية في الشيوعية . فالشيوعية ، قبل أن تكون طريقة للتنمية الاقتصادية ولتوزيع الموارد وللمنجزات المادية ، هي أخلاق ، وأخلاق أممية . وفي كوبا ، نحن على ثقة من أن السوفياتيين سيكونون أوفياء للتضامن الاشتراكي .

هذه المناقشات كانت تجري في شدق الأسد . وكان يكفي ، ليقتنع المرء بذلك ، أن يطل من احدى النوافذ فيرى في أفق البحر مدرعة أمريكية سوداء ، مهدّدة في صمت كأنها جندي شاكي السلاح ، تشهد على عمق الحنق الذي تستشعره أكبر دولة في العالم تجاه الثورة الاشتراكية في جزيرة صغير في البحر الكاريبي .

وكان « ريبورينو » قد مر بتجربة سياسية شخصية تختلف كل الاختلاف عن تجربة « بورلينفي » ، وكان وجود هذين الرجلين معاً في حكومة بيرون قرينة أخرى على تعدد الأحزاب في هذه الحكومة . كان « بورلينفي » نقابياً ، عمالياً على الطريقة الألمانية أو الانكليزية ؛ أما « ريبورينو » فكان قبل كل شيء قومياً ، من طراز كبار الزعماء الأوربيين ، وديغول كان نموذجه المفضل . ولكنهما كليهما كانا متأثرين على السواء بصرامة الثورة الكوبية وبصدق غيفارا .

على أنهما كانا يتباينان في الوقائع التي تجتذب انتباه كل منهما ، بتباين دلالات هذه الوقائع . فأما « ريبورينو » فكان يعجبه من غيفارا ازدراؤه للمال ، هذا الازدراء ذو الدواعي الأخلاقية والذي تبدى على أجلى ما يكون يوم وقع على أوراق العملة الكوبية باسمه العسكري : « تشي » ، عارفاً أنه بذلك كان يوجه ضربة قاتلة إلى نظرة للحياة تضع المال فوق كل شيء وتحيطه باجلال يقارب العبادة . ونزع صفة الربوبية هذه عن المال ، والعودة به الى صفته الحقيقية كمجرد أداة لتسير تبادل الثروات التي قام البشر حقاً بانتاجها : ذلك ما كان يهدف اليه غيفارا . وقد توقف أغنياء كوبا عن اختزان هذا المال ، وأخذوا ينثرون ملايينه على موائد القمار ، حين اكتشفوا أنه ليس أكثر من ورق مطبوع لا يستطيعون استخدامه لاستهلاك ما يزيد عن حاجتهم ، حتى بعد أن يكونوا قد دفعوا نصيبهم من ضريبة الجماعة . كان غيفارا ، حين وضع توقيع « تشي » على أوراق العملة ، قد نسف من جذورها الفكرة السائدة التي تعتبر المال قيمة في ذاتها مقدسة ، ؛ فأصبح مألوفاً أن نرى حول موائد القمار في فندق « كابري » ، التي كان « جورج رافت » قد وضعها قبل بضع سنوات ، رجالاً ونساء تلتهمهم حمى مكتومة فيقذفون على البساط الأخضر أوراق العملة التي وسمتها الثورة نهائياً بميسم الاحتقار .

وأما « بورلينفي » فكان ما يجذبه أكثر لدى غيفارا هو أخلاقه « اليعقوبية » ، ولا سيا في تعابيرها المباشرة . كان مثلاً بادي التأثر وهو يذكر كيف أن غيفارا

حاول ادخال صيغة حقوقية جديدة ، هي جريمة افساد الأخلاق العامة ، وذلك لكي يدين تاجر مشاهد مسرحية بذيئة ، يدعى « شوارزمان » ، زاد في الطين بلة أنه كان أرجنتينياً بالتجنس . وكان هذا الرجل قد دخل الأدب العالمي بفضل قلم « غراهام غرين » ، اذ كان هو نفسه الشخص الذي وصفه « غرين » في روايته « عميلنا في هافانا » ، جاعلاً منه مديراً لمسرح شانغاي في الحي الصيني في هافانا ، كما وصف البرنامج الذي يعرضه هذا المسرح بكل ما فيه من هُجر مقذع : برنامج اثارة لأكثر الأهواء حطة ، يحتل القسم الأول منه عملاق من الملونين ، ثم يمتد في مشاهد أكثر تفصيلاً ، تمتلىء بحوادث اغتصاب الحيوانات الأليفة وبمواقف داعرة وسادية لا تصدق . وكان غيفارا قد أنذر ذلك القواد الذي ينظم تلك المشاهد الفاجرة ؛ ولكن هذا ظن نفسه يتعامل مع موظف كالآخرين ، وان كان أكثر منهم صرامة ، فلم يتوقع – وهو يتابع نشاطه – أن يحمله الجنود إلى مقر قيادة غيفارا في حصن « لا كابانيا » ، وان يبلغه هذا أنه سيلاحق بجريمة افساد الأخلاق العامة ، وانه في الأغلب سيعاقب بالموت . وقد ظل السفير الارجنتيني يناضل عدة أسابيع لإقناع غيفارا بالعدول عن اعدام « شوارزمان » هذا ، فلم يستطع جعله يغير من توصيف الجرم ، وان انتهى باقناعه أنه لا يملك تطبيق هذه العقوبة على أجنبي .

وكان غيفارا قاطعاً جازماً في عدائه للحرص المفرط ، والبخل ، وجنون اختزان المال . كان مثله الأعلى منذ البداية قيام مجتمع يربح كل من من أفراده خبزه بفضل عمله ، مقدماً خير ما عنده . وكان قد جاب أمريكا اللاتينية وكل ثروته الثياب التي على بدنه ، عاملاً حين تتهيأ له الفرصة ، لا يطلب لقاء ذلك إلا كفاف العيش . بل انه – حتى ولو بدا ذلك عسير التصديق – لم يكن يتمنى قط لنفسه أكثر من كفاف العيش . كان بروحه شيوعياً وبدائياً ومسيحياً ، وكان يبدو له طبيعياً أن يقاسم اخوانه كل ما يربحه بعمله .

قال لي ذات يوم :

– هناك شيء ينبغي أن تذهب لرؤيته . يجب أن ترى الى أي درك انساني يمكن أن ينزل الأغنياء .

كان قد اكتشف كمية عجائبية من المجوهرات والحجارة الثمينة والآثار الفنية وقطع العاج وسبائك الذهب في قصر « كونتيسة » اسبانية . وأعطاني تصريح مرور ذيلّه بتوقيعه ، فكان كافياً لأرى مشهداً جديراً حقاً بألف ليلة وليلة : كان قصر « الكونتيسة ده ريفيليا ده كامارغو » المؤلف من دورين ، قد أضاف في الماضي « ليوبولد » ملك بلجيكا و « دون جوان » المرشح لعرش اسبانيا . أما حين زرته فكان فريق من العمال يهدم في بطء جداراً سميكاً من جدرانه ، ووراءه كوّمت ثروة أسطورية لم أر في حياتي مثلها خارج متحف : صناديق كاملة من الخزف والشمعدانات والفضيات ، الى جانب لوحات من رسم « غويا » و « موريليو » غلفت بعناية .

وكانت مناشر « الكونتيسة » ومصافي السكر التي تملكها تدر عليها دخلاً يبلغ ثلاثمائة مليون دولار . وفي سن الثمانين قررت أن تهاجر من كوبا . فلما علمت أن أملاكها صودرت سقطت مريضة وتوفيت في عيادة لأصحاب الملايين في نيويورك .

تلك « الكونتيسة » الفنية ، التي لم تستطع البقاء بعد فقدانها ثروة كدستها دون جهد ، كانت نقيض الانسان المثالي الذي طمح غيفارا أن يشهد مولده في كوبا ، وفي بقية أمريكا اللاتينية طبعاً . وكان المفروض في هذا الانسان الجديد أن يمثل مناقب انسان القرن الحادي والعشرين ، ولذلك كان غيفارا يعلق أهمية كبرى على دور الشباب وعلى تنظيم الحزب . كان يقول :

« الشباب ، هذا هو العنصر الأساسي . انه كالصلصال لدن قابل لأية صياغة . ومن طينته يمكن خلق الانسان الجديد بريئاً من عاهات الماضي ورواسبه الثقافية والاجتماعية » .

على أنه برغم ذلك كان يلقى العناء في تقديم صياغة واضحة وجذابة لصورة

هذا الانسان الجديد لديه . لذلك كان يقف عند العموميات ، قائلاً مثلاً :

– الأمر الأساسي هو العمل ، وتفتح الشباب في العمل . العمل مكافأة أحياناً ، وأداة تثقيف أحياناً أخرى ، ولكنه ليس عقاباً في أية حال . ومع ظهور الجيل الجديد تظهر أيضاً مراجعة كلية لمفهوم العمل .

على أن غيفارا ، بقدوته ، كان يضع فلسفة العمل لديه موضع التطبيق . ولقد طالما أتيح لي أن أتحقق من ذلك بنفسي خلال اقامتي في كوبا عام ١٩٦١ .

قال لي ذات يوم ، وهو يفيض مرحاً :

– هذا المساء ، اذهب مبكراً الى فراشك . فغداً ستعرف ما هو معنى العمل الحقيقي .

ومع الفجر مر بالفندق فأخذني معه واتجهنا معاً الى « ميدان الثورة » ، حيث تجمع خلق كثير . ففي الخامسة صباحاً كان هناك ثلاثة آلاف شخص على الأقل يبحثون عن أماكن في سيارات النقل والشاحنات . وكانت هناك رايات كوبية وقبعات عريضة كثيرة من قش « الياريه » [1] . وكانت النساء يرتدين الزي العسكري أو الأثواب الخفيفة ذات الألوان الفاقعة . كل أولئك كانوا مستخدمين في عدد من المصالح الحكومية ، من بينها المصرف الوطني وادارات التخطيط التي كان مجموعها يؤلف وزارة الصناعة ، تحت قيادة غيفارا .

أما المفاجأة التي أعدها لنا هذه المرة ، فهي أنه كان سيعمل متطوعاً في قطاف قصب السكر برفقة صديقين من « أيام الماضي السعيد » – الدكتور « غرانادوس » وأنا – ورفقة زوجته « آلييدا » .

وأعترف أني ، طوال الكيلومترات الأربعين التي كانت تفصل بيننا وبين الحقل الذي تم اختياره لهذا العمل ، ظللت أعتقد أن المهمة ستجري « على

(١) نوع من القش المضفور يصنع منه الفلاحون الكوبيون قبعاتهم .

طريقة أمريكا اللاتينية » : وزير يتظاهر بالعمل تحت الشمس المحرقة ، ومصورون يسجلون المشهد ، وفي خافية الصورة رجال ونساء يعملون حقاً ، ثم ينصرف الوزير إلى تناول المرطبات في الظل وإلى التعليق على آخر الأنباء، يحيط به الموظفون والصحفيون . وحاشا أن يكون هذا الاعتقاد قد نشأ عن ضعف ثقتي بغيفارا : كل ما في الأمر هو أني لم أكن أتصور أبداً أن الأمور يمكن أن تجري على أسلوب آخر .

وأخيراً بلغنا الجبل ، ووضعت الشاحنات جانباً ، ووزعت على الحاضرين مناجل قطع القصب . وحين تلقيت منجلي ، وفي محاولة للانخراط بالمناخ المحيط بي ، أعلنت اني سأعمل عاري الصدر ، دون قفازات ولا قميص ، فقال لي غيفارا في خبث :

– من الواضح أنك تقوم بهذ النوع من العمل لأول مرة .

كان في مرحه أشبه بطفل لا ينتظر إلا الشماتة بعجز رفيق له يدعي لنفسه القوة . وهذا هو ما حدث بالفعل : فلقد كنت أجهل أن قصب السكر يطلق غباراً بالغ الدقة يدخل مسام الجلد فيهيج الجلد ويشققه ، ويثير جنون الحكاك لدى الجاهل الذي يزعم القدرة على العمل دون وقاء . وهكذا لم يمض إلا قليل حتى طلبت أنا أيضاً قميصاً طويل الأكام مغلقها ، وقفازين يغطيان الذراع حتى المرفق . وعملنا دون توقف منذ السادسة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف، حين أصبح العمل لا يطاق في حر الشمس ، فاسترحنا لتناول الطعام تحت ظلة من النخيل ، وروح الزمالة الحقيقية تسود مديري الوزارة ومديري المصالح وصغار الكتبة والمستخدمين . أما غيفارا فكان في أوج إشراقه : فهنا كان يبدو أن مثله الأعلى كان أخيراً يتحقق . هناك كانت جماعة متحدة من رجال ونساء يربط بينهم عمل واحد ، ويؤدونه بصورة واعية ، ثم ها هم معاً في غبطة مشتركة ، دون استعلاء كاذب ودون أي حاجز مصطنع .

واستأنفنا العمل بالجد ذاته من الثالثة بعد الظهر حتى السابعة والنصف . وكان غيفارا أستاذاً في فن قطع القصبة على مستوى الأرض وتنظيفها بضربات

باترة بمنجله . فلما انتهت مهمة اليوم ، تسلق غيفارا على كارة عالية الدواليب ، من تلك التي تستخدم في نقل القصب حتى المصنع ، وتوجه إلى الجميع بحديث تبشيري ، حديث لم يلبث أن انقلب إلى حوار كان محتوى اسئلته واتجاهها مقياساً لمدى الوعي السياسي لدى المشتركين فيه . وقد قال لي غيفارا فيما بعد إن مناظرات من هذا النوع ، عفوية في اختيار المواضيع المطروحة للنقاش ، ومنزهة عن أية رقابة على أقوال المتحاورين ، كانت دائماً أفضل الموازين لتعرف آمال الشعب الكوبي ومخاوفه العميقة . وأسئلة ذلك المساء أخذت تدور بالضرورة حول موضوع الغزو الذي يتهدد البلاد. لذلك لم يدهش أحد حين قطع غيفارا الحوار وهتف بالحاضرين :

– والآن ، أيها الرفاق ، تعالوا جميعاً نمتحن قوة نظرنا .

وانطلقت الضحكات من كل جانب ، وتهيأ عدد منهم إلى جانب غيفارا لاظهار مهارتهم في الرمي ، وسلاحهم مسدسات من عيار ٤٥، وهدفهم صف من القوارير الفارغة .

في آخر شباط ١٩٦١ سمي غيفارا وزيراً للصناعة ، كجزء من تعديل وزاري شامل قرره كاسترو . وكان هذا المنصب ، عملياً ، لا يغير شيئاً من مهام غيفارا السابقة ، ولكن هذه المهام أصبحت في الاطار الوزاري أكثر تحديداً : فلقد كان مطلوباً من غيفارا أن ينجح في توحيد مشاريع التنمية الصناعية وتوجيهها وتنفيذها ، وكانت له – تيسيراً لهذه المهمة – كل السلطات المطلقة على كل الصناعات ، كما دخل في اختصاصه البترول والمناجم ومشكلات التنمية الصناعية المتصلة بالاصلاح الزراعي .

وايلاء غيفارا كل هذه السلطات يكشف إلى أي مدى كان قد أصبح عاجل الضرورة تركيز عملية التوسع الصناعي في يد واحدة ، إذا أريد وضع حد لتردي الوضع ، هذا التردي الذي كان مصدره افتقاد التخطيط . وإذا كان غيفارا هو الذي اختير لهذه المسؤولية ، فلأنه كان من الأفضل إيكال اعادة

تنظيم المشروعات الكوبية إلى رجل مثله ، لا يكترث بالديماغوجية .

وكانت احدى أخطر المشكلات التي اضطر غيفارا إلى مجابهتها ، مشكلة جعل هيكل الجزيرة الصناعي « يهضم » أكثر من ستين معملاً زودتها بها اليابان لقاء شحنات من السكر : فلقد كان على كوبا أن « تمتص » هـــذه التجهيزات الصناعية التي تراكمت لديها على مدى عامين من عمر الثورة ، قبل أن يتحقق وعد كاسترو بتحريرها من استعباد قصب السكر كانتاج زراعي وحيد .

وكان غيفارا يؤمن بأنه لن يستطيع انجاح برنامج لتعقيل العمل الصناعي دون حوافز معنوية للانتاجية .لذلك رأيناه،لدى أول ظهور علني له بعد تسميته وزيراً ، يقدم المكافآت للمرة الأولى إلى « أبطال العمل » ، ويعلن في الوقت نفسه عن البدء بتنفيذ خطة لأربع سنوات يحتاج تحقيقها إلى « أبطال عمل » آخرين بالمئات والألوف .

وقد فسرت صحافة أمريكا الشمالية تسمية غيفارا وزيراً على أنها انزلاق سريع نحو تجميع السلطة بين يديه . ولما كانت هذه التسمية قد جاءت وكوبا تباشر مفاوضات مع دول أمريكا اللاتينية الأخرى لتحول دون اجماعها على قطع العلاقات معها ، فان الصحافة الأمريكية قدمت عن الأحداث صورة أدت إلى تعطيل تلك المفاوضات . فلقد كان غيفارا ، بالطبع ، يمثل مزيداً من تصلب الثـــورة ، ولذلك عمد أعداؤها إلى تضخيم دوره لاحباط كل المباحثات .

على أن آخرين فيما يبدو فضلوا الهجوم على غيفارا شخصياً . ففي نفس اليوم الذي أقسم فيه اليمين بوصفه وزيراً جديداً ، أطلقت سلسلة من العبارات النارية – في ظروف غامضة لم يعرها غيفارا أية أهمية – عند ملتقى الشارع السابع بالشارع الثامن عشر ، في حي « ميرامار » ، على بعد أقل من مئة متر عن منزله . ولم ينتشر نبأ هذا الحادث في كوبا على الرغم من أن بعض معاوني غيفارا قد علقوا عليه بكثير من الاندفاع الغاضب . وزعم غيفارا أن الحادث

لم يكن مؤامرة موجهة ضد شخصه ، ولكن اطلاق النار هناك كان يعني على الأقل أن أعداءه موجودون قريباً من منزله . وخلال بضعة أيام لم أستطع منع نفسي من التفكير في صندوقة القنابل اليدوية التي كانت دائماً ترافقه في سيارته .

والواقع أن شهر آذار ١٩٦١ كله اتسم بالعنف المتزايد المتصل . كانت طلقات الرشاشات المتلاحقة تدوي ليل نهار ، وشحنات « الديناميت » تنفجر في الفنادق الكبرى . ولم يكن سراً على أحد أن مشاريع الغزو لا تزال قائمة وأن أجهزة المخابرات في الولايات المتحدة كانت تضاعف مجهوداتها لتدريب المخربين وانزالهم على ساحل الجزيرة .

وتلك هي الحقبة التي عرض فيها وساطة حكومتيهما بين واشنطن وهافانا رئيسان اصلاحيان هما الأرجنتيني « فرونديسي » والبرازيلي « جانيو كوادروس » . وكانت فكرة الوساطة لديهما ، في ثوبها الدبلوماسي ، تستند إلى أن الحرب ضد كوبا أمر لا سبيل إلى التفكير فيه بالنظر إلى ميثاق التعايش السلمي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وبالتالي فان طريق المفاوضة سيفرض نفسه آخر الأمر ، ومن الأفضل اذن فيما يبدو أن يوكل أمر هذه المفاوضة الى الشقيقتين الكبريين في أمريكا اللاتينية . وكان « فرونديسي » — وهو صاحب فكرة المشروع قبل أن يشرك بها « كوادروس » — قد لمح لواشنطن بأن وساطة تقوم بها دولتان من دول العالم الحر تظل دائماً أفضل للولايات المتحدة من وساطة الاتحاد السوفياتي . ولكن فرونديسي كان مرة أخرى على خطأ ، ومبادرته فجرت حملة عنيفة ضده ، لا في أوساط المنفيين الكوبيين فحسب بل أيضاً في أوساط اليمين الأرجنتيني ويمين كل بلدان أمريكا اللاتينية . وهو ، بمحاولته التدخل في المسألة الكوبية ، قد كسر نصف الغصن الذي كان جالساً فوقه .

قال لي غيفارا ذلك المساء :

— سيفشل دون ريب ، وسترى . انه لن يفشل فحسب بل سيكون قد أعطى لكل الرجعيين في بونس آيرس فرصة للتخلص من حكومته .

كانت المشكلات الدبلوماسية لا تقل اثارة لاهتمام غيفارا عن قضايا وزارة الصناعة ، وقد وضعت له — بناء على طلبه ، ولمعلوماته الشخصية — مذكرة تفصيلية حول العلاقات بين كوبا وألمانيا الغربية . وكنت حديث العهد بترك عملي في سفارتنا في بون ، حيث قضيت سنتين . وكانت العلاقات الكوبية الألمانية قد ساءت في أعقاب حادث تافه : إذ كان الملحق التجاري لدى سفارة ألمانيا في هافانا قد استأجر منزلاً مصادراً من قبل الحكومة ، وكان مالك المنزل قد وضع لعقد الإيجار تاريخاً سابقاً ليوهم بأن الإيجار تم قبل الاجراء الحكومي . ومن المحتمل أن يكون الدبلوماسي الالماني ، بقبوله هذا التزوير ، قد أراد مساعدة المالك السابق الذي كان إذ ذاك مقيماً في المنفى، أو لعله وجد فيه فائدة له اذ كان بذلك يدفع أجراً بالغ الانخفاض يستلمه المؤجر بالدولارات . أياً كان الأمر فان المهم فيه هو ان الملحق التجاري نزع الاختام التي وضعت على باب المنزل إشعاراً بنزع ملكيته ، وان رجال « الميليشيا » في الحي ذهبوا يحتلون المنزل بعد بضع ساعات .

وكان السفير الالماني في هافانا هو «الكونت كارل فون سبريتي»، وهو رجل يحترم الملكية الخاصة حتى العبادة ، ويصاب بالمرض كلما حدثوه عن الاصلاح الزراعي . أي أن الكونت السفير كان يقضي اكثر وقته مريضاً في كوبا ... وفي الوقت ذاته كان الكوبيون يتوقعون أن تنقاد الحكومة الالمانية لضغط واشنطن فتقرر قطع علاقاتها مع كوبا ، وفي هذه الحال كان يفضلون أن تكون لهم المبادرة بالقطيعة . ولذلك ، وجساً للنبض ، قررت كوبا أن تطرد الملحق التجاري ، وأن تحتفظ بعد الآن بالموقف الهجومي .

ولقد رويت في تقريري المكتوب لغيفارا حادثاً طريفاً جرى قبل بضعة

أشهر ، وكنت أحد أطرافـــه : كانت سفارة كولومبيا في بون قـــد دعت دبلوماسي أمريكا اللاتينية إلى حفـــلة استقبال على شرف المستشـــار كونراد اديناور . وجاء إلى سفارتنا مستخدم كولومبي أبلغني بصورة مكتومة ، وهو يسلمني بطاقة الدعوة ، ان الكوبيين وحدهم لن يدعوا إلى الاحتفال ، فأبلغته أن عليه – في هذه الحال – ألا يتوقع حضوري . وكانت مفاجأة كبيرة لي ، بعد يومين ، حين اتصل بي مدير قسم أمريكا اللاتينية في وزارة الخارجيـــة الالمانية ليقول لي انهم كانوا على علم بالحادث وانهم يؤيـــدون موقفي . ثم أعلن اديناور نفسه أنه لن يستطيع قبول التكريم الذي تعنيه تلك الحفلة اذا منعت من الاشتراك فيه أية بعثة دبلوماسية لاتينية أمريكية . وتمت الحفلة في موعدها، وأعطى رجل الدولة العجوز درساً للجميع حين خرق أعراف المواسم فاتجه بالتحية ، أول ما اتجه ، الى سفير كوبا .

على أن العلاقات بين البلدين كانت قد أصبحت متردية بشكل لا سبيل إلى علاجه . فقبل نهاية شهر آذار استقبلت كوبا بعثة تجارية من ألمانيا الشرقية ، منحتها صفة بعثة دبلوماسية ، فكان ذلك سبباً لاحتجاج جديد تقدم به سفير بون . ثم قطعت العلاقات نهائياً بعد حين قصير .

كانت أولى الجولات الهامة التي قام بها غيفارا بوصفه وزيراً للصنـــاعة هي في الوقت ذاته آخر رحلاتنا المشتركة في الجزيرة . كان يريـــد أن يتعرف بنفسه على مدى تقدم أعمال التنقيب عـــن البترول في « خاتيبونكو » في ولايـــة « كاماغواي » ، فذهبنا إلى هناك يرافقنا حرس في سيارات : ثلاث سيارات أو أربع كان الغرض منها تخفيف الأخطار إذا ما واجهنا هجوم مسلح . وهذا يعني أن الواقع كان ما يزال على حاله : كانت أحكام الاعدام تجيب على تـــكاثر أعمال التخريب ، فتندفع بدورها إلى أعمال ارهابية جديدة وتبعث على تجـــدد العنف في سلسلة من ردود الفعل .

وشرح لي غيفارا مسألة البترول خلال الرحلة . قال :

– حتى الآن لم تكن شركات شل واسو ، ونسيبتها « تكساكو » التي يملكها صديقنا « روكفلر » قد أقامت في كوبا إلا المصافي . كانت هذه الشركات تأتي بالبترول من فنزويلا فتكرره ثم تعود فتبيعه في كل منطقة البحر الكاريبي . أما بترولنا الخاص فلم يكن حين استولينا على السلطة يبلغ واحداً بالمئة من حاجات الاستهلاك المحلي . لذلك ترانا نعمل في التنقيب بالغ الجد . ولست أريد أن أمثل دور الأنبياء ، ولكني على يقين من ان البترول سيلعب في المستقبل دوراً مؤثراً في الاقتصاد الكوبي .

– ألا ترى أنه قد يكون من مصلحتكم شراء البترول من أحد البلدان المنتجة الأخرى ، بدلاً من الاضطرار إلى استغلاله استغلالاً باهظ التكاليف .

– اذن أنت لا تدري بما حدث لنا ؟ حين أرادت الشركات الأمريكية أن تضغط علينا فقررت وقف تسليمنا المحروقات، لجأنا إلى فنزويلا والى الأرجنتين. فهل تعرف بماذا أجابنا فرونديسي ، وبماذا أجابنا بيتانكور ؟ بالكلام الفارغ. اقترحا أن نؤلف لجاناً مشتركة للدراسة مهمتها تعيين الحدود التي تتم بموجبها شحناتها . ولو فعلنا ذلك لاقتضانا أشهراً طويلة ، بينما كنا سنحتاج للبترول في الساعات التالية . كانت هذه طعنة خنجر في الظهر ، دفعتنا مرغمين الى الارتماء بين ذراعي السوفياتيين .

بعد ذلك ببضعة أيام ، قادني غيفارا بسيارته حتى المطار . كانت هناك كائن للرشاشات على طول الطريق ، ومدافع مضادة للطائرات تحت عنابر المطار . وقال لي وهو يودعني :

– انهم قادمون ، ولكننا سنستقبلهم كما ينبغي . ومن المؤسف أن تتركنا الآن ، تماماً في الوقت الذي توشك فيه الحفلة أن تبدأ .

٢

التحدي الكوبي

بين ٢ و ٢٠ آب ١٩٦١ عرف غيفارا ثلاثة أسابيع مشحونة بالأحداث على الصعيد السياسي والشخصي . ولقد كانت حياته دائماً خصبة بتجارب من هذا النوع ، ولكن هذه الحقبة بالذات ظلت منطبعة في ذاكرته . إذ حفلت بأقسى التجارب التي عاشها وأشدها اثارة .

كان جون كنيدي قد أعلن عن مشروعه الطموح ، مشروع « التحالف من أجل التقدم » [١] ، وهو في مدينة « بونتا دل ايستي » في الأوروغواي .

---

(١) مشروع يستهدف المساعدة على الانماء الاقتصادي لامريكا اللاتينية ، اقترحه كنيدي يوم ١٣ آذار ١٩٧١ ، بعد شهرين من استلامه منصبه ، يمنح تلك المنطقة معونة مالية وفنية « شريطة ألا تنحصر فائدتها بالقلة المسيطرة » . وتحقيقاً لهذا الهدف طلب كنيدي من الكونغرس انشاء « صندوق » بأكثر من ٥٠٠ مليون دولار ، وفي مؤتمر « بونتا دل ايستي » ، في آب ١٩٦١ ، اتخذت جميع الدول (باستثناء كوبا) قراراً مشتركاً كان نقطة انطلاق لقيام « التحالف » . وكانت الأوساط السياسية والمالية في واشنطن قليلة الرضى عن هذا المشروع ، فما أن قتل كنيدي حتى وضعه جونسون على الرف . ولا وجود اليوم لهذا « التحالف » إلا على الورق .

ولم يكن قد انقضى إلا أربعة أشهر على تركي غيفارا في كوبا ، ولكن حدثاً ذا أهمية تاريخية رئيسية كان قد وقع في تلك الفترة ، فجعلني في أشد التوق إلى لقائه من جديد . ففي نيسان كانت الولايات المتحدة قد قامت أخيراً بمحاولة غزو كوبا ، بواسطة قوة مسلحة تتألف من لاجئين كوبيين ، هزمت واضطرت إلى الفرار بعد قليل من نزولها إلى الأرض .

كان هذا الحدث قد ألهب العواطف إلى درجة الخطورة في القارة الجديدة ، وكانت مشاعر العداء لأمريكا الشمالية لدى الشعوب القاطنة جنوب « ريو برافو » لا تعرف الا التصاعد ، بحيث سجلت الولايات المتحدة في كل مكان تضاؤلاً كبيراً في نفوذها. ومن الاعتراف بهذا الواقع ولد برنامج التحالف من أجل التقدم ، ولكنه كان — كأكثر مبادرات الرئيس كنيدي — يوحي بأنه خطوة للترضية طيبة القصد لا سياسة خارجية حقيقية للولايات المتحدة .

وبرغم ذلك ، لم يكن يجوز سلفاً رفض هذا المشروع الذي ارتجله مستشارو كنيدي لرأب الشرخ الذي أحدثته عملية الغزو الفاشلة ، لا سيما وأن واقعة جديدة كان ينبغي ادخالها في الحساب : اذ أن الدولتين الكبريين في أمريكا اللاتينية ، الأرجنتين والبرازيل ، كانتا تؤيدان الخطوط العامة لمشروع كنيدي ، وان رئيسي هذين البلدين كانا يبدوان وكأنهما نسجا وشائج غير مرئية بينهما وبين الرئيس الأمريكي . فاخفاق الهجوم على كوبا كان قد أضعف موقف كنيدي ، فأخذ يبحث عن تحالف قابل للاستمرار مع الدولتين الرئيسيتين في الجنوب . وهاتان الدولتان ، من جانبهما ، كان يحكمهما رجلان كانا موضع جدل كثير ، من اصلاحيي الموجة الجديدة الذين تنصب أمامهم الحواجز العديدة على طول الطريق ، فكان دعمها لكنيدي وكسبها دعمه بالمقابل عوناً كبيراً لكل من هذين الرجلين ، يأمل أن يساعده على إكمال ولايته المحفوفة بالاخطار .

ذلك كان الوضع حين خرج غيفارا من هافانا ، في منتصف ليل الثاني من آب ١٩٦١ ، على طائرة تجارية تابعة لشركة الطيران الكوبية . وكان بعث

برسالة إلى امه يبلغها فيه برغبته بلقاء جميع أفراد أسرته في« بونتا دل ايستي »، ويطلب منها في الوقت ذاته ابلاغي نبأ قدومه . وقد فعلت ذلك على الفور .

في تلك الفترة كانت هنالك بلدان عديدة قد أصبحت كوبا على غير علاقات معها أو على علاقات غير طيبة . وبالتالي لم تكن طائرة « بريتانيا » التي يركبها غيفارا مع أربعة وأربعين من المستشارين الاقتصاديين والدبلوماسيين والصحفيين، ومن أعضاء حرسه ، تستطيع أن تتوقع الترحيب في مراحل طريقها . لذلك اختار غيفارا أن يهبط في « سورينيم » ، مطار « باراماريبو » في غويانا الهولاندية ، البلد ذي الغابات العذراء والذي لايعش فيه اكثر من مائتين وخمسين الف نسمة يفرق بينهم لون البشرة وتعدد اللغات واللهجات . وحتى هناك لم يستقبله الا وفد من الوطنيين اقترب من الطائرة ليقدم له هدية رمزية ، هي مجداف مزخرف من تلك التي يستخدمها أهالي المستعمرة لتسيير زوارقهم الصغيرة المصنوعة من جذوع الشجر المجوفة .

ثم اضطرت طائرة « بريتانيا » ، خلافاً لبرنامجها وبسبب اغلاق مطار « كاراسكو » في مونتفيديو مؤقتاً ، أن تهبط في ريو ده جانيرو قبل أن تنهي رحلتها .

وكان الوفد الكوبي دون أي ريب قطب الاهتمام الوحيد في المؤتمر ، كما كان واضحاً على طول الطريق بين مونتفيديو و«بونتا دل ايستي» ، هذا الطريق الذي اجتزته قبل ساعات من وصول غيفارا وصحبه ، فاذا هو من بدايته حتى نهايته مكتظ على جانبيه بحشد من العمال والطلاب يلوحون بالأعلام الكوبية وباللافتات ذات الشعارات الملتهبة . وقد أدركت الحكومة فوراً أن مناخ العنف قد بدأ يسيطر في كل مكان فسارعت إلى سد مداخل الطريق وإلى مراقبة تحرك العربات والمشاة فيه .

عثرت على غيفارا في قاعة الاجتماعات ، وهي صالة رحبة ضاقت مع ذلك بالوفود الكثيرة الحركة وبالموظفين الذين يتصل نقاشهم أمام منصة زينت

باعلام العالم الجديد .

وكان غيفارا منذ وصوله قد عانى الكثير من نوبات الربو التي عاودته . ففصل الشتاء على شاطىء المحيط بالغ القسوة في نصف القارة الجنوبي ، وكان على غيفارا أن يبتلى بتجربة هذه الحقيقة المؤلمة من جديد . وقد وجد نفسه ، عشية لقائنا ، مجبراً على الاستراحة بضع ساعات على أثر نوبة جديدة . فصعدت اليه في غرفته ، في الدور الثاني من فندق « بلاجا » ، وهو قصر يكاد يكون خراباً ، لا مزية له إلا عزلته المطلقة ، بعيداً عن المساكن في منطقة الاستحمام . وكان الوفد الكوبي يحتل طبقة بكاملها من الفندق ، وقد نقل أعضاؤه توزيع غرف هذه الطبقة نقلا أميناً عن أسلوب تنظيم جهاز « تشي » في هافانا ، فاذا هي معسكر ووزارة معاً ، تلتقي فيها فتيات « السكرتارية » بالحرس المسلحين بالرشاشات ، ويقوم بعضهم بالطبخ بينما يتحدث الآخرون على الهاتف ، قائمين كلا بمهمته في تنسيق مدهش ، على رغم كثرة عددهم وضيق المجال الذي يستطيعون فيه التحرك .

كان غيفارا ذلك المساء يعاني آلاماً مبرحة ، ولكن مرحه المعتاد استطاع أن يتغلب عليها . وقد روى لي أنه خلال وجوده في بكين دهمته نوبة الربو بينما كان في اجتماع مع « ماو تسي تونغ » ، وكانت النوبة من الحدة بحيث توقف قلبه لحظات وسقط على الأرض أمام الرئيس الصيني . وأخذ القلق مأخذه من « ماو » فألح عليه أن يسلم نفسه لعلاج الوخز ، هذا الأسلوب الصيني القديم الحديث في علاج كل الأمراض . ولكن ربو غيفارا ظل صامداً حتى أمام أطباء « ماو » ... وأضاف غيفارا ، بينما كان وجهه ينقبض في ابتسامة مؤلمة :

— أرأيت ؟ هذا المرض الملعون قد صمد حتى أمام الصينيين ، أولئك الذين لا يعصى على ارادتهم شيء كما يقال !

وكان غيفارا في « بونتا دل ايستي » ، برغم سوء حالته الصحية ، أمام مهمة تحتاج إلى اكثر من طاقات البشر . فكل ما تعج به الأوساط السياسية في العالم

الجديد من مكائد وأهواء ، وأحقاد وآمال، كان مجتمعاً في هذه المدينة الجهنمية : في « مبنى الأمريكتين » حيث ينعقد المؤتمر ، وفي « دستتين » من المساكن الخاصة كانت تتم فيها الاجتماعات السرية وتحاك فيها المؤامرات في كل ساعات الليل والنهار .

وبعد قليل من وصولي ، استوقفني في أحد الممرات شخص كنت أعرفه من قديم ، كان لا يزال عضواً في الحزب الراديكالي الذي يقوده الرئيس « فرونديسي » ، ولكنه كان قد تخلى عن نيابته ليعاون الحكومة الأرجنتينية على إنجاح بعض المفاوضات ذات الطابع الخاص . وطلب مني هذا الشخص أن أعرفه على غيفارا ، راجياً أن يتم ذلك خارج البناء الذي ينعقد فيه المؤتمر ، لأنه كان يريد التحدث اليه على حدة .

ونقلت هذا الرجاء الى غيفارا ، فاشترط هذا أن يعرف مسبقاً غرض المقابلة الحقيقي . وكان على حق في ذلك ، اذ أن أرجنتينيين كثراً كانوا يتسكعون في الممرات وغرف الانتظار كيما يتاح لهم أن يصافحوا « تشي » . فأبلغت الرجل أن عليه أن يزودني بمعلومات أوسع اذا كان حريصاً على ذلك اللقاء فأجابني :

— انني مكلف بمهمة سرية من قبل فرونديسي .

وتمت المقابلة في اليوم التالي ، في غرفة غيفارا ، بحضوري وحضور « خورخي كاريتوني » ، المستشار الخاص للرئيس فرونديسي . وكانت بدايتها حديثاً طويلاً ودياً بين أصدقاء ، مع ركوة « المتة » [1] وابريق للماء الساخن

---

(١) هذه الركوة وعاء صغير من الخشب المكور يشرب فيه المتة سكان منطقة « ريو ده لا بلاتا » (أي الأرجنتين والأوروغواي والباراغواي) ، بواسطة أنبوب طويل . وهم يطلقون على المتة أيضاً اسم « شاي الجزويت » لأن الجزويت في الباراغواي كانوا أول من زرعها .

تملأ منه كلما فرغت . ثم اقترحت أن انسحب لأتركهم يتحدثون منفردين ، ولكن كلا الطرفين ألح عليّ بالبقاء .

هكذا أتيح لي أن أشهد أول اتصال غير مباشر بين فرونديسي وغيفارا ، وهو اتصال انتهى الى لقاء فعلي في بونس آيرس ، بعد بضعة أيام .

كانت دعوة الرئيس فرونديسي عارية عن أي طابع رسمي ، كما كانت معلقة على شرطين : أن يتلقى غيفارا قبل ذهابه الى بونس آيرس دعوة رسمية لزيارة البرازيل ، وأن تحاط رحلته الى الأرجنتين باكبر قدر من الكتمان ، في الذهاب والاياب .

وكان غيفارا قد تلقى قبل ذلك ، بواسطة رئيس الوفد البرازيلي وزير الاقتصاد « كليمنتي مارياني » ، دعوة شفهية للالتقاء بالرئيس « كوادروس » في برازيليا . وفي اليوم التالي أكد البرازيليون رسمياً هذه الدعوة ، بحيث أصبح في وسع غيفارا ، بدوره ، أن يفرض شروطه الخاصة لمقابلة فرونديسي : طلب أن يذهب مباشرة من « بونتا دل ايستي » الى بونس آيرس ، وأن يعاد فيما بعد الى مونتفيديو ،لأنه لم يكن يريد أن يضيع الفرصة لاستغلال مقابلته لفرونديسي في العلاقات بين كوبا والأوروغواي . كما طلب أن يرافقه في رحلته « رامون آخا كاسترو » ، المسؤول عن شؤون أمريكا اللاتينية في وزارة الخارجية الكوبية ، وهو موظف نشيط فعال ؛ على رغم ضعف بصره .

ومنذ اللحظة التي تقررت فيها المقابلة مع فرونديسي ، فان الأشخاص القلائل الذين كانوا على علم بهذه المقابلة وبالمقابلة الأخرى مع « كوادروس » ، استطاعوا أن يتابعوا مجرى عدة حكايات أخرى كانت كلها تتم في وقت واحد وبصورة موازية للحكاية الرئيسية ، تلك التي كانت لا تزال ، في نظر العالم ، تقديم مشروع « التحالف من أجل التقدم » .

قام غيفارا بتحليل دقيق جداً لمشروع الولايات المتحدة ، الذي عرضه رئيس وفدها « دغلاس ديلون » ، فقارن بين خطوات التقدم التي حققتها كوبا

في مدى سنتين من الثورة وبين تلك التي يتصورها المشروع لأمريكا اللاتينية ، وأعرب عن شكه في أن يتم يوماً توزيع اعتمادات المساعدة التي يعد بها ، ثم رسم الخطوط العامة للأسس التي توافق كوبا – اذا تحققت – على اعادة نظرها في موقفها من الاشتراك في المخططات الامريكية المشتركة . وقد لفت خطابه اهتمام الجميع . وبعد ساعات منه طلب مني « راوول بريبتش » [1] ، الأمين العام للجنة الاقتصادية الخاصة بأمريكا اللاتينية في الأمم المتحدة ، وأكثر الاقتصاديين صوتاً مسموعاً اذ ذاك ، أن أيسّر له مقابلة مع غيفارا . وقد تمت هذه المقابلة بالفعل .

ذلك أن غيفارا ، دون أن يتخلى عن أسلوب الحديث المتدفق الذي امتاز به الكوبيون واكتسبه منهم ، كان في خطابه بالغ الدقة ، مقتراً في النعوت ، مترفعاً عن الابتذال في نقده . وكان يسيراً على المراقب أن يدرك من بين كلماته أن كوبا كانت راغبة عن التزام أي موقف قبل أن تتم المشاورات المباشرة مع الرئيسين فرندويسي و كوادروس ، وان هافانا – من حيث المبدأ – لم تكن ضد الأخذ بنظام شامل للدول الأمريكية ، مرتكز في صيغته الجديدة الى أفكار كنيدي ، ولكن – بالطبع – شريطة أن يحترم هذا النظام الشكل الاشتراكي لحكومتها .

على أن غيفارا ، في تخوفه من أن يحمل اعتدال خطابه على محمل ضعف استثنائي في الموقف الكوبي ، ركز على مندوبي الولايات المتحدة حملة شديدة : تلا على الحاضرين وثيقة سرية تتصل بالانماء الاقتصادي في فنزويلا ، كان قد أعدها موظفان أمريكيان وكانت تكشف في أحكامها الختامية عن تشاؤم

---

(١) عالم اقتصاد أرجنتيني ظل حقبة طويلة يدير « اللجنة الاقتصادية الخاصة بأمريكا اللاتينية » ، وهو الآن واحد من « لجنة الحكماء » المكلفة بدراسة امكانيات انشاء سوق مشتركة في امريكا اللاتينية .

كبير بشأن نجاح الاجراءات المطبقة في هذا البلد . وقد شحب وجه المندوبين الأمريكيين حين تلا غيفارا هذه الوثيقة ، وأعلن « روبرت وود وورد » ، مساعد وزير الخارجية لشؤون أمريكا اللاتينية ، ان هذه لم تكن الوثيقة الأصلية وان غيفارا لم يقرأ الا ملخصاً لمقال نشرته جريدة « نيويورك تايمس » . ولمح « ديلون » نفسه إلى القضية فقال ان تلك الوثيقة ، حتى اذا صح أنها وثيقة أمريكية رسمية فعلا ، لا يمكن أن تمثل شيئاً أكثر من رأي سجله أحد صغار الموظفين . وقد ظل الحرج يلازم الوفد الامريكي حتى نهاية المؤتمر تقريباً ، حين أمكن البرهان على أن تلك الوثيقة كانت بالفعل تقريراً رسمياً أعطي للسفير « تيودورو موسكوسو » [1] ، وقد سرق من سيارته وهي على أبواب المدينة الجامعية في كرا كاس ثم أحرق الطلاب الفنزويليون هذه السيارة . وبعد شهر من هذا الحادث ، كان الجدل العنيف الذي قام على أثره في فنزويلا لا يزال حياً يثير الاضطرابات ، وان بدت هذه الاضطرابات في تلك الفترة الضئيلة الأهمية بالقياس إلى العواصف التي شهدتها الارجنتين والبرازيل .

ففي اللحظة التي كان مبعوث الرئيس فرندويسي يعود فيها الى بونس آيرس لوضع الترتيبات النهائية لتفاصيل زيارة غيفارا ، أعلن عن تمرد عسكري في الأرجنتين . كان ذلك في ١١ آب قبيل منتصف الليل ، وبعض أعضاء الوفد الكوبي على وشك أن يتناولوا طعام العشاء ، حين أخذت محطات الاذاعة الحكومية في بونس آيرس تبث موسيقى عسكرية وبياناً للمتمردين . وكنت ذلك المساء أجلس الى جانب غيفارا ، فتبادلنا نظرة ثم تركنا الغرفة على عجل.

---

(١) تسمية أرجنتينية شعبية لقطعة من اللحم المشوي فوقها بيضتان مقليتان (كأنها عدلا الخرج الذي يضعونه على ظهر الدابة) . فاذا كانت هناك بيضة واحدة سمي الطبق « بفتيك نصف حصان » . (المعرب)

وفي ذلك الحشد الكبير من الدبلوماسيين والاقتصاديين المتكدسين في مدينة « بونتا دل ايستي » الصغيرة ، كان لهذا النبأ وقع القنبلة ، فلم تغف الاعين تلك الليلة الا قليلا . ولكن ، مع الفجر ، كانت اذاعات بونس آيرس قد استأنفت براجها المعتادة : لقد فشل الانقلاب .

وكان بين المشكلات التي طرحتها زيارة غيفارا لمدينة بونس آيرس بعض قضايا تفصيلية لا بد من حلها ، بينها مسألة الأوراق الشخصية التي سيدخل بها الى البلاد : اذ كان يحمل جوازاً دبلوماسياً كوبياً ، وكان المفروض طبقاً للنظام أن يبعث به الى سفارة الارجنتين في مونتفيديو للحصول على تأشيرة دخول . ولكن هذا التطبيق للنظام كان يعني الخروج على السرية المطلقة التي كان الرئيس فرونديسي يرغب أن تحاط بها كل القضية . وقد وجد « كاريتوني » نفسه أمام هذه المشكلة في حرج شديد ، فقرر أن يذهب بنفسه الى مونتفيديو ومعه جواز « تشي » وقابل السفير الارجنتيني يرجوه منحه تأشيرة دخول تحاط بالكتمان الكلي . ولكن السفير ، وهو رجل متقدم في السن ، من بقايا الرعيل الاول في الحزب الراديكالي ، فقد أنفاسه حين عرف اسم صاحب الجواز . ثم طلب مهلة للتفكير ، وأرسل لفوره برقية بجفورة لوزير الخارجية الارجنتيني يستأذنه في منح « رئيس الوفد الكوبي » تأشيرة دخول . بهذا ، عملياً ، انتهكت حرمة السر لان قسم البرقيات الرمزية في الوزارة الارجنتينية كان بين أيدي ضباط في القوات المسلحة تابعين لجهاز المخابرات . ومنذ تلك اللحظة كان من المؤكد أن المخابرات الارجنتينية – وبالتالي موفدي وكالة المخابرات المركزية – أصبحت على علم برحلة غيفارا الى بونس آيرس . ولئن كان الامر لم يفتضح اذ ذاك على الفور ، فالمحتمل أن يكون الزعماء العسكريون قدروا أنهم سيستطيعون استغلاله ضد فرونديسي بصورة أفضل وأجدى بعد أن يكون الاجتماع قد تم .

وبينما كانت السرعة طابع الجهود المبذولة لتهيئة الحديث الذي سيتبادله

الرجلان ، كان عمل اللجان في « بونتا دل ايستي » يتباطأ بصورة ملحوظة ، وأخذت الحفلات الاجتماعية تحتل مزيداً من وقت المندوبين ، بين مآدب في الفنادق والقصور ومشويات محلية في الهواء الطلق وسهرات ليلية ترفيهية .

وقد أقام رئيس الاوروغواي « ادواردو هاييدو » حفل استقبال في قصره في المصيف الساحلي . وكان « هاييدو » رجلا سياسياً جذاباً ، ذا ماض « قومي » أعجب به غيفارا منذ اللحظة الأولى اذ كان يذكره بقدماء السياسيين الأرجنتينيين الذين عرفهم في صباه في ولاية « كوردوبا » . وسرعان ما قام بين الاثنين تيار من الألفة المتبادلةفدار الحديث بينهما مليئاً بالملح والتعليقات المبطنة.

كان غيفارا ، مثلا ، يتحدث للرئيس عن طموح كوبا لأن تصبح منتجاً كبيراً للنيكل في نهاية الخطة الخمسية الأولى . فسأله « هاييدو » :

– وأين تقع مناجم النيكل ؟ في الجنوب ، أليس كذلك ؟

– إذا شئت . ولكن واقع الأمر هو أن كوبا ليس لها جنوب .

قال غيفارا وهو يرسم في الهواء خريطة الجزيرة ، فعلق رئيس الأوروغواي في خبث :

– ولكن لها شمالاً ...

واذ ذاك رد غيفارا بنفس اللهجة الساخرة :

– ولها أيضاً شرق ...

ولقد أشار غيفارا إلى « هاييدو » ، بعد عودته إلى هافانا ، فوصفه في التلفزيون بأنه « رجل كثير الولع بالجناس والتلاعب بالألفاظ ، وانه قد تبادل معه في جو بالغ المرح كثيراً من الكلام الطيب وهما يشربان المتة » .

أما وزير خارجية الأوروغواي فكان دون ريب أقل رضى عن نكات غيفارا . كان هذا الأخير قد ذكر عدد سكان كوبا ، فسأله وزير الخارجية بلهجة واضحة القصد :

– هل يشمل هذا الرقم لديكم عدد أولئك الذين هاجروا من كوبا ؟

فأجابه غيفارا دون أي اضطراب في نبرته :

ـ لا ، هؤلاء لا نحسبهم . ولكننا ندخل في حسابنا أولئك الذين يعودون.

وأدرك الجميع أن غيفارا يشير إلى مئات المعتقلين الذين استسلموا قبل بضعة أشهر ، على أثر محاولة الغزو الفاشلة .

أما الحديث الذي ظل بعيداً عن العلنية وعن التراشق بالغمزات اللفظية فذلك الذي دار ، في منزل متمول برازيلي يدعى « سيلفا » ، بين غيفارا و « ريتشارد غودوين » ، مستشار كنيدي الخاص لشؤون أمريكا اللاتينية . ولقد بذلت فيما بعد ، في كوبا والولايات المتحدة على السواء . جهود للتقليل من أهمية هذا اللقاء ، ولكن واقع الأمر أن « غودوين » كان هو نفسه الرجل الذي كلفه كنيدي بتمثيله في اجتماعات « المجلس الثوري الكوبي في المنفى » ، وهو الذي نظم عملية الغزو الفاشلة . وكان يمكن اعتباره الرجل الأكثر معرفة بشؤون كوبا . وبالتالي فان حديثه مع غيفارا ، برغم قصوره على الصعيد اللغوي وخروجه عن المألوف من وجهة النظر الدبلوماسية ، كان ذا أهمية استثنائية : لقد حوّل ظنون غيفارا إلى يقين بأن مقابلتيه مع فرونديسي وكوادروس انما تجريان بموافقة كنيدي نفسه ، وان هذه اللعبة كانت قد خططت بحيث تجعل كل المشتركين فيها يتبادلون الدعم بعضهم لبعض . كانت دعوة كوادروس ومقابلة غودوين « تغطيان » فرونديسي ، وكان اللقاءان مع فرونديسي وغودوين « يغطيان » كوادروس ، ثم يكون في وسع كنيدي أن يستغل سابقة استقبال رئيسي الأرجنتين والبرازيل لغيفارا اذا ما طلب مجلس الشيوخ الأمريكي حساباً عن أسباب الاتصالات بين غودوين و « تشي » .

على أنه كان من شروط نجاح هذه اللعبة أن يسهر الجميع على ما تستند اليه من توازن قلق ، فلا يخل به أي تسارع في الأحداث غير متوقع . فلو تحطم هذا التوازن لأحاقت الأخطار البالغة بكل ممثلي المسرحية ، باستثناء غيفارا طبعاً .

في ١٨ آب ١٩٦١ ركب غيفارا الى بونس آيرس طائرة صغيرة وضعتها تحت تصرفه الحكومة الأرجنتينية ، يرافقه الكوبي « آخا كاسترو » والمفاوض

الأرجنتيني « كاريتوني » ، بالاضافة إلى ملاح الطائرة .

وفي بونس آيرس كان في انتظاره حرس ضئيل تحت امرة رئيس الغرفة العسكرية للرئيس فروندبسي ، وهو برتبة « كولونيل » في الجيش العامل ، وجد نفسه مكلفاً بمهمة سرية هي مهمة استقبال ضيف كبير في مطار « دون تور كواتو » الصغير ، على ثلاثين كيلو متراً من العاصمة ، ولكنه كان لا يدري أي شيء عن هوية الضيف القادم . فكانت مفاجأته بالغة حين رأى الباب الصغير الكائن في أسفل الطائرة ينفتح فيقفز منه الى الأرض رجل ذو لحية ، في زي عسكري أخضر فوقه رداء مفتوح ، وعلى رأسه عمرة تلتمع فوقها نجمة . ولكن ذهوله كان أبلغ حين عرف أنه أمام « تشي » ، فانعقد لسانه ، ورفع عمرته مرتين ، ومد للضيف قفازه بدلاً من يده ، في حركات مضطربة لا ارادية . وأدرك « تشي » على الفور حرج موقف « الكولونيل » فمد اليه يده بصورة طبيعية وهو يقول :

– أنا القومندان غيفارا ، يا كولونيل . هذه سيارتك ، أليس كذلك ؟

وكان الرئيس فروندبسي ينتظر وصول « غيفارا » ببالغ الجزع في مقر سكنه الرسمي في « أوليفوس » ، الضاحية التي تبعد دقائق قليلة عن قلب العاصمة . وقد عاش طوال الفترة التي قضاها غيفارا على أرض الارجنتين يخشى أن تدبر مخابرات الجيش مؤامرة لقتله . ولكنه لم يكشف عن خوفه أمام أحد، حتى أقرب معاونيه وأفراد أسرته .

وتبادل غيفارا وفروندبسي الأحاديث في خلوتهما مدى ساعة وعشرين دقيقة . فكانت قضايا التنمية في أمريكا اللاتينية ، هذه القضايا القديمة الدائمة التجدد ، أول ما عرضا له . قال فروندبسي :

– لقد اختارت الأرجنتين طريق الاستقلال التدريجي . ونحن نعتزم الآن رأب الشرخ الذي تحدثه في اقتصادنا مستورداتنا من البترول ، التي تستنزف سنوياً مئتي مليون دولار .

فأجاب غيفارا :

– هذا أيضاً أحد أهداف كوبا ، ولكن تجربتنا السابقة علمتنا أن علينا الكف عن الاستنجاد باستثمارات رؤوس الأموال الأمريكية . ففي هذا المجال كانت تجربتنا سلبية ، ولعلك راغب بمعرفتها ، اذ أن كوبا كانت واحداً من البلدان التي استثمر فيها رأس المال الأمريكي أعلى الأرقام . لقد كان مبلغ رؤوس الأموال دائماً دون ذلك الذي يسجلونه في حساباتهم ، بحيث كانت اعادة تصدير الأرباح تجري على أساس رأس مال « منفوخ » . كانوا يستخدمون القروض الداخلية ، ويطالبون باحتكار السوق ، ويحملون معهم إلى خارج البلاد أكثر مما أتوا به .

ولئن كان كلا الرجلين بالغ الاهتمام بالمشكلات الاقتصادية ، فهي لم تكن تؤلف الغاية الرئيسية من هذا اللقاء ، التي عرضها فرونديسي على الصورة الدقيقة التالية :

– ان امريكا لا يمكن أن تقبل بدخول كوبا أو أية دولة أخرى من دولنا في منظمة عسكرية خارجة عن حدود القارة . وفي ما يتصل بكوبا ، يتخوف الكثيرون من أن تكون موشكة على الانضمام إلى حلف فرصوفيا . فاذا قامت كوبا بهذه الخطوة فان عودتها إلى أسرة البلدان الأمريكية ستغدو مستحيلة .

وكان جواب غيفارا :

– هذا افتراض لم يخطر لنا نحن من تلقاء أنفسنا ، بل أملاه علينا المعتدون على بلادنا . وصحيح أننا نعتمد على المساعدة العسكرية التي يقدمها الينا الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الأخرى . أما التحالف العسكري بالمعنى الدقيق ، المنظم بمعاهدة ، فلا هم يطلبون الارتباط به ولا نحن نريد دخوله . ولكن الولايات المتحدة هي التي تعجز عن أن تتصور أن يقوم بلد بتقديم المساعدة العسكرية لبلد آخر دون أن يوثقه بكل الحبال الممكنة .

كذلك طرح الرئيس الأرجنتيني أسئلة حول احتمالات عودة كوبا ، في تدرج بطيء ، إلى النظام التمثيلي على طريقة امريكا الشمالية ، بما تفترضه من هيئات للناخبين ومجالس برلمانية ، فأنكر غيفارا احتمال انتهاج مثل هذا الطريق

في المستقبل ، لأن أسس التمثيل السياسي أصبحت في كوبا قائمة على مبادىء مختلفة . وأضاف :

– في كوبا ، يخشى من أية محاولة في هذا الاتجاه أن تعود الى اغراق البلاد في الجدل المؤذي بين الأحزاب . ففي كوبا كانت تتكاثر الأحزاب والقوى الضاغطة التي كانت تبتلي بالعقم أفضل جهود أبنائها . ونحن منذ سنتين نكافح داخل الحكم لاستبعاد هذه الصورة من العمل السياسي نهائياً . ولن نعود إلى وراء بأية ذريعة .

وتناول الرجلان بكثير من الكلف نقاش مشكلات أمريكا اللاتينية الكبرى ، وحاضر كوبا والأرجنتين ومستقبلها . ولكن ، بينما كانا يتحادثان ، كان نبأ وجود غيفارا قد بدأ ينتشر سريعاً في الوزارات ومكاتب القيادات العسكرية ووكالات الأنباء والسفارات :

– « تشي » هنا !

وحين خرجا من قاعة الاجتماع ، كانت هناك زوجة الرئيس فرونديسي وابنته الوحيدة تحييان غيفارا وترحبان به . وكان الوقت ظهراً ، فسألته السيدة فرونديسي :

– ما رأيك بقطعة من « البفتيك » ؟

فأجاب في مرح :

– بكل سرور !

ثم تذكر عادة الارجنتينيين تقديم اللحم المشوي ومعه البطاطس والبيض المقلي ، فأضاف :

– فكرة ممتازة : قطعة « بفتيك على الحصان [١] » !

---

(١) تسمية أرجنتينية شعبية لقطعة من اللحم المشوي فوقها بيضتان مقليتان (كأنها عدلا الخرج الذي يضعونه على ظهر الدابة) . فاذا كانت هناك بيضة واحدة سمي الطبق « بفتيك نصف حصان » . (المعرب)

وكان هذا آخر ما تناوله غيفارا في حياته من طعام في بونس آيرس : قطعة من اللحم على مائدة الأسرة في منزل رئيس اصلاحي .

وبعد ذلك ، طلب غيفارا من فرونديسي أن يسديه معروفاً : أن يأذن له بزيارة عمة له كانت مشرفة على الموت . وبالرغم من ان الاتفاق كان ينص على أن يغادر غيفارا العاصمة بمجرد انتهاء المقابلة ، وافق فرونديسي على طلبه ، وذهب « تشي » في سيارة يجوب شوارع المدينة التي غادرها قبل ثماني سنوات !
— « تشي » هنا !

خلال ذلك ، كان الهياج الذي أحدثه هذا النبأ في تعاظم . وعند الظهيرة ، كان « آدولفو موخيكا » ، وزير خارجية الارجنتين ، يعترف رسمياً بأن غيفارا قابل الرئيس . وقال انه هو نفسه قد « صعقه » هذا النبأ كما صعق البلاد . ثم لم تنقضِ ساعات حتى قدم استقالته . ولم تكن هذه الاستقالة اعراباً عن احتجاج بقدر ما كانت حفاظاً على مستقبله ، اذ انه كان بين أوائل الذين عرفوا بترتيبات هذه المقابلة .

ولكن غيفارا كان قد أصبح في طريقه إلى « مونتفيديو » ، التي لم يلبث أن غادرها بعد قليل من الوقت إلى برازيليا .

وفي برازيليا كانت المقابلة أقصر منها في بونس آيرس ، ولكن نتائجها كانت أحفل بالعواصف . ففي ١٩ آب ، قام الرئيس « جانيو كوادروس » بتقليد غيفارا وسام « الكروزيرو دوسول » ، في حفلة مرتجلة في قصر « بلانالطو » ، في برازيليا . وكان غيفارا حتى الدقيقة الأخيرة لا يعلم كيف سيدور لقاؤه مع كوادروس ، ويجهل أنه سيتلقى وساماً ، وعلى وجه الخصوص كان يجهل أن المقابلة ستكون ذات طابع رسمي . وكان كوادروس قد أدلى بتصريح موجه إلى الاتحاد السوفياتي يطلب فيه معونته لتنمية البرازيل ، مشيراً إلى قصور المساعدة الغربية . وحين تمت مراسيم تقليد الوسام وجد غيفارا نفسه يفتقد كلمات الشكر الملائمة ؛ ولكن خطاب كوادروس في هذه المناسبة كان

مبالغاً في القصر ، فقرر غيفارا أن يفعل مثله ، وقال انه يقبل هـذا التكريم باسم الحكومة الثورية والشعب الكوبي ، نافياً عنه بذلك أي مغزى شخصي .

ثم دار الحديث بين غيفارا و كوادروس حول نفس المواضيع التي أثارهـا فروندیسي : احتمال الانضمام إلى ميثاق فرصوفيا ، والاشارة إلى الديمقراطيـة التمثيلية و كون باب المنظمة الأمريكية مفتوحاً أمام كوبا ...

هذا بينا كانت الجماهـير ، في ريو ده جانيرو وسان باولو ، تتدافـع في الشوارع رافعة صوراً كبيرة لـ « تشي » ، وأعلاماً كوبية ، في هياج يماثل الهياج الذي شهدته الأرجنتين ، مع فارق وحيد هو أن كوادروس كان بعـد أسبوع واحد يستقيل تحت تهديدات اليمين ، في جو غامض كله مرارة وهزيمة .

أما في واشنطن فكان جون كنيدي ، الشريك الثالث غير المنظور في جولة غيفارا ، يتلقى هو الآخر هجمات خصومه . وكان الكوبيون المنفيون ، الذين أحفظهم على كنيدي أنه رفض ضرب بلدهم بالقنابل ، هم البادئون باثارة الحملة . أما أعضاء مجلس الشيوخ فلم يتورعوا عن التآمر لوضع الرئيس في موقف حرج .

هكذا كان هنالك رئيس ، هو كوادروس، لم يستطع الاستمرار في السلطة بعد زيارة « تشي » فاستقال بعد أسبوع . ورئيس آخر ، هو فرونديسي ، لم يستطع الصمود إلا سبعة أشهر أمام الحملات المتنوعة الموجهة ضـده في أعقاب تلك المقابلة المشهورة . أما الرئيس الثالث ، كنيدي ، الذي لعب دوراً غامضاً فهاجم عسكرياً بلداً صغيراً ثم حاول اصلاح علاقاته مع هذا البـلد على الصعيد الدبلوماسي ، فقد قتل بعد عامين ، ضحية لمكيدة غامضة كان للعلاقات مـع كوبا دور فيها بالغ الأهمية .

وبقي غيفارا ، الذي قال لي ذات يوم :

– أما أنا ، فعلى أية حال لن أموت على فراشي .

كان ذلك في مونتفيديو ، حين أطلق ارهابيون النار على الحاضرين في اجتماع جماهيري نظمه طلاب الجامعة في نهايـة مؤتمر « بونتا دل ايستي » . ولم يعرف

قط فيما بعد هل كان قصدهم ان يقتلوا « تشي »، ولكنهم قتلوا أستاذاً وجرحوا آخرين عدة .

ولكن غيفارا كان اذ ذاك يحتفظ في جسده بالعديد من الرصاصات ومن الجروح التي خلفتها المعارك ، بحيث كانت طلقات النار تدوي من حوله فلا يهتز لها ولا يفقد هدوءه .

كان يحتفظ ، من معركة « غرانما » بذكريين : الأولى رصاصة أصابته في أسفل أذنه اليسرى ، قريباً من النقرة ، ثم انحرفت فاجتازت الكتف وخرجت من جانب مشطه . والثانية رصاصة جرحته في صدره ولكنها كانت فيما يبدو ضئيلة القوة حين بلغته . وقد قال لي بشأن هذا الجرح :

– قرأت في مكان ما أن تلك الرصاصة ارتدت عني حين اصطدمت بمدالية دينية كنت أحملها مربوطة إلى سلسلة ، مع أني لم أحمل في حياتي أية مدالية من أي نوع . أما الحقيقة ، فهي أن الرصاصة ارتطمت بغلاف بطاقتي الشخصية الأرجنتينية ، التي كنت أحملها في جيب قميصي : بطاقة كانت قد أعطتني إياها دائرة الشرطة في ولاية « كوردوبا » يوم كنت لا ازال في المدرسة الثانوية ، وكان لها غلاف سميك من « الكرتون » المغلي المضغوط . في ذلك اليوم ، حقاً ، انقذ حياتي أنني أرجنتيني .

كذلك كان يحتفظ بجرح في قدمه ، من رصاصة أصابته خلال معركة دارت قريباً من « سييرا مايسترا » في كانون الأول ١٩٥٧ .

وأخيراً كان هناك جرح جديد ، عارض هذه المرة ، أصيب به خلال عملية النزول الى البر في « خليج الخنازير » [١] :

---

(١) معركة « خليج الخنازير » وقعت يوم ١٧ نيسان ١٩٦١ : كانت قوى اللاجئين الكوبيين المدربة في غواتيمالا ونيكاراغوا وفلوريدا ، بقيادة « ميرو كاردونا » واغراء وكالة =

– كنت في كوخ قريباً من الشاطىء ، أنتظر أن يبـدأ هؤلاء بالنزول من مراكبهم . وفجأة ، انطلقت رصاصة وامتلأ فمي بالدم . وصحت : « اقبضوا عليه ! » ، ظاناً أن هناك من يهاجمنا من الخارج . ولكن لا . كان مسدسي انا ، وهو محشو ، قد سقط إلى الأرض مع الحزام المزدوج الذي تعودت حمله فضفاضاً شبه سائب . فلما اصطدم بالأرض انطلقت رصاصته فأصابتني في خدي ، ولو أنهـا انحرفت « سنتمتراً » واحداً لاقتلعت دماغي من جذوره .

كان هذا الرجل الذي عركته شدائد الحرب هو المكلف الآن بأكثر العمليات الدبلوماسية التي شهدتها السنوات الأخـيرة تعقيـداً ووعورة . وكان الفكر والمنف لايزالان يتقاسمان حياة ارنستو غيفارا .

= المخابرات المركزية الأمريكية ، قد حاولت النزول الى البر الكوبي بعد أن أمطرت بالقنابل القواعد الكوبية المجاورة لهافانا من طائرتين أمريكيتين يقودهما كوبيون منفيون . وكانت وكالة المخابرات الأمريكية تأمل – نتيجة لسوء تقديراتها – أن يؤدي نبأ هذا النزول الى انتفاض الشعب الكوبي على نظام كاسترو . وكان المهاجمون حوالي ألف وخمسمائة ، فأسر المدافعون ألفاً ومائتين منهم ، يقال ان كاسترو اقترح المبادلة عليهم لقاء خمسمائة جرار أمريكي .

٣

إشتراكية لأمريكا اللاتينية

أطل العام ١٩٦٣ والأوضاع في أمريكا اللاتينية بالغة الاضطراب . كان الفلاحون يقاتلون في « وادي العهد » ، الذي كان « الإينكا » يسمونه « كوسكو » ، تحت إمرة زعيم كان أول من نظم نقابات الفلاحين في البيرو : « هوغو بلانكو » ، طالب الزراعة ، الذي أتم دراساته الجامعية في الأرجنتين. وكان هذا الزعيم يستغل إلى اقصى الحدود مجموعة من الظروف التي تشبه إلى حد ما ظروف كوبا أيام ثورة كاسترو . فالحكومة العسكرية كانت تواجه معارضة البورجوازية ، والطلاب الذين يقاتلون في الشوارع ، والفلاحين الذين كان لا ينقصهم الا التنظيم والقيادة السياسية .

وفي البرازيل كانت روابط الفلاحين تنظم صفوفها مستغلة تسامح الرئيس « جوان غولار »[1] ، هذا الزعيم « القومي » الذي كان يتزايد يوماً بعد يوم

---

(١) زعيم حزب العمال البرازيلي ، الذي انتخب نائباً للرئيس يوم انتخب « كوادروس » رئيساً . وكان في زيارة رسمية للصين الشعبية ، في ايلول ١٩٦١ ، حين اضطر للعودة سريعاً =

اعتماداً على عناصر اليسار في النقابات وعلى المثقفين .

وفي فنزويلا كان الحزب الشيوعي بجهازه القوي قد بدأ يخوض بكل قواه المعركة ضد حكومة الرئيس « رومولو بيتانكور » يؤيده كل الساخطين من كل فئة ، وكلهم في الظاهر مستعدون — من أجل الكفاح — للاتحـــاد في جبهة واحدة عقائدية وعسكرية .

وكانت الأرجنتين أيضاً تبـــدو على حافة الحرب الأهلية . كان الرئيس المعزول ، فرونديسي ، سجين القوى المسلحة في جزيرة « مارتين غارسيا » في وسط نهر « ريو ده لا بلاتا » وكانت مئات من المعامل قد أغلقت أبوابها لأنها لا تجد ما تعمله ، وألوف الصناعات تعمل في بطء ، واكثر من ٦٠٠ الف عاطل عن العمل يجوبون عبثاً مدن الأرجنتين وقراها بحثاً عن مورد يعيشون منه. أما في القوات المسلحة فكان حادث هام قد خلق وضعاً جديداً كل الجدة : فقد أخذت تنشأ « لجان الرقباء » في سلاح الطيران و « الخلايا » في البحرية . وكان ضباط الطيران قد نظموا مؤامرات انقلابية عديدة ، احداها أخفقت بسبب معارضة الرقباء المسلحة ، اذ أن هؤلاء اعتقلوا ضباطهـم . وعلى بواخر الأسطول كانت توزع مناشير تدعو البحارة إلى اعلان العصيان اذا صدرت الأوامر اليهم بالاتجاه نحو منطقة « الكاريبي » ،بعد أن خلقت أزمة تشرين الأول ١٩٦٢ احتمال تدخل مسلح متعدد الأطراف ضد كوبا . وإكمالاً لهذه اللوحة ، كانت هناك جماهير من العاطلين الذين يتجمعون كل يوم في أنحاء مختلفة من البلاد ، وقد أخذوا يطالبون بالسلاح . كما كانت هناك ، على الأقـــل ، أربعة مشاريـع لانقلابات عسكرية

= لخلافة الرئيس المستقيل . على أنه كان لا يتمتع بثقة العسكريين،فاضطر الى الموافقة على تسوية كانت نتيجتها تحويل النظام الرئاسي الى نظام برلماني ، وهو نظام لا حاز رضى الشعب ولا ملك القدرة على العمل ، بحيث استطاع غولار في العام التالي أن يستند إلى تأييد الجماهير ليعيد العمل بالنظام السابق . ولكنه حين أراد تطبيق الاصلاح الزراعي واجه معارضة « الكونغرس » ، وأسقطه العسكريون في آذار ١٩٦٤ . وهو الآن منفي في الأوروغواي .

تحاك المؤامرات لها . والحكومة الـتي أعقبت حكومة فرونديسي قد ضاقت بها السبل .

في تلك الأثناء أبلغت أن غيفارا بحاجة إلى رؤيتي على وجـــه السرعة ، وسلمني حامل الرسالة بطاقة سفر إلى هافانا . كان عليّ أن أسافر على الفــور ، وذلك ما فعلته .

كانت عزلة كوبا — ولا أعني هنا واقعها الجغرافي — حقيقة يستشعرها كل من أراد الذهاب إلى هافانا من أحد بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى . فطريقي إلى هافانا كان يمر عبر « براغ » في تشيكوسلوفاكيا ، و « شانون » في ايرلندا ، ثم « اوكسفورد » في كندا . ثم طرأ عطل آلي على الطائرة أعطاني فكرة أوضح عن الشروط الرهيبة التي فرضها الحصار الأمريكي على الجزيرة : فلقد احتاجت طائرة الشركة الكوبية إلى قطعة تبديل ، بعد أن تعطل فيها جهـــاز لإزالة الجليد عن الأجنحة كان لا معدى عنه فيما وراء دائرة القطب الشمالي، فاضطررنا على غير توقعنا إلى الهبوط في « غاندير » (في الأرض الجديــدة) ، حيث تقوم قاعدة امريكية ضخمة ، غير مستعملة إلا جزئياً ، كانت خلال الحرب العالميــة الثانية تؤدي الخدمات لقاذفات القنابل الذاهبة إلى سماء القارة الأوروبيــة . وكانت مستودعات القاعدة ملأى بقطع تبديل من النوع الذي كنا في حاجة إلى واحدة منه ، ولكن السلطات رفضت تزويدنا بهـا ، بحيث اضطرت الطائرة الكوبية إلى قضاء أسبوع في هذه المفازة من الأرض الجديدة ، ودرجة الحرارة ٢٥ تحت الصفر ، بانتظار أن تعود طائرة كندية حاملة معها القطعة الضرورية .

وكانت صورة الحصار تكتمل حين ينزل المرء ، أخيراً ، في مطار هافانا ، فيزيد عليها صورة بلد في حالة الحرب . كانت تستقبلك لوحـات ضخمة كتب عليها : « الوطن أو الموت » أو : « إلى السلاح ! » ، شاهدة على ذلك الفصل المأساوي من حكاية الصواريخ ، الذي كانت بدا كنيدي وخروتشيف تقبضان خلاله لا على مصير كوبا وحدها بل على مصير العالم كله ، هذا العـالم الذي ظل

بضعة أيام على حافة الحرب النووية . ولقد جاء وصولي بعد انقضاء أكثر من شهرين على الأزمة ، وقد تراخى التوتر بعض الشيء ، ومع ذلك غير عسير على المرء أن يتصور المدى الذي بلغه هذا التوتر في تشرين الأول .

في المطار ، استقبلني موظف حكومي باسم غيفارا ، وأبلغني أني سأقيم في حي « كوبانا كان »، التسمية الجديدة لحي « كاونتري » الارستقراطي الذي كان أغنياء الجزيرة في الماضي قد شادوا فيه قصورهم الباذخة. وفي تلك اللحظة الأولى لم أفهم غرض هذه الدعوة ، ولكن غيفارا نفسه شرحه لي بعد بضع ساعات . قال لي وهو يضحك :

– أنت مصادر ، يا صاحبي . أنت تحت إمرتي . ولكن لا تخش شيئاً : فأنا لم آتِ بك إلا لنتناقش .

وهذا ما حدث بالفعل : نقاش طويل بالغ التدقيق حول الوضع في أمريكا اللاتينية بصورة عامة وفي الأرجنتين على وجه خاص ، دام من ٢ شباط إلى ١٠ نيسان ١٩٦٣ ، وكان علي فيه أن أتدارس مع غيفارا قضايا الثورة اللاتينية الأمريكية ، وحاضر كوبا ومستقبلها ، وحق المصير الذي ينتويه شخصياً لنفسه .

كان غيفارا على يقين من أن العالم الرأسمالي لن ينقاد بعد اليوم انقياد الأعمى لوصاية الولايات المتحدة ، وكان من رأيه أن على كوبا أن تستغل هذا الوضع الجديد . وكان لا يؤمن بأن من الممكن أن يعمد الرئيس كنيدي إلى اجراءات ثأرية تجاه فرنسا ، وان وجد في الولايات المتحدة من يحرضه على ذلك ، كما لا يؤمن بأن الاتحاد السوفياتي يعتزم فرض العقوبات على الصين . إلا أن هذا النزاع بين الدولتين الاشتراكيتين كان أدنى كثيراً إلى التأثير عليه لأنه يعرض للخطر وجود الأممية البروليتارية ذاته . وهكذا ، في اللحظة التي كانت تتفتت فيها أحلاف ما بعد الحرب ، كانت كوبا تجد فرصاً جديدة لتوكيد استقلالها ، ولكنها في الوقت ذاته كانت أمام دواعٍ جديدة تنذرها بتفاقم عزلتها . ولقد كانت الدنيا

تسودّ في عيني غيفارا وهو يرى كوبا عضواً في أسرة ممزقة الأوصال ، تفرقها نزاعات لا سبيل إلى اخفائها عن الأعين ، وتعود إلى الظهور فيها نفس أسباب الشقاق والخصومات التي تعاني منها البلدان الرأسمالية .

من هذا التحليل كان غيفارا ينتهي إلى استخلاص نتيجة أولى : لقد أصبح واجباً ملحاً على كوبا أن تخلق لنفسها روابط جديدة مع أمريكا اللاتينية . ولكن مثل هذه الروابط أصبح يستحيل قيامها بعد اليوم على أساس علاقات بين بلدان ذات أنظمة سياسية مختلفة . أصبح طريقها الأوحد ينطلق من ثورات اشتراكية في هذه البلدان .

وفي عام ١٩٦٣ وضع غيفارا نصب عينيه مجابهة هذا الواقع الأمريكي ، وهو موطد العزم على تحقيق نتائج إيجابية : فاذا كانت أمريكا اللاتينية الرأسمالية ترفض التعايش مع كوبا الاشتراكية ، فان كوبا ستحمل على عاتقها مساعدة جميع الثوريين على قلب الأنظمة الرأسمالية في بلادهم .

في خلال هذه الزيارة ، دار حديثي الأول مع غيفارا حول قرار خروتشيف بسحب الصواريخ السوفياتية في تشرين الأول ١٩٦٢ . كانت الصواريخ قد وصلت إلى الجزيرة في مطلع الشهر نفسه ، على أثر اقتراح سوفياتي بتأمين حماية كوبا عسكرياً . وكانت قد أنشئت ، في منطقة غابات قريبة من « سان كريستوبال » ، قواعد للاطلاق كان في وسعها أن تصبح في وقت قصير قادرة على اطلاق صواريخ متوسطة المدى تسقط فوق واشنطن . ولكن خروتشيف ، في ٢٨ تشرين الأول ، وافق على سحب هذه الصواريخ ، منحنياً أمام مذكرة احتجاج أمريكية حافلة بالتهديد . وبعد اثنتين وسبعين ساعة كانت الصواريخ الاثنان والأربعون قد أعيدت إلى قعر السفن التي حملتها من قبل إلى كوبا . تلك حكاية الأزمة التي قادت العالم كله إلى حافة الحرب النووية .

قال لي « تشي » وهو يروي القصة :

– حين علم « فيدل » بالنبأ ، رفض تصديقه . كان أول من أبلغه اياه أحد الصحفيين الأجانب ، جاء يسأله تأييداً له ! وكان هذا الصحفي في الحقيقة قد علم من وكالته مسبقاً بأمر البيان الرسمي السوفياتي الذي سيلعن فيه سحب الصواريخ . وبعد دقائق عاد هذا الصحفي نفسه فتلا على « فيدل » ، في الهاتف ، النص الكامل للبرقية التي وصلته . وهكذا لم يعد هناك سبيل إلى الشك : لقد اتخذ الروس قراراً يتعلق بشكلة كوبية دون أن يستشيرونا ... وأطلق « فيدل » شتيمة ، وأطلقت أخرى ... ثم رأيته فجأة ، تخففاً من الضيق الذي جثم على صدره ، يستدير بمقعده ويركل الجدار ركلة عنيفة بقدمه . وكانت في هذا الموضع مرآة ضخمة فكسرتها الضربة وتساقط نثار زجاجها في جلبة بالغة . ثم مكثنا صامتين لحظة ، عاودنا بعدها الهدوء فبدأنا في دراسة الوضع .

أما تفسيري أنا للموقف السوفياتي فكان قريباً إلى حد بعيد من تفسير الروس أنفسهم ، ولكني كنت برغم ذلك لا أشاركهم وجهة نظرهم ... لقد كان رأيي ان قضية الصواريخ انما خلقها السوفياتيون بصورة مصطنعة ليستطيعوا تحويل خلافهم مع كنيدي بشأن مستقبل كوبا إلى خلاف بشأن هذه الصواريخ . فلو أنهم لم يصطنعوا أزمة الصواريخ هذه لظل الخلاف بالضرورة دائراً حول أساس المشكلة ، أي حول بقاء نظام كاسترو أو عدم بقائه . والسوفياتيون ، بهذه الطريقة ، أتاحوا لكنيدي انتصاراً دبلوماسياً ، ولكن دون أن يعني هذا الانتصار زوال الاشتراكية الكوبية .

وحين ذكرت لغيفارا هذا التفسير ، أجاب مدمدماً :

– هذا ممكن ، ولكنه ليس بالأمر الهام . الأمر الهام هو أن نعرف هل سيكون على كوبا الآن أن تتنازل عن سيادتها للروس . أتراهم لا يفهمون أن هذا البلد قد عانى من أنواع وصاية الدول الكبرى ما يجعله الآن يرفض الاغضاء في صمت على وصاية جديدة من هذا النوع ؟ كيف أستطيع أن أشرح لك

فكرتي ؟ انها قضية فلسفة ، قضية جوهر . فاذا لم تحترم الخصائص الوطنية في اطار الأممية الاشتراكية فلن تجدي الاشتراكية شيئاً ، وستظل بلداننا تشعر أنها لا تزال بلدانا صغيرة في نظر بلدان كبيرة ، أكثر أهمية لديها ان تكون كبيرة من أن تكون اشتراكية .

ومن المحتمل أن غيفارا كان لا يزال ، كما كان قبل سنتين ، يعتقد أن السوفياتيين لن يبيعوا كوبا في صفقة مبادلة على هذا أو ذاك من المواقع الاستراتيجية الأخرى في العالم . ولكنه كان يشفق من أن تصبح الحماية السوفياتية لكوبا حائلاً دون نمو شخصيتها الوطنية المستقلة . بهذا المعنى يجب تفسير أقواله في هذا النقاش ؛ وبه أيضاً يجب تفسير موقف الكوبيين فيما بعد ، حين رفضوا خلال العام ذاته الانضمام إلى ميثاق عدم انتشار الأسلحة الذرية ، الذي صاغه الروس ، ثم كانوا بعد ذلك حازمين في مناقشة شروط المعونة التي منحهم اياها السوفياتيون تعويضاً عن الأضرار التي أصابهم بها اعصار كان بالغ الأذى [1] .

هذا الكفاح من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية كان يتجلى أيضاً في تصرفات يومية أكثر بساطة . التبغ ، مثلاً ، ألغيت أسماء أصنافه القديمة — وهي أمريكية بصورة عامة — وحلت محلها أسماء كوبية بحتة . وامتلأت الأسواق بسجائر كوبية ذات أسماء محلية ، بديلاً من السجاير الأمريكية . وأفلام قطاع الطريق ورعاة البقر نامت في مستودعات محطات التلفزيون . وتوقفت أمواج الدعاية التجارية عن غزوها للجمهور الكوبي بعد أن كانت اعلانات « النيون » في هافانا تنافس مثيلاتها في نيويورك أو ميامي . وبعد أن هيمن ملكوت اللغة

---

(١) يشير المؤلف الى اعصار « فلورا » الذي دام من ٦ الى ١٠ تشرين الأول ١٩٦٣ وأنزل بكوبا الكثير من الخراب . (المعرب)

الانكليزية دهراً طويلاً على التجارة وعلى كل الاقتصاد الاستهلاكي ، أصبحت للاسبانية الصدارة في التسميات التجارية وفي عناوين المتاجر .

كان هذا ، إذا صح القول ، حصاراً من الداخل،هو رد على الحصار الخارجي الذي كان عام ١٩٦٣ قد أصبح شديد الفعالية وان لم يصبح شاملاً في أية لحظة . ففي شوارع هافانا كانت العربات تسير نصف محطمة ، نصف مدهونة ، مغطاة بالرقع ومواضع اللحام . وفي سيارات النقل المشترك كانت الأبواب لا تنغلق ، وتئز بمفصلاتها اذا انفتحت ، وكانت المحركات متهالكة تجاوزت سن التقاعد وافتقرت إلى قطع التبديل . وفي الحقول كانت مئات من الجرارات قد توقفت لاستحالة اصلاحها ، فأصبحت مخازن توريد ينتزع منها « الميكانيكيون » ما يحتاجون اليه من القطع لاصلاح وسائل النقل الأخرى .

وأسباب هذا الوضع لم تكن متمايزة ، بل كانت على العكس تتبادل التأثير بعضها في بعض . وكان الحصار أكثرها أهمية ، مع نتيجته المعتادة : ذعر خيرة الفنيين ، الذين يحاولون المهاجرة ويستطيعونها بصورة عامة .

على أن أزمة الانتاج وفوضى العمل كانتا تعودان بصورة رئيسية إلى افتقاد الخبرة لدى المديرين الذين عينتهم الثورة . وكان غيفارا يقول لي ، وكأنه يفكر بصوت مرتفع :

— من أجل تنشيط الصناعة الكوبية ، يجب أن ننتج مواد للبناء : اسمنتاً ، وآجراً ، وزجاجاً . وعندنا الآن فرنان كبيران معطلان لأننا لم نستطع توفير القرميد المقاوم للحرارة في الوقت المناسب . اننا دائماً في اضطرار إلى الارتجال. بعض معامل الغزل ، مثلاً ، توقفت عن العمل لأن ما عندها من خيوط متفاوت الأصناف والجودة . وفي صناعة الأحذية لانزال نتخبط بحثاً عن حل للمشكلة العويصة التي نشأت ذات يوم قرر فيه أحد الموظفين اغلاق الورشات الصغيرة قبل أن تصبح المصانع الكبيرة مهيأة للعمل ...

لقد كان غيفارا ، منذ أصبح وزيراً للصناعة ، يستخدم كل مخيلته وكل

حيويته ليحل المشكلات المتنوعة التي كانت تعيق حركة النظام الصناعي الكوبي. وكان شديد التطلب عسير الحساب تجاه الجميع ؛ ولكن أحداً لم يكن يشكو لأنه لم يكن أقل تسامحاً مع نفسه . ومع ذلك ، لو طلب مني أن أعطي رأيي بشأن وضع غيفارا الفكري خلال تلك الأشهر التي عشناها معاً ، لذهب بي الأمر إلى حد التأكيد بأن ذلك الكفاح كان يسمم تفاؤله ويشيع الكدر في تفكيره ، ويجعله أسير الاحصاءات وطرائق الانتاج وما تقتضيه من نقاش ضروري ولكن مرهق للاعصاب. وكان التفكير بأنه لا يزال محتملاً أن تتعرض كوبا لهجوم مسلح من قبل الولايات المتحدة (وهو تفكير ظهر في ذروة قوته أيام أزمة الصواريخ) يقيم صلة متينة بين غيفارا المحارب وغيفارا وزير الصناعة. ولكنه منذ ١٩٦٣ بدأ يدرك أن استقرار النظام الكوبي يقوم إلى مدى بعيد على توازن عالمي للقوى ، وهو توازن لا تستطيع كوبا أن تغير شيئاً منه دون مجازفة بالانتحار .

ولم يكن الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقة . أدركها أيضاً المنفيون الكوبيون ، تلك الكتلة المهزومة العاملة للانتقام ، والتي كانت – بسبب افتقارها إلى التربية السياسية – تؤلف استثناءاً حقيقياً بين جماعات المنفيين في كل العصور . فمنذ ١٩١٧ عرف النبلاء الروس كيف يتأقلمون مع حياة المدن الأوربية الكبرى ؛ وفي الطرف الآخر من السلم الاجتماعي ، شارك الاسبانيون الجمهوريون في دفع عجلة الصناعة في أوربا وأمريكا . أولئك وهؤلاء ، مع البورجوازية ومع الشعب ، استطاعوا جميعاً أن يجدوا مكاناً لأنفسهم . أما الخليط المتنافر من الكوبيين المنفيين في الولايات المتحدة فكان يبدو مقدوراً عليه أن يخدم مصالح قبضة من رجال السياسة الأمريكيين ، الذين كانوا يحرضونهم ضد ما بدأ الناس يسمونه « اطفاء نار العلاقات مع كوبا » .

وذات مساء أبلغني غيفارا أن القطيعة أصبحت وشيكة – ومتوقعة الدوي العلني – بين كنيدي و « مجلس التنسيق بين اللاجئين » ، وهو جهاز ذو مهمات

غامضة كانت تتمثل فيه ، بنفس درجة الغموض ، حوالي مائتي منظمة معادية لكاسترو ، كثير منها لا وجود له إلا على الورق. وقال لي غيفارا وهو يضحك، وسيجاره بين شفتيه :

– أطرف ما في الأمر أن « ميرو كاردونا »[1] الذي يقود كل هذه الحشرات هو نفس الشخص الذي وقع على مرسوم يمنحني الجنسية الكوبية . من النقيض إلى النقيض ! .. أما الآخر فهو « أورروتيا » [2] .

على أن خصوم الرئيس كنيدي كانوا يستخدمون المنفيين الكوبيين لمجرد اثارة المتاعب له . ولقد استمعنا ذات يوم من شباط إلى خطاب لكنيدي كان يبذل وسعه فيه لطمأنة المعارضة الداخلية ، التي كانت تعتقد أو تتظاهر بالاعتقاد بأن من الممكن توقع هجوم عسكري ما على الولايات المتحدة ابتداء من كوبا . وكانت هذه المعارضة قد جعلت رجل الشارع ، عن طريق قراءة الصحف ، دائم القلق على حياته لأن في جزيرة كوبا الصغيرة مائة طائرة مطاردة من طراز « ميغ » ، وخمسمائة مدفع موجه من الأرض إلى الجو ، وألف وخمسمائة صاروخ للدفاع الساحلي . كانت هذه الأرقام المتواضعة تتضخم في أذهان الأمريكيين إلى حد نسوا معه ضخامة العتاد العسكري الذي تمتلكه بلادهم . وإلى هؤلاء الأمريكيين المذعورين كان الرئيس كنيدي يوجه خطابه حين قال انه لا موجب للذعر ، وان خمسة آلاف جندي روسي قد غادروا الجزيرة ، وان الآلاف

---

(١) محام كوبي ، كان يعارض باتيستا ويؤيد كاسترو في البداية ، ثم اختلفا فلجأ الى فلوريدا وأنشأ حكومة كوبية في المنفى . وقد اختفى ذكره بعد فشل غزوة « خليج الخنازير » وحملته على وكالة المخابرات المركزية .

(٢) معارض آخر لنظام باتيستا ، انتخب في ١٩٥٩/١/٢ ـ بعد انتصار كاسترو ـ رئيساً للجمهورية . وظل في هذا المنصب حتى آب من العام نفسه حيث اختلف مع كاسترو فاضطر إلى مغادرة الجزيرة .

القليلة المتبقية كانت تدرب الكوبيين فحسب ، دون أن تؤلف هي نفسها وحدات قتال .

تلك كانت احدى النقائض في وضع كوبا : بلد صغير يفقد جاره الجبار رشده .

وبالتالي ، كان أيسر فهماً أن يفقد رشده صديقنا القديم « بيتانكور » . هتف غيفارا يوماً وهو يناولني برقية ، وعيناه تلتمعان غبطة :

– انظر ، انظر ! هذا آخر ما قام به الثوريون الكوبيون . ولا ريب أن « بيتانكور » سيسقط مريضاً لدى علمه به .

وكان النبأ صاعقاً حقاً : قبضة من الرجال أسروا في عرض البحر ناقلة بترول حمولتها خمسة آلاف « طنة » بحرية كانت منتظرة في « هيوستون » ، ثم اتخذت وجهة مجهولة ، بينما العالم كله يراجع الخرائط لملاحقة آثارها في المحيط الأطلسي . ولما كان « بيتانكور » قد أعلن قبل قليل عن عزمه على زيارة قريبة للولايات المتحدة يقابل خلالها كنيدي ، كان لا بد لهذا الحادث من أن يؤثر على مركزه في المباحثات ، لا سيا والقنابل في كرا كاس تتفجر بالمئات .

وكان غيفارا لا يزال يحتفظ تجاه « بيتانكور » بنفس النفور الذي شعر به يوم عرفه أول مرة ، قبل سنوات عديدة، يوم كنا نقيم في « كوستاريكا ». قال لي :

– في الماضي ، كما تذكر ، كنت لا أطمئن اليه . أما الآن فلا . الآن أوقن أنه ألد أعدائنا ، أنه عدو كل الثورات المعادية للاستعمار في أمريكا اللاتينية . وهو كذلك ، لأسباب شخصية محضة . كبرياؤه تمنعه من وضوح الرؤية حين يتعلق الأمر بشخصه . فهو صادق حين يقول انه يدافع عن الفرد تجاه الاشتراكية . ولكن الفرد الذي يدافع عنه هو اياه نفسه . وهذا ما يمكن أن نسميه فردية منطقية مع ذاتها . أليس كذلك ؟

وكان هناك واحد آخر من أصدقائنا ، هو « خوان بوش » انتخب رئيساً

لبلاده . هذا الخلاسي الذي كان يتحدث في الأدب مع غيفارا أصبح منذ آذار ١٩٦٣ يواجه حقبة مضطربة من الحكم في الجمهورية الدومينيكية . وقد اضطر فيما بعد الى الاستقالة قبل أن يستكمل ولايته .

في تلك الحقبة طلب مني « تشي » أن أستعرض معه بصورة منهجية مشكلات الأرجنتين . كان يظهر تجاه وطنه الأول اهتماماً يفوق كل اهتمامه السابق به ، لأسباب كنت أجهلها ، إلا إذا افترضت أنها كانت ترجع الى تخبط الأرجنتين إذ ذاك في فوضى متعاظمة لم تعرفها من قبل .

ولكن غيفارا كان يريد أن يعرف كل شيء على وجه الدقة . وبين الحين والحين كان يدوّن بعض الملاحظات . كانت الحركة العمالية والجامعية موضع اهتمامه الرئيسي ، ولكنه كان يريدني أيضاً أن أصف له من الألف إلى الياء كل الشخصيات البارزة في الحياة السياسية ، لا سيما وأن كثيراً من هذه الشخصيات – وربما الأكثرية – لم تكن قد ظهرت بعد على المسرح السياسي يوم غادر الأرجنتين ، بينما لا يكاد يذكر من الآخرين إلا الاسم .

وكان غيفارا يرفض أن يرى في الوضع الخاص الذي كان عليه الجيش الكوبي واحداً من الظروف الاستثنائية التي استفاد منها الثوريون . صحيح أنه كان جيشاً مكتمل التجهيز ، وكثير العدد نسبياً ، ولكن هنا كان يقف تشابهه مع الجيوش الأخرى ، ولا سيما الجيش الأرجنتيني . فما كان في المستطاع أن نتحدث عن روح تضامن بين العسكريين الكوبيين ، لأن المحاباة كانت دائماً تخرق الأنظمة . كذلك لم يكن في المستطاع الحديث عن تقاليد تاريخية لهذا الجيش ، لأن تنظيمه أعيد ثلاث مرات خلال تاريخ الجزيرة القصير ، وكان هذا التنظيم يجري في كل مرة على أسس لم يكن العسكريون أنفسهم راضين عنها . في مقابل ذلك ، ورغم أن الجيش الأرجنتيني كان قد أفرز عدداً من غلاة الرجعيين في البلاد ، كان صحيحاً أيضاً أن الرئيس خوان بيرون – معبود الجماهير – يحمل رتبة جنرال . وكان بيرون لا يزال يؤلف عقبة أمام أولئك الذين قد يفكرون

بالقتال ضد الجيش .

على هذه الآراء ، كان رد غيفارا سؤالاً جديداً :

— ولكن ، لنفترض أن بيرون تخلى عن منفاه في اسبانيا وجاء يقيم هنا ، في هافانا : هل تعتقد أن هذا سيغير حقاً موقف الجماهير الأرجنتينية ؟

وأجبته أني لست من هذا الرأي . أولاً لأني كنت لا أعتقد أن في الامكان أن يترك بيرون اسبانيا لينتقل إلى كوبا ، على رغم صادق اعجابه بكاسترو وبالثوريين الكوبيين ، ذلك الاعجاب الذي تثبته رسالة كانت بين يدي « تشي » . وثانياً لأني لم أكن أستطيع أن أتصور أن الجيش الأرجنتيني أصبح مؤسسة منخورة إلى حد يمكن أن يسقط معه دون أن يكون قبل ذلك قد حاول كل السبل على الصعيد السياسي ، وما دامت بين يديه قوة السلاح .

في وسط كل هذه المناقشات ، في ٢ نيسان ١٩٦٣ ، حاول الأسطول الأرجنتيني ، وفريق من كبار الضباط في الجيش البري وسلاح الطيران ، الاستيلاء على السلطة في بونس آيرس . ودرات المعركة وأخذت الطائرات التابعة للقوى البحرية تضرب معسكرات الجيش البري . وفجأة قامت طوابير من المدرعات بضرب قواعد الأسطول فخربتها . أصبحت الحرب الأهلية تهدد الأرجنتين . وعلى أبواب الثكنات كانت أمهات الجنود يتظاهرن ويولولن ضد هذه المذابح بين الأشقاء ، وأخذت حركة الاحتجاج الصامتة تمتد إلى كل فئات المجتمع .

وكان غيفارا موقناً بأن الوضع في الأرجنتين يتطور في اتجاه انتفاضة شعبية ذات طابع ثوري . كان يقول :

— ان الشروط الموضوعية للنضال بدأت تظهر في الأرجنتين . فالبطالة تسود ، والناس في جوع ، وهذا يؤدي إلى تحرك الطبقة الكادحة ، في رد فعل لا يلبث بدوره أن يدفع إلى عمليات قمع تهدف إلى خنق أصوات الاحتجاج

بخلق جو من الارهاب . ولكن القمع يثير الحقد . وفي هذه اللحظة بالذات يأتي دور الشروط الذاتية إلى جانب الشروط الموضوعية ، يأتي دور الوعي بأن الانتصار مستطاع ، بالعنف ، تجاه الامبرياليين وحلفائهم في الداخل .

هذا التصور كان واحداً من المحاور الرئيسية في التفكير الثوري عند غيفارا ، كما كان محور كل المناقشات في أوساط المعارضة في أمريكا اللاتينية خلال هذه الأعوام الأخيرة . كان هذا هو السؤال الدائم : هل يستطيع فريق من الثوار المسلحين ، من خلال جهد ذاتي، أن يدفع الظروف الثورية الموضوعية إلى درجة كافية من النضوج، علماً بأن هذه الظروف الثورية الموضوعية موجودة في كل بلدان أمريكا اللاتينية ، على درجات متفاوتة .

وكان مثال الأرجنتين هنا ذا أهمية رئيسية ، لا لأننا ، أنا وغيفارا ، كنا نعرف الوضع فيها على حقيقته ، فحسب ، بل أيضاً لأن هذا المثال كان من بعض وجهات النظر — أعني : من وجهة نظري أنا — يشتمل على مجموعة من مقومات تجعل منه ، لا مجرد حال استثنائية تخرج عن المخطط النظري العام الذي يقول به غيفارا ، بل نقيضاً كاملاً للمثال الكوبي .

ولقد كان غيفارا ، في كل مناقشاتنا ، يرفض أية امكانية للاستثناء . لقد رفضها دائماً بشأن كوبا كما رفضها بشأن أي بلد آخر . على أن العناد في رفض الاستثناء كان يرجع على وجه الخصوص إلى خشيته من أن ينقلب هذا الاستثناء ذريعة للأحزاب والحركات اليسارية في أمريكا اللاتينية تبرر بها قعودها عن العمل . فالواقع أنه كان ينتهي بالاعتراف بأن الولايات المتحدة قد أخذت بشأن كوبا على غرة ، وانه بالتالي لا يحق لنا أن نتوقع من أمريكا الشمالية أن تنساق مرة أخرى إلى وقوع في ورطة مماثلة .

أما في حال الأرجنتين ، فكان من رأي غيفارا أن تنظيم الكفاح المسلح يجب أن يتم في عالم الريف ، ما دامت الزراعة هي القطاع الاقتصادي الأكثر

أهمية . كان يتصور جيشاً من الفلاحين يستولي على المدن . وكان يرفض أن يقبل أن هيكل الملكية الزراعية في الأرجنتين يتألف في الأغلب من مالكين صغار ومتوسطين ، ومن مزارعين يدفعون اجارة متواضعة نسبياً ، وان هذه الفئة من الناس هي ذات الوزن الرئيسي في مناطق الأرجنتين الأكثر أهمية ، سواء من حيث ثروتها أو من حيث عدد أفرادها . وهذا عامل آخر كان غيفارا يبخسه قدره ، ربما لأنه كان ، على غير وعي منه ، وبصورة آلية ، ينقل ظروف الزراعة الكوبية إلى بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى ، ناسياً ما تتميز به الزراعة في الارجنتين من طابع شديد الخصوصية : فهنا لا تجد بعض الروح «البرولیتارية» لدى العمال الزراعيين الا في حقول القطن و « المتة » ، وفي مزارع قصب السكر وغابات « الكيبراتشو » [1] ؛ ولكن سعة الأرجنتين جغرافياً تحول هذه المراكز الى جزر منعزلة يسهل حصارها وسحقها إذا ما حاولت أية حركة ثورية أن تقوم فيها . وبالتالي فان مختلف القطاعات التي تنبض ببعض الحيوية الثورية لن يدفعها إلى التمرد الفعلي ، وبصورة متناسقة ، إلا تنظيم أعلى يكون ذا نفوذ مؤثر على الصعيد الوطني . ثم ان سكان الريف الأرجنتيني يتصفون اجتماعياً ، من حيث الخطوط العامة ، بمثل خصائص سكان المدن : فالعنصر المهيمن فيهم يظل طبقة متوسطي المالكين وصغارهم ، وكذلك طبقة المزارعين المستأجرين الذين يعيشون حياة لا تقل رخاء عن حياة أولئك ، بفضل تعديلات جزئية في نظام العقود المدنية وبفضل اشتراك الأرجنتين في المبادلات العالمية . وصحيح أن هذه الكتلة من الناس تعاني أيضاً مشكلات خطيرة ، ولكن أغلب الظن أنها غير مستعدة لأن تعبىء للثورة إلا من كان من شبابها ذوي شجاعة فائقة .

---

(٥) شجر يشبه البلوط في صلابة خشبه وفي غنى قشرته بالعفص .

من نقاشنا الطويل حول هذا الموضوع انتهيت الى الاعتقاد بأنه لم يكن في وسع غيفارا أن يقبل ، في حالة الأرجنتين ، وبالحاجة إلى وجود تنظيم ثوري على الصعيد الوطني ، لأنه لو فعل ذلك لكان معناه قبوله بالنظرية التي يرفضها ، والتي تقول ان انشاء الحزب ينبغي له بالضرورة أن يسبق بداية الكفاح المسلح . وإذا كان ، من ناحية أخرى ، يصر على القول باستحالة انشاء حزب يمثل تحالفاً بين طبقات تكون أهدافه قومية ومعادية للاستعمار ، فهو بذلك سينتهي إلى نتيجة لا يمكن أن ترضيه ، وهي أن يختلط الحزب الثوري اختلاطاً بعيد المدى بالحزب الشيوعي ، وغيفارا كان قد أضاع كل رجاء في أن يكون لهذا الحزب الأخير طاقة على الثورة .

واستنتاج آخر يفرض نفسه ، كان لا معدى له من أن يلح على « تشي » وان رفض صياغته وكان اكثر رفضاً لمناقشته : هو أن كوبا كانت قد نعمت ببحبوحة من الظروف الاستثنائية التي قدر لثورتها أن تتم فيها ، وبالتالي لا تصلح أن تكون مثالاً يحتذى به في بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى ، بينما تظل درساً مثالياً للولايات المتحدة ...

بهذا وحده كان « تشي » يعترف ، فيقول لي :

– هذا صحيح . ان الامبريالية قد تعلمت بفضل التجربة الكوبية أكثر كثيراً مما تعلمه الثوريون في كل القارة .

وبالفعل ، برهنت لنا حكومة كنيدي أنها كانت تحسن الاعتبار بدروس التجربة . كان ذلك في مطلع نيسان ١٩٦٣ ، حين أعلنت الحكومة عن الاجراءات التي اتخذتها لوضع حد لعمليات نزول المنفيين تسللاً إلى البر الكوبي . كان ذلك هو سبيلها الصريح للاعتراف بوجود ميثاق عدم اعتداء تجاه كوبا ، وللقول بأن واشنطن تعتمد بعد الآن على الزمن لتسوية الأمور .

ويضيف غيفارا ، الذي كان الزمن لديه بعداً حركياً لا عامل جمود :

— ... والزمن يعمل لمصلحة الاشتراكية ... ان الروس ينصحوننا أن نترك الزمن يمر ، أن نعقد ذراعنا واحداً فوق الآخر وننتظر قاعدين . أما نحن فحريصون على أن نمسك بيد الزمن لنجعل مروره اكثر سرعة ، وذلك بتعجيل حركة الثورة . هذا ، في كلمتين ، ما يفصل بيننا وبينهم .

في الوقت نفسه ، أنا أيضاً كان زمني ينقضي سريعـاً : كانوا ينادونني من بونس آيرس . وأبلغت غيفارا عزمي على الرحيل ، فأرادني أن أحضر قبل سفري تمارين على اطلاق المدافع ومدافع الهاون ، كانت تجري على الساحل ، قريباً من هافانا .

وذهبنا إلى الموقع مع الفجر ، والشمس الاستوائية الضاربة الى الاحمرار توشك أن تظهر عند الأفق . كان هناك مائة شخص تقريباً يتمرنون على الاطلاق السريع ، بالذخيرة الحية . وفجأة ، لـَصِبَت قذيفة في أحد مدافع الهاون ، فطلبوا متطوعين لاستخراجها من سبطانته ، فاذا الأيدي ترتفع بالعشرات : لقد كانوا جميعاً مستعدين للمجازفة بحياتهم على الفور . وكان هـذا واحداً من المشاهد التي لا تنسى . أيكون هذا نموذج الانسان الجديـد الذي كان غيفارا يريد خلقه في كوبا وفي كل أمريكا اللاتينية ، من خلال الاشتراكية ؟

لقد حـلم غيفارا بانسان شجاع ، واعٍ لمسؤولياته ، شريف ، محب لعمله ، مرح ، كريم وذي كرامة ، ذكي ، مستعد لأكبر التضحيات . فهل كان هذا حلماً طوباوياً ؟ أم كان النقيض الجدلي لذلـك الانسان اللاتيني الأمريـكي الآخر الذي عرفه غيفارا من قريب ، الانسان السيء التغذية ، الواجف أمام السلطان ، والذي كانت على ذكائه غشاوة من الجهل والجوع ؟

المهم أن غيفارا نفسه كان يُجسّد جانباً كبيراً من فضائل انسان المستقبل

هذا . فكان يقتضي نفسه مواقف على مستوى التطلع الى هـذا الانسان ، وان بدت غير جلية القصد أو غير عملية .

أذكر أن زوجته ، عشية مغادرتي كوبا ، نادته بالهاتـف وأنا إلى جانبه ، تطلب منه أن يرسل اليها سيارته الرسمية لتستخدمها في بعض شؤونهـا في المدينة ، فأجابها « تشي » :

— لا يا « آلييدا » ، لا . أنت تعرفين حق المعرفة أنها ليست سيارتي بـل سيارة الحكومة ، فليس لك اذن أن تستخدميها . اركبي « الباص » ، كما يفعل كل البشر .

هذا الحادث الشخصي كان فيما بعد مـدار حديث عائلي ، اتفقت فيـه « آلييدا » زوجة « تشي » و « سيليا » أمه على القول بأنه يـداني الهوس في حرصه على ألا يعود عليه وضعه في الحكومة إلا بالحد الأدنى الضروري للعيش. ولقد كان المنزل الذي يقطنه ، والذي صودر من مهاجر ، عارياً كل العري في داخله ، برغم وفرة الهدايا التي كان يتلقاها خلال زياراته العديـدة لمختلف البلدان . وكان يبعث بهذه الهدايا — من تحف ونقوش يدويـة وأدوات كهربائية — إلى مراكز تربية الشبيبة ، دون أن يكلف نفسه عناء فتح أغلفتها ساعة تصل اليه . وحين رأيت مظاهر النسك في منزله ، لم أستطع الامتناع عن العودة بذاكرتي إلى غرفة مدينة « لاباز » التي عرفته فيهـا ، والتي كانت كل زينتها مسماراً مزروعاً في الجدار .

الطرفة الوحيدة التي كان غيفارا يحتفظ بها بصـورة استثنائية هي ساعة جميلة ذات سلسال ، كانت قد أهديت اليه مع أربع عشرة ساعة أخرى ، كلها متماثلة ، وزعها على أصدقائه المقربين ، فلم تلبث مع الوقت أن غـدت بينهم أداة تعارف ، على بعد الشقة بينهم ، إذ أني رأيت هـذه الساعات في أصقاع

مختلفة من العالم .

وفي صبيحة باردة ، مر « تشي » بفندقي ليرافقني في سيارتـه إلى المطار . وكنت سأسافر مع أمه « سيليا » ، التي كانت قـد جاءت تقضي بعض الوقت مع ابنها وأحفادها . فلما وصلنا المطار أدخل « غيفارا » رأسه بين كتفيه وقد بدا عليه البرد . وكنت أحمل « بونتشو »[١] أرجنتينياً ، من تلك التي تحوكها نساء جبال « الآندس » على أنوالهن الريفية ، فقلت له :

– خذ هذا « البونتشو » الأرجنتيني . لقـد قدموه لي خلال احـدى جولاتي السياسية ، منـذ عهـد بعيد . وسأتركه لك لتستبقيـه ذكرى من بلادك .

فأجاب غيفارا في غبطة :

– انه يجيء في أوانه . فالليالي باردة حـين تقضيها في الجبـال ، حتى في البلاد الحارة . والضباب يلتصق بالسفوح ويدخل حتى العظام .

ثم جاء دور العناق ، ووصايا الدقيقة الأخيرة ، والوداع . وقبل أن أختفي في الطائرة كان آخر ما قاله لي غيفارا :

– سوف ترى . ان الطبقة القـائدة في الأرجنتين لـن تتعلم أي درس . ووحدها الحرب الثورية قادرة على تغيير الأشياء .

وكان يمكن أن أنسى هذه الجملة الأخيرة ، ولكني ساعة وصـولي الى بونس

---

(٦) « البونتشو » شقة من نسيج الصوف أقرب الى الاستدارة ، يشتمل بها سكان البـلاد الأصليون في أمريكا اللاتينية (ويقلدهم في ذلـك الآن بعض الأغنيـاء ونسائهم) ، تشبه « الشوذر » الذي كان يستخدمه عرب العراق في كونها مفتوحة في موضع العنق ليمر منهـا الرأس . (المعرب)

آيرس اعتقلت وزج بي في السجن لفترة طويلة . لقد اعتقد العسكريون الأرجنتينيون أني انما عدت لأنظم في الأرجنتين حرب الفوار ، لقد قضيت شهرين مع غيفارا أحاول اقناعه بعدم جدوى مثل هذا العمل ...

لقد كان غيفارا على حق : انهم لم يتعلموا أي درس !

الكتاب الثالث

غيفارا : المغاور التائه

١

حرب غوار في الأرجنتين

في ١٩٥٨ ، بينما كان مغاورو كاسترو يقاتلون في الريف الكوبي ، كان صحافي أرجنتيني قد قام بمحاولة أولى لخلق روابط جديدة بين الأرجنتين وغيفارا . كان هذا الجهد يستهدف مد حدود العمل الثوري حتى تشمل القارة ، وفرض الصفة الشرعية لنضال أي ثائر من ثوار أمريكا اللاتينية على أية رقعة من أرضها . وكان تقطيع أوصال أمريكا اللاتينية ثقافياً وسياسياً طوال قرن مضى قد تأدى بشعوبها إلى عدم التسليم بشرعية هذه المشاركة في النضال الثوري على صعيد القارة . وعن هذا الموقف الخاطىء نشأ رد فعل الأرجنتينيين ، الذي كان سلبياً في البداية ، حين عرفوا أن مواطنهم غيفارا يقاتل في جزيرة كوبا البعيدة . وكان هذا في واقعه يكشف عن نجاح الضغوط التي ظلت طوال القرن الماضي تحول دون تشكيل أمة لاتينية أمريكية واحدة ، أحد الأهداف الأساسية التي نادى بها « المحرر » سيمون بوليفار .

ذلك الصحافي الأرجنتيني كان يدعى « خورخي ماسيتي » . وهو رجل لعب فيما بعد دوراً في حياة غيفارا ، وحتى في لحظة وفاته ، حتى ليمكن القول

بأن شخصيته ترتبط بشخصية غيفارا بأكثر من حبل ، وعلى صورة غير قابلة للانفصام .

عرفت « ماسيتي » ذات مساء من ١٩٥٧ ، والأرجنتين على حافة خطر الحرب الأهلية ، وكنت لا أزال من خصوم بيرون ، وكان « ماسيتي » يعرف عني ذلك ، بحيث كان يحق له أن يرى في عدواً له ، اذ كان في ماضيه عضواً في « الاتحاد القومي » ، منظمة « الصاعقة » البيرونية المسلحة التي حاصرها الجيش وأبادها بالمدافع عام ١٩٥٥ .

في تلك الأيام ، كنت وأصدقائي نرتاد مقهى « لاباز » ، ملتقى الصحفيين والكتاب وممثلي المسرح ، القائم في جزء من شارع « كوريانتس » يرجع بذاكرتك إلى « برودواي » .

وفي آب ١٩٥٧ ، تنفيذاً لأوامر « فرونديسي » ، أقمت أول اتصال وثيق بين حزبنا الراديكالي وبين الجنرال بيرون في منفاه. وقد أعطى هذا الاتصال ثمرات طيبة في العام التالي ، جعل « فرونديسي » يستفيد في انتخابات الرئاسة من أصوات البيرونيين الكثيرة العدد . ولكنه ، في حينه ، كان أيضا من عوامل التقارب بيني وبين « ماسيتي » .

وذات يوم ، بعد قليل من لقائنا ، سألني أن أدله على السبيل إلى مقابلة كاسترو وغيفارا في « السييرا مايسترا » : سؤال طرحه علي صحفيون كثيرون قبله ، ثم ما لبثوا أمام المصاعب أن تخلوا عن مشروعهم . أما « ماسيتي » ، الذي كان يعمل محرراً في جريدة « الموندو » ويكتب لمحطة الاذاعة التابعة لها، فكان يبدو جاداً في تصميمه . كان لا يزال ضئيل الزاد من الخبرة الصحفية ، فكان يطمع في أن يبرز اسمه اذا هو حصل على مقابلة صحفية ذات شأن، كما فعل قبله « هربرت ماتيوز » ، في شباط من العام نفسه ، حين هز كوبا والعالم كله بحديث صحفي نشرته « نيويورك تايمس » في ثلاث طبعات متتالية وكشف فيه النقاب عن أن كاسترو ورفاقه لا يزالون على قيد الحياة . ومن المؤكد أن هذا

النصر المهني سحر الكثيرون جداً من الصحفيين ولا سيا في أمريـكا اللاتينية ، ومن بينهم « خورخي ماسيتي » .

على أن أهم ما في مشروع « ماسيتي » كان جانبه السياسي . فلقـد كانت ثورة كاسترو تحظى بتأييد غير مشروط من البورجوازية الأرجنتينية ، تأييد أدى إلى عكسه الجدلي لدى الطبقة العاملة فأخذت تفضل باتيستا . ذلك أن الضباط « الغوريلا » [1] في الأرجنتين كانوا ، بعملية دعائية قائمة على التبسيط الشديد ، يربطون بين اسمي بيرون وباتيستا ، برغم الاختلاف البالغ بين سياستيهما ، لمجرد كونهما كليهما عسكريين . وبالمقابل كان اسما « الجنرال أرامبورو » و « الأميرال روخاس » [2] يربطان علناً باسم فيدل كاسترو . ولما كان الأولان قد شردا النقابيين وسجنا زعماءهم وأعدما البيرونيين المتمردين ، فقد انتهت الطبقة العاملة إلى الجمع بين أعدائها الوطنيين وبين المغاورين الكوبيين في كل واحد . و « ماسيتي » ، وهو البيروني ، كان يريد أن يتحقق من صحة تفسير رفاقه هذا أو بطلانه .

وذات يوم جاءني إلى مقهى « لاباز » وفي احدى يديه جواز سفره وفي الأخرى بطاقة طائرة . فلم أملك أن أكتم ابتسامة : لقـد وُجد ، أخيراً ، رجل مصمم على السفر !

وكان القمع في المدن الكوبية قد بلغ عام ١٩٥٨ أفظع درجات العنف ، فقلت له اني لن أعطيه الا عنواناً واحداً ، يقصده فيتكفلون بإيصاله إلى المنظمة الجامعية السرية ، فيطلب منها أن تبعث بمن يرافقه إلى الجبال ، حيث سيلقى

---

(١) مصطلح شعبي أطلق على العسكريين الذين خلفوا بيرون وأنصارهم .

(٢) « آرامبورو » رئيس الدولة الأرجنتينية بعد استقالة « ليوناردي » ، أما « روخاس » فكان قائد القوى البحرية وفي الوقت نفسه نائب الرئيس . وهذا الأخير بصورة خاصة كان مكروهاً جداً من الطبقة العاملة . (المعرب)

غيفارا ومعه مني رسالة توصية . وكنت لم أرَ غيفارا منذ أواخر ١٩٥٥ ، حين افترقنا في مكسيكو ، فبدا لي أول الأمر أن أكتب اليه رسالة طويلة أعرض فيها لبعض الأمور الشخصية ثم لبعض الملاحظات السياسية . ولكني عدلت عن ذلك فكتبت له لفوري بطاقة قصيرة ، مفكراً أن الحرص على سلامة « ماسيتي » نفسه كان يقتضي أن يستطيع غيفارا فهم كلمتي دون أن يكون فيها ما يثير اهتمام الشرطة ، التي كانت كثيرة التمحيص في رسائل الأجانب القادمين إلى كوبا أيام الأرهاب تلك . وكان هذا ما كتبته : « عزيزي « تشانتشو » : حامل هذه صحفي صديق ، يرغب أن يقوم بتحقيق لحساب محطة اذاعة « الموندو » في بونس آيرس . أرجوك أن تحسن استقباله فهو جدير بذلك . — المحارب الهاوي » .

وقرأ « ماسيتي » هذين السطرين فقطب حاجبيه : لقد كانت التوصية بالغة القصر !

ومع ذلك فان العنوان وبطاقة التوصية القصيرة فتحا له طريق « السييرا مايسترا » ، وفي آذار ١٩٥٨ وصل « ماسيتي » إلى معقل كاسترو وغيفارا ، وعاش مع المغاورين بضعة أسابيع اكتشف خلالها أخوة المقاتلين ووحشية القتال .

كتب يقول بعد عودته : « أعترف أني غادرت بونس آيرس وكلي شكوك . كنت بالطبع قد كونت رأيي في باتيستا ، ولكني كنت أريد أن أعرف من هم أولئك الرجال الذين يعملون لاسقاطه وأية مصالح يمثلون . كنا ، نحن الأرجنتينيين ، في حاجة إلى أن نعرف من هو الرجل الذي يقود الثورة في كوبا ، وما هي حركة ٢٦ تموز وما أهدافها ومن يموّلها . كنا نود أن نعرف : هل يدفع ثمن الرصاصات التي تطلق على باتيستا بالدولار أو بالروبل أو بالجنيه الاسترليني ، أم هل نحن أمام استثناء عجيب في أمريكا اللاتينية ، أمام

ثورة تسير نحو انتصار لحسابها لا لحساب الآخرين ، يمولها الشعب الذي يقوم بها ؟ » .

وفي لقائه الأول مع كاسترو ، في فرجة من الغابة العذراء ، اكتمل اقتناعه بالوشائج الوثيقة بين ما رآه في كوبا وبين مجموع تطور الأحوال السياسية في كل أمريكا اللاتينية . قال لزعيم المغاورين : « مساء الخير » ، فكان جواب هذا : « كيف حالك ؟ ما هي أخبار فرونديسي ؟ هل هو راضٍ عنا » ؟ .

وكان قبل ذلك قد التقى بغيفارا ، فرسم عنه هذه الصورة : « كان يتجه صوبي ممتطياً بغلة ، وساقاه مرتخيتان وظهره مقوس ، على جانبيه بندقية « بيريتا » وأخرى ذات منظار مقرب ، كأنهما عكازتان يتوكأ عليهما هيكل عظمي ضخم المظهر . فلما اقترب مني استطعت أن أتبين حول خصره مسدساً وحزاماً مملوءاً بأمشاط الرصاص . ومن قميصه كانت تخرج مجلتان ، ومن حول عنقه تتدلى آلة تصوير ، وعلى ذقنه تذر شعرات قليلة تحاول أن تكتسب مظهر اللحية . ونزل عن بغلته في بطء ، وهو يضرب الأرض بحذائيه الضخمين اللذين يغطيهما الطين . وبينما كان يقترب مني ، كنت أفكر ان قامته ربما بلغت متراً وثمانية وسبعين ، وانه لا يبدو أن الربو الذي يشكو منه يزعجه أو يحد من نشاطه . كان هذا المحارب الشهير ، « تشي » غيفارا ، كأنه النموذج الأكمل للفتى الأرجنتيني من أبناء الطبقة المتوسطة . وكنت اذ أنظر اليه تتداعى إلى ذهني صورة « كانتينفلاس » [1] وقد عاد إلى بعض شبابه ... ثم دعاني إلى الغذاء معه فجلسنا نأكل لا نكاد نتبادل كلمة » .

على أن هذا اللقاء المشوب بالبرودة لم يلبث أن اكتسب الدفء . يتابع « ماسيتي » فيقول :

« كان هو الذي طرح الأسئلة الأولى . وكانت ، كما كان منتظراً ، تتناول

---

(١) اسم مستعار اشتهر به « ماريو مورينو » أكبر الممثلين الهزليين في أمريكا اللاتينية .

السياسة الأرجنتينية. وقد بدا راضياً عن أجوبتي، وسرعان ما أدركنا أننا كنا متفقين على أمور كثيرة وأنه لم يكن لدى أحدنا ما يمكن أن يخشاه من الآخر. فلم يمض إلا قليل حتى كنا عملياً نتحادث دون تحفظات – إلا تلك التي اعتادها الأرجنتينيون أبناء الجيل الواحد – بل أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد».

وكان «ماسيتي» و«غيفارا» من عمر واحد: تسع وعشرين سنة، لايكبر أحدهما الآخر الا بأشهر قليلة.

تلك كانت تجربة حاسمة في حياة «ماسيتي»، لأنها سمحت له بأن يكتشف، وراء مهمة الصحفي التي قادته إلى كوبا، أن ملكته الحقيقيـــة كانت ملكة ثورية. فلقد كانت وراء أضلاع «ماسيتي» روح قائـد رجال، روح زعيم. ولئن ظلت هذه الروح مختبئة حتى ذلك الحين فلقد أتيح لها بعد ذلك أن تبحث عن أفضل الطرق للخروج إلى النور.

وحين غادر «ماسيتي» الجزيرة كان قد اصبح له نصيب من العمل الثوري: ذهب إلى كراكاس حيث كان يتم اعداد «ميثاق الأحزاب» الذي سمـــح لكاسترو أن يضرب باتيستا الضربة القاضية [1]. يضاف إلى هذا أنه، في ثلاثة أسابيع، كتب تقريراً صحيفاً عن المغاورين الكوبيـين في خمسين ألف كلمة، نشر في بونس آيرس في تشرين الأول ١٩٥٨، والمعركة تدخل مرحلتها النهائية.

وفي ١٩٥٩ استدعاه غيفارا وعهـــد اليه بتنظيم وكالة «برنسا لاتينـا» (الصحافة اللاتينية)، التي كانت مهمتها تأمين نشر الأخبار المتعلقة بكوبا في العالم كله، ولا سيا في أمريكا اللاتينية. وقد أثبت «ماسيتي» انه يتمتـــع بمواهب تنظيمية ممتازة، فلم يأتِ حزيران من العام ذاته حتى كانت تلك الوكالة

---

(١) هذا الاتفاق المعقود عام ١٩٥٨ بين كاسترو و«الأحزاب البورجوازية» كان يهدف الى احباط «الانتخابات» الرئاسية التي دعا اليها باتيستا وتحضير الحكومة المؤقتة التي قد تخلفه اذا سقط.

الاخبارية تستخدم مائة وخمسين شخصاً ، ستون منهم تقريباً في مركز الوكالة في هافانا . وفي قليل من الوقت كان للوكالة مكاتب مفتوحة في كل عواصم القارة ، بما في ذلك الولايات المتحدة .

ولقد وجدت هذه الوكالة الاخبارية على طريقها عقبات كثيرة عرضت للخطر وجودها ذاته ، ولكن مصيرها كان منذ البداية وبالدرجة الأولى مرتبطاً بمصير الحكومة الكوبية . وبالتالي ، بقدر ما كان يزداد عزل نظام كاسترو عن القارة ، كانت مكاتبها تغلق وكان يُمنع توزيع أخبارها .

وفي أواخر ١٩٦٠ كان يبدو أن « برنسا لاتينا » لا تزال قادرة على احتمال الحصار السياسي . وجاء « ماسيتي » يزورني في سفارة الأرجنتين في بون ، حيث كنت لا أزال في منصبي كمستشار سياسي . وكنا لم نلتقِ منذ عودته من كوبا ، في حزيران ١٩٥٨ ، يوم كلفه غيفارا أن يحمل إلى أمه اسطوانة سجل عليها صوته ، لتقتنع بصورة نهائية أنه حي يتمتع بالعافية . ففي أيام الحرب تلك كان نبأ وفاته خلال القتال قد أذيع أكثر من مرة ، ولكن أسرته كانت تتلقى الأخبار الموثوقة بشأنه بواسطة شخص كان له في هافانا منصب ملائم أفضل الملاءمة لهذا الغرض ، وكان يبعث اليها بين الحين والحين بأنباء ابنها المغاور . وهذا المخبر لم يكن إلا سفير الأرجنتين في كوبا ، « الأميرال لينتش » ، ابن خال غيفارا الأب .

و « ماسيتي » ، حين زارني في كانون الأول ١٩٦٠ ، كان يقوم برحلة ينتظر لها أن تقوده إلى الجزائر ثم إلى موسكو اذا استطاع . ولكنه في بون تلقى أمراً بعدم الذهاب إلى الاتحاد السوفياتي وعاد بعد قليل الى هافانا . وحين عدت الى لقائه في مكاتبه المكيفة الهواء في عمارة ضخمة من عمارات « فيدادو » ، الحي السكني في العاصمة الكوبية ، كان من توتر الاعصاب بحيث بدا على رغمه جلفاً غير مهذب . وقد اعتذر عن ذلك لفوره ، وكان اعتذاره صادقاً دون ريب ، بدليل أنه لم يلبث ، في نيسان ١٩٦١ ، أن استقال من منصبه كمدير لوكالة « برنسا

لاتينا » . ذلك أنه كان قد اصطدم بمشكلات من كل نوع ، بدءاً بالمنافسة المهنية مع صحفيين كوبيين لم يكونوا ينظرون بعين الرضى لوجود أرجنتيني على رأس الوكالة ، وانتهاءً بالمنازعات السياسية ، ولا سيما مع قدامى الشيوعيين الذين كانوا دائماً ذوي نفوذ كبير في الأوساط الصحفية الكوبية . وقد ظل غيفارا يدعمه ما استطاع ؛ ولكن موقفه أصبح أخيراً لا يطاق ، فقدم استقالته بموافقة « تشي » . وبعد بضعة أسابيع ، بمناسبة معركة « خليج الخنازير » ، اشترك « ماسيتي » في اذاعة تلفزيونية كان لها دوي كبير ، اذ استجوب خلالها كبار الغزاة المعتقلين . ثم عاد مجدداً الى الظل .

على أني ، حين عدت إلى كوبا عام ١٩٦٣ ، لقيته مرة أخرى إلى جانب « تشي » ، وقد حضر عدداً من مناقشاتي الطويلة مع غيفارا . وكان يبدو مستغرقاً كل الاستغراق بنظرية استراتيجية كان غيفارا يحاول استكمال تصورها وصياغتها ، وكذلك بتثقيف نفسه تثقيفاً عسكرياً .

وكانت النظرية هي التالية : من الممكن اقامة بؤرة غوار في الأرض الأرجنتينية ، انطلاقاً من قاعدة موجودة في بوليفيا .

كان غيفارا يكثر من ترداد جملة « خوسه مارتي » [1] هذه : « من الجريمة أن تثير في بلد ما الحرب القابلة للتفادي ، وأن تقعد عن اثارة الحرب التي لا سبيل إلى تفاديها » .

ولدى « تشي » ولدى « ماسيتي » على السواء ، كان لا سبيل في الأرجنتين إلى تفادي الحرب ، أي الثورة الاجتماعية . وكان المهم اذن أن تثار بأفضل ما يمكن من الفعالية . كان غيفارا يقول :

---

(١) شاعر وثائر كوبي (١٨٥٣ - ١٨٩٥) . نفي الى اسبانيا وهو في السادسة عشرة بسبب نشاطه الثوري وظل فيها حتى ١٨٧٨ . واذ ذاك عفي عنه فعاد الى كوبا فلم تلبث السلطات الاسبانية أن طردته مرة أخرى عام ١٨٧٩ . ثم لم يعد الا عام ١٨٩٥ في بداية حرب الاستقلال ، التي قتل فيها ، ويعتبر المبشر بالاستقلال الكوبي .

– لا ينبغي لنا أن نخاف من العنف ، لأنه هو الذي يلد المجتمعات الجديدة . وانما علينا أن نسهر على أن لا يثور هذا العنف إلا حين يرى القادة الشعبيون أن الظروف مؤاتية .

وكان من رأيه أن هناك عنصرين ذاتيين ذوي أهمية خطيرة : الأول هو الوعي بضرورة التغيير ، أما الثاني فهو اليقين بأن هذا التغيير الثوري ممكن . وعلى هذين العنصرين متى قاما أن يحدا الشروط الموضوعية المقتضاة، في كل بلد . وفي حال الأرجنتين كان غيفارا يرى ، كما ذكرنا في الفصل السابق ، أن هذه الشروط مؤاتية كل المواتاة . لذلك ، نظراً لتوفر التصميم على تحقيق مثل هذا التغيير ، ونظراً أيضاً لتوازن القوى الجديد في العالم، كان يقول بتوفر الاحتمالات الثورية في الأرجنتين .

ولكن ، بصراحة ، لا « تشي » ولا « ماسيتي » فرط منه أمامي ، مرة واحدة ، ما يشير إلى أن محاولة لاثارة حرب غوار في الأرجنتين كانت وشيكة الوقوع ، برغم أنهما كانا شديدي الاهتمام بمتابعة تطور الموقف في هذا البلد . ويوم تحدثت معهما لآخر مرة ، في نيسان ١٩٦٣ ، كان تمرد القوات البحرية قد أقنعهما نهائياً بسلامة تقييمهما لذلك الموقف . قال غيفارا وكأنه يطلق نبوءة :

– ان وجود مركز للمغاورين في أية منطقة جبلية ، في بلد يضم مدناً كثيفة السكان، يحفظ بؤرة التمرد دائمة الاتقاد. فمن الصعب أن نتصور كيف يتأتى لقوى القمع أن تقضي سريعاً ، وحتى في بضع سنوات ، على عصابات مغاورين تتمتع بقواعد اجتماعية راسخة الجذور في أرض مؤاتية للقتال ، يقوم جزء من سكانها بممارسة هذا النوع من الحرب تكتيكاً واستراتيجية .

وبغية التحقق من صحة هذه الفرضية ، ذهب « ماسيتي » سراً إلى أمريكا الجنوبية ، بعد مغادرتي هافانا بقليل .

وفي حزيران ١٩٦٣ كان في بوليفيا ، التي وصلها يرافقه الضباط الكوبيون المقدمون « هرمس بينيا تورّس » و « راوول دافيلا » و « بابي » ؛ وثلاثتهم من

هيئة أركان « تشي » . على أن وصوله إلى بوليفيا جاء في أعقاب حدثين خطيرين أدخلا الاضطراب على الاطار الذي كان « ماسيتي » يعتزم العمل فيه . الحدث الأول جرى في أيار ، حين اعتقل الطالب « هوغو بلانكو » ، زعيم فلاحي وادي « كوسكو » ، فبدأت حركته بالاضمحلال . وقد كان هذا الحدث ضربة للمشروع ، الذي كان محوره خلق سلسلة من قوى الغوار تمتد من البيرو حتى شمال الارجنتين ، وهو مشروع كان أحد امتدادات الحرب الثورية كما تصورتها آمال « غيفارا » .

أما الحدث الآخر غير المتوقع فهو أن العسكريين الأرجنتينيين تعبوا من الشقاق والتنافس فاتفقوا على أن يسلموا السلطة لحكومة مدنية تأتي نتيجة لانتخابات « مراقبة » وإن توفرت لها بعض الضمانات الدستورية . وكان من المقرر أن تجري هذه الانتخابات يوم ٧ تموز ١٩٦٣ .

وهكذا لم يعد « ماسيتي » ، شمالاً ، قادراً على الغلو في آماله ، بعد أن أفهمه حقيقة الوضع رسل أوفدهم اليه « هوغو بلانكو » واستطاعوا لقاءه في « لا باز » . أما في الجنوب فكان من المتوقع إلى حد بعيد أن تبدأ حقبة دستورية يبطل خلالها قيام الشروط المسبقة المثالية لتمتع المغاورين بالتأييد الشعبي .

لقد كان غيفارا يقول :

– أن القوى الاقتصادية تتطور وتنتعش داخل أطر شرعية ، في شرعية تفرضها هي ذاتها على نفسها طلباً لمردود أفضل . ولكن حين تزداد الضغوط الشعبية فان هذه الشرعية البورجوازية ينتهكها صانعوها أنفسهم ليستطيعوا وقف اندفاعة الجماهير .

ومع ذلك ، كان الظاهر إذ ذاك أن الأرجنتين كانت تقطع هذا الطريق في اتجاه معكوس ، وان منتهكي الشرعية البورجوازية قد اختاروا أن يلوذوا بها من جديد ليوفروا لمصالحهم حماية أفضل .

أي أن المرحلة كانت ، آخر الأمر ، مرحلة انتقال . ومرحلة الانتقال هي دون ريب أقل الظروف مؤاتاة لاختيار طريق جديد .

ولكن « ماسيتي » كان قد اختار طريقه . وفي مزرعة « امبوروسا » البوليفية ، قريباً من حدود الأرجنتين ، كان قد بدأ توافد أوائل القادمين للالتحاق بما سمي فيما بعد « جيش المغاورين الشعبي » ، والذين كان اختيارهم يتم وفقاً لأسلوب معقد .

والظاهر أن « ماسيتي » لم يحاول التعاون مع المنظمات السياسية القائمة في الأرجنتين ، بل لم يسع حتى إلى الاتصال بها حقاً ، مما كان يمثل خروجاً صريحاً على التكتيك الكوبي ، اذ أن كاسترو كان قد عقد المفاوضات والاتفاقات مع كل الأحزاب السياسية والمنظمات المتنوعة التي أظهرت استعداداً للتعامل معه . يضاف الى هذا أن « ماسيتي » كان يخرق احدى « القواعد الذهبية » في حركة الغوار ، وذلك بحرمانه بؤرته الثورية من تأييد الجماهير الشعبية . هذا مع أن غيفارا نفسه كان قد تنبأ بأن حركة الغوار ستسحق لا محالة إذا لم يتهيأ لها هذا التأييد .

ما الذي فعله « ماسيتي » ؟ انه ، في آخر المطاف ، فضل أن يختار جنوده من بين نوعين من المقاتلين بالقوة : الطلاب ، والمنشقين عن الحزب الشيوعي .

وهؤلاء وأولئك كان في وسعهم أن يزودوه برجال مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل المثل الثورية . وهذا ما حدث بالفعل . ولكن كلتا الفئتين كانتا عاجزتين عن أن تقدما له تنظيماً في المدن ، بالغة ما بلغت ضآلته ، للقيام بعمليات التخريب والتحريض السياسي . وبالتالي فان ما أنشأه كان قوة غوار مؤلفة من أفراد يغلب أن تكون لهم شخصيات ممتازة ، ولكنهم آحاد فحسب ، منفصلون كلياً عن قوى البلد الاجتماعية . فاذا أضفنا إلى هذا أن الاعلان عن قرب قيام حكومة دستورية كان من شأنه أن يخفف كثيراً من حدة التوتر السياسي في الأرجنتين ، فهمنا مدى سوء الحظ الذي رافق

« ماسيتي » منذ البداية .

ذات يوم وصل الى « امبوروسا » الميكانيـــكي الاعزب « فيديريكو منديس » ، وهو في الرابعة والعشرين من عمره . كان أول المتطوعين. وبالتالي لم يكن عدد الملتفين حول زعيم حركة الفوار إلا اربعة أشخاص . ومع ذلك كان قد أصبح لهذه الحركة شعارها الرمزي : شمس مرسومة على خلفيـــة حمراء وسوداء . ويقول « ماسيتي » في تفسير هذا الانتقاء :

– الأحمر رمز دم الثورة . أما الأسود فشارة حزن لآلام الشعب .

وإلى الدم والآلام كانت أيضاً تتجه أفكار الطالب « خوان جوفيـــه » ، الأعزب ، البالغ ثلاثاً وعشرين سنة ، والذي يعمل في مدرسة تجاريـة يديرها الرهبان في ولاية « كوردوبا » فاستقال من عمله يوم ٢٣ آب ١٩٦٣ ووصل الى « تاريخا » البوليفية ، حيث ذهب الى استقباله الكوبي « هرمس بينيا » . وكان لخوان شقيق آخر أصغر منه ، يـدعى « اميليو » ، لم يلبث هو الآخر أن التحق بجماعة المغاورين .

وكانت مفاجأة كبيرة استبشر بها « ماسيتي » ، حين أدت الانتخابات العامة في الأرجنتين يوم ٧ تموز الى فوز طبيب ريفي مسالم ، هو « آرتورو ايليا » [١] مرشح الحزب الراديـكالي . فلقـد كان المفروض أن يتـــولى الرئيس المنتخب سلطاته في شهر تشرين الاول ، وظل « ماسيتي » طويـلاً يأمـــل أن يرفض العسكريون تسليمه السلطة ، اذ لو حدث ذلك لـكان عدد المنظمات السياسية والنقابية والشخصيات التي تكون قد فقدت كل أمل باتجاه الحياة العـامة في الارجنتين الى الديمقراطية ، يؤلف قوة حقيقية . وهي قوة لن تلبث أن تصطدم بالعسكريين المغتصبين ، فيبدأ العنف ، فتتبعه الفضبة الشعبية ، وبعدها قمع

---

(١) زعيم « الاتحاد الوطني الراديـكالي الشعبي » (وهذا الحزب في الأصل كان جناحاً في الحزب الراديـكالي معادياً لجناح فرونديسي) . ظل رئيساً للارجنتين من ١٩٦٣ حتى انقلاب الجنرال « أونغانيا » (في ٢٨ حزيران ١٩٦٦) الذي يحكم الأرجنتين اليوم حكماً عسكرياً.

أشد بطشاً بغية خنق المعارضة ... وهكذا ، من تموز إلى تشرين الأول عاش مغاورو المعسكر الصغير يتتبعون باهتمام بالغ مجرى الأحداث في بونس آيرس . ولكن ما أطلت الأيام الأولى من تشرين الأول حتى غدا واضحاً أن العسكريين صادقون في عزمهم على تسليم الحكم للدكتور « ايليا » . وفهم « ماسيتي » ان النموذج الكوبي لن يتكرر ، وانه لن يكون عليه أن يقاتل دكتاتوراً مثل باتيستا بل رئيساً مدنياً متواضعاً ، مستعداً للدخول في مفاوضات وتسويات مع كل الكتل الضاغطة في الأرجنتين ، وغير مستعد أبداً لاستخدام العنف كوسيلة للحكم .

وبين ٢٠ و ٢٥ أيلول اجتاز أفراد الحملة الحدود ودخلوا ارض الأرجنتين . ثم انقسموا فريقين اجتازا المنطقة الصحراوية وعبرا نهر « البرميخو » سباحة ، على بعد خمسة عشر كيلومتراً تقريباً من موقع صغير يدعى « آغواس بلانكاس» . هناك أقاموا معسكرهم الأول ، على ضفة نهر « بسكادو » . وبعد ذلك بقليل جلس « ماسيتي » يحرر كتاباً مفتوحاً يطلب فيه من الرئيس الجديد أن يستقيل وأن يعترف بأن انتخابه جاء ثمرة لصفقة غير شريفة وغير ديمقراطية في الأساس ، ما دامت القوة ذات الأكثرية — وهي البيرونية — منعت من التصويت لمرشحيها .

ونشر « الكتاب المفتوح » في بونس آيرس في مجلة أسبوعية يصدرها اليسار البيروني ، وهي مجلة « الرفيق » ، فأحدث ضجة محدودة في أوساط اليسار السياسية وكشف عن وجود « قائد معاون » يزعم حمل السلاح رفضاً لقرارات الناخبين . ولكن صوت « ماسيتي » بدا مخنوقاً أبح ، في تلك المجلة التي لا سبيل الى المقارنة بينها وبين الصحافة التي أيدت كاسترو ضد باتيستا ، كمجلة « بوهيميا » الكوبية التي كانت اذ ذاك ذائعة الانتشار .

على أن الرسالة ، برغم ذلك ، فتحت أعين دوائر المخابرات في الجيش والشرطة ، التي قررت فرض رقابة منظمة بغية معرفة أهمية جماعة « ماسيتي »

على حقيقتها . وهي في الوقت ذاته ألهبت بالطبع خيال بضـع عشرات من الشبان ، سلكوا الطريق إلى الشمال .

وكان « ماسيتي » قد أصدر « قانوناً انضباطياً » لمعاقبة الأخطاء والجرائم ، تتراوح فيه العقوبات بين فرض أعمال اضافية في المعسكر ، وانقاص الجراية ، وبين عقوبة الاعدام في الحالات القصوى . وكان رفاقه في المغامرة يسمونه « المعاون » ، اختصاراً للقبه الذي لم يكن اسماً مستعاراً فحسب بل كان من شأنه في الدرجة الأولى أن يذكر الجميع أن هناك قائداً عاماً وان كان غائباً بصورة مؤقتة . ولم يكن هذا القائد العام إلا « تشي » .

وكانت معنويات المغاورين على درجات ، ولكن أكثرهم قنوطاً كان دون ريب « ماسيتي » نفسه . وقد سيطر عليه هذا الشعور بنتيجة التطور السياسي في الموقف : لقد كان هناك من أجل تفجير الأزمة السياسية والاجتماعية الطويلة التي كانت تتخبط فيها الأرجنتين، فاذا مناورات الآخرين تضع على رأس السلطة رجلاً لا يؤذي ولا ينفع، ولا سبيل أبداً الى وصمه بالدكتاتورية. فكان« ماسيتي » كأنما وقع في مصيدة للفئران ، ولكن أسوأ ما في الأمر أنه هو نفسه لم يحاول النجاة من ورطته ، اذ رفض أن يعتبر نفسه في حل من عهده مع غيفارا ، مع أن انقلاب الموقف السياسي على تلك الصورة غير الملائمة كان يمنحه مطلق الحق في نقض هذا العهد .

ولقد كانت الحياة في الغابة العذراء في بوليفيا ، ثم في ولاية « سالطا » ، أقسى بكثير من كل ما كان المغاورون الكوبيون قد توقعوه ، على كل ما عركهم في الماضي من شدائد . كانوا مثلاً قد ألفوا في كوبا أكل « المالانغا » ، تلك الفاكهة المتوفرة في الغابات الكوبية ، فذاقوا ثمرة برية شبيهة بها في الغابة الارجنتينية العذراء فاذا هي ثمرة سامة ، عانى الذين أكلوا منها تشنجات وآلاماً مبرحة ، وظل بعضهم مريضاً بسمها حتى ساعاته الأخيرة .

والتقى سوء الطالع السياسي مع افتقاد مقومات البقاء على تنكيد عيش

الجماعة الصغيرة ، التي لم تكن بعد قد أتيح لها أن تخوض معركة واحدة ، فبدأت تثبط تدريجياً عزيمة مغاوريها الذين كانوا يعيشون بعيداً عن بيوتهم (بضعة آلاف من الكيلو مترات أحياناً) . وكان يبدو أن أكثرهم تأثراً ويأساً كان مجند لا يكاد يبلغ الرابعة والعشرين من عمره ، هو « أدولفو روتبلات » الذي يدعونه « بوبي » ، والذي كان يعاني من نوبات ربو مستمرة ، فلم يلبث أن أصبح عبئاً على رفاقه لأن وهن صحته كان يمنعه من القيام بمهماته كالآخرين . وفي النهاية ، أعلن انه سيهرب .

هذا القرار جاء يبلور أزمة معنويات المغاورين . لم يكن أمامهم عدو يرهبونه ، ولكن واحداً منهم كان قد أقسم يمين الطاعة للقانون الثوري فاذا هو ينوي التخلي عنهم . ولذلك ألفوا محكمة أدانت « بوبي » ، وكان العجيب أنها حكمت عليه بالموت . ودفتر مذكرات « الكابتين هرمس » لا يشير إلى هذا الحادث وأسبابه إلا بكلمات عابرة سريعة .

كانت عملية اجتياز الحدود أول مرة قد سميت « عملية دورادو » . وفي كانون الأول أمر « ماسيتي » رجاله بتنفيذ الجزء الثاني من خطته ، الذي سماه « عملية ترامبولينو » والذي كانت غايته نقل الأسلحة المخبأة في بوليفيا الى الأرجنتين .

وقام بهذه المهمة ستة أشخاص، عادوا بالاسلحة التي كانت موزعة في أكياس عسكرية على الطريق بين « برميخو » و « تاريخا » ، الأرض البوليفية .

وخلال ذلك كان المتطوعون لا يزالون يتوافدون : معمار أعور في الثالثة والعشرين ، لم تكن عاهته تسمح بتجنيده للقتال الفعلي فأسندت اليه مهمات المطبخ ؛ وطالب فلسفة في السابعة والعشرين ، ينتسب الى عائلة رخية العيش ، وكان جده لأمه أميرالاً ورئيساً لشرطة بونس آيرس قبل ثلاثة وثلاثين عاماً ؛ وطالب آخر في الخامسة والعشرين ، حديث الزواج ؛ وأخوان جاءا معاً الى المعسكر ، كانا « ميكانيكيين » عاطلين ؛ ومستخدمان في المصرف الاسرائيلي

في « كوردبا » كانا من قبل عضوين عاملين في الحزب الشيوعي ثم اختارا الكفاح المسلح ، فوصلا الى المعسكر وهما على مبلغ من الحماس جعل أحدهما ، « غروسوالد » ، يقتلع أظافر قدميه حتى لا تغرس في لحمه بالسير الطويل المتكرر في الغابة العذراء ؛ وعامل مبتدىء في الصناعة البترولية ، عاطل عن العمل ، في التاسعة والعشرين ؛ وبائع زهور في العشرين ، وطالب طب في الثانية والعشرين هرب من الجندية فهو ملاحق من قبل الجيش ؛ واسباني في التاسعة عشر من أبناء « فيغو » ؛ وبحار في الأسطول التجاري أتم عامه الرابع والعشرين قبل قليل .

وكان « الكابتين هرمس » ، ذراع « ماسيتي » اليمنى ، يقوم بتدريب هذا الخليط المتنوع من الجنود ، بينما كان رئيسه يجتر يأسه . لقد انتهى . انتهى لا بسبب ما كان جرى من أحداث بل لأنه كان يرفض الاعتراف بهزيمته السياسية . كان لا يستطيع صرف رجاله دون قتال ، ولكنه لم يكن يجد عدواً يقاتله . ولذلك كان العصاب يبلغ به درجة التفجر ، فيزداد انطواء على نفسه كل يوم .

وفي ١٩ شباط ١٩٦٤ عادت أزمة المعنويات تدب كالحمى في أعصاب رجال العصابة تهوي بأذاها مرة أخرى على المغاورين أنفسهم . كان « غروسوالد » ، الذي يلقبونه « ناردو » ، قد ارتكب سلسلة من الجرائم كعدم اطاعة الاوامر ، والانحراف عن المناقب الثورية ، واهمال صيانة الاسلحة والعتاد العسكري ، فحاكموه : رأس « الكابتين هرمس » المحكمة التي ظلت ثلاث ساعات متتالية منعقدة في الغابة العذراء ، حائرة ، تقلب الرأي في العقوبة التي يستحقها هذا الفتى الذي لا يكاد لا يبلغ التاسعة عشرة . وأخيراً انتصر رأي « ماسيتي » على تردد الآخرين ، وواقع الامر الذي لا يصدق مرة أخرى : حكموا على « غروسوالد » بالاعدام .

وطلب الفتى أن يعدم بالرصاص وهو في زي المحارب ، بعمرته السوداء ومسباته تهوى ، وحزامه ونظارتيه الدخنتين الخضراوين . وحين سمع نص الحكم

تصبب العرق على جبينه فسحه بمنديل أبيض بني الحاشية كان اشتراه قبل صعوده إلى الجبال . ثم جابه رفاقه في عزم ووعدهم أن يموت كما يموت الرجال . وأطلق النار عليه ثلاثة من المغاورين فاخترقت جسده رصاصتان على ارتفاع الضلعين الرابع والخامس ، ثم أجهز عليه « الكابتن هرمس » برصاصة مزقت خده الأيمن وخرجت من نقرته .

أكانت تلك ، حرب الغوار التي حلم « ماسيتي » و « غيفارا » أن يهزا بها الأرجنتين ؟ بكل تأكيد ، لا . و« القائد المعاون » كان يعرف ذلك حق المعرفة . ولكنه كان يفتش عبثاً عن طريقة للاتصال بالجماهير ، هذه الخطوة التي كان لا بد له منها لفك إسار العزلة الموحشة التي كان يحياها ، والتي كانت أصبحت مثقلة بالنذر ، وشددت منها على الصعيد النفسي استحالة اقامة اتصال برقي مع الخارج ، إذ كان قد تقين لهم منذ الأيام الأولى أن الجهاز الذي كانوا يأملون أن يصلهم حتى بهافانا لم يكن يصلح لشيء .

وفي خلال ذلك ، كانت أجهزة المخابرات قد أدخلت اثنين من عملائها بين المتطوعين في « جيش » الغوار . كان أحدهما يزعم أنه من أنصار بيرون ، مستعد لكل شيء في سبيل قلب الحكومة ، وقد اتصل ببعض الشبان وهم على وشك السفر إلى « سالطا » ، وقدم لهم صديقاً ، قال لهم انه مثله كان موطد العزم على كل التضحيات . وفي ٢ آذار ١٩٦٤ وصلا إلى معسكر المغاورين الأول حيث استقبلهم الكوبي « دافيلا » ورحب بهما في « جيش المغاورين الشعبي » . على أنهما لم يكادا يتلقيان سلاحهما ويبتعدان في اتجاه المعسكر الرئيسي حتى اصطنعا نزاعاً من لا شيء ، فأطلق أحدهما النار على المغاور الذي كان يسير في الطليعة ، وجرحه في فخذه .

اعتباراً من اللحظة ، يمكن القول ان السلطات اكتشفت مقر الحركة وبدأت حملة إبادتها . ففي الأيام التالية سقط عدد من المغاورين أسرى في يد رجال الدرك ، القائمين على حراسة الحدود والذين كلفوا بالقضاء على جيش المغاورين

الشعبي . ثم انقطعت موارد الطعام حين أحكم الحصار من حول المغاورين فأخذوا ، وقد عضهم الجوع ، يستسلمون الواحد بعد الآخر . ومات ثلاثة منهم خوراً بعد ان حاولوا مقاومة الجوع بأكل النباتات البرية . وداهم رجال الدرك واحداً من هؤلاء البائسين وهو في ذروة شجرة لجأ اليها هرباً من أنياب نمرين جبليين .

وفي أواسط نيسان وجد « الكابتين هرمس » وأحد مرافقيه نفسيهما على حين غرة أمام مخفر أمامي للدرك فقتلا أحد جنوده . وتلك كانت المناوشة الحقيقية الوحيدة التي خاضها المغاورون الأرجنتينيون . أما عقابيلها فلم يطل انتظارها : فلقد استطاع رجال الدرك أن يحددوا مكان « هرمس » ، وحاصروه ، فاستطاع أن يطلق ٢٨ رصاصة من سلاحه الآلي ، بينما أطلق رفيقه أربعاً من رصاصات مسدسه الست . ثم سقطا كلاهما صريعين .

وكان أربعة عشر رجلاً قد أصبحوا أسرى بين يدي رجال الدرك ، يسومونهم من العذاب أغزر ضروبه دماً وأحفلها بالمهانة . وقد جروا خمسة منهم من شعرهم ثم غطسوا رؤوسهم في أحشاء أولئك الذين سبقوهم إلى الموت ، وهم يخلطون القهقهات الماجنة بالشتائم المقذعة .

وخلال ذلك ، كان « ماسيتي » يزداد توغلاً في الغابة العذراء الكثيفة ، غابة « جوتو » ، وهي جهنم أشواك وحيوانات كاسرة ، أجشّ فيها النبت وتعالى حتى لتمشي فيها أياماً دون أن ترى الشمس . ثم لم يعد أبداً بعد ذلك ، ولا سمع أحد بنبأ عنه . لقد ابتلعته الغابة العذراء .

تلك قصة « حرب الغوار » الأرجنتينية ، كما كان غيفارا يعرفها في أواخر عام ١٩٦٤ . وقد أخذت على عاتقي، مع صديق عزيز على « تشي » هو المحامي « غوستافو روكا » ، ومع محامين آخرين من ولاية « سالطا » ، مهمة الدفاع عن المغاورين المعتقلين . ومن أقوالهم العلنية وأحاديثهم الخاصة معنا ، وتجارب العذاب الرهيبة التي مروا بها، تتألف صورة كاملة لتلك العملية الغوارية الحزينة

التي انقلبت كارثة مفجعة .

ومن الصعب أن نعرف ماذا كانت الأحكام النظرية التي استخلصها غيفارا منها . لقد التقى به « روكا » في باريس في مطلع ١٩٦٥ ، فكان أبرز ما لاحظه شدة تأثره لوفاة صديقيه الحميمين « ماسيتي » و « هرمس » . والحق أنهما ماتا ميتة الشجعان . كانا على مستوى غيفارا ، مستوى النفوس الكبار التي تضع البشر حيث آحادهم الأفذاذ لا كثرتهم السائمة . ولكن ، فيما عدا ذلك ، ما ذا كانت عبرة العملية ؟ ماذا كان جوابها على نظرية « البؤرة الثورية » ؟ وكيف نحلل اخفاقها ؟

كل هذا لم يعرف الجواب عليه إلا بعد سنتين . وغيفارا نفسه هو الذي أعطى هذا الجواب للعالم كله .

٢

لغز غيفارا

كانت مأساة « القائد المعاون » في جبال شمال الأرجنتين وغاباته العذراء هزيمة لحرب الغوار في أمريكا اللاتينية أحيطت بالكتمان أكثر من أية هزيمة أخرى . فالصحافة لم تشر اليها إلا لماماً ، وحتى المنشورات اليسارية تجنبت التورط في الحديث عنها خشية مغامرة بدا لكثيرين أنها كانت نتيجة استفزاز اصطنعته أجهزة المخابرات. وكانت هذه الخشية في غير محلها، لأن الواقعة الوحيدة التي يمكن أن تؤيد مثل تلك الافتراضات هي أن عميلين سريين استطاعا دون عناء أن يتسللا إلى جماعة المغاورين . أما جماهير الضواحي الصناعية المحيطة بالمدن الأرجنتينية فكانت عملياً تجهل أن جيشاً ثورياً بدأ نشاطه في الشمال . واما الفلاحون ، التي كانت رسالة الثائرين موجهة اليهم ، فيمكن القول انهم لن يسمعوا هذه الرسالة أبداً .

لقد كتب غيفارا يقول : « ان جماعة المغاورين التي تثبت أقدامها في المناطق الريفية ، والتي ترتبط بجماهير الفلاحين ، ستنمو يوماً بعد يوم ، وتحطم الجيش في معركة نظامية ، وتنتهي بالاستيلاء على المدن » .

و « ماسيتي » اتبع هذه التعاليم ، ولكن عشرة شهور من التضحيات ، على أرض جعداء يصعب تصور مثل قسوتها ، لم تبلغ بقوته المقاتلة ثلاثين رجلاً ، ثم أغرقت العزلة هؤلاء الرجال في قنوط عميق . فاذا كان « ماسيتي » قد استنتج شيئاً من تجربته فلا ريب أن أقسى ما انتهى اليه هو أنه كان مستحيلاً أن تنضم اليه جماهير الفلاحين ، أو أن ينضم اليها ، لمجرد أن مثل هذه الجماهير لا وجود لها في شمال الأرجنتين . فكثافة السكان في الأرجنتين منخفضة بصورة عامة ، ولكنها ضعيفة أقصى الضعف في مناطق الشمال الريفية . ولئن وجدت تجمعات لا بأس بها في مناطق زراعة قصب السكر والقطن واستغلال الغابات فهذه ليست أكثر من جزر معزولة في قلب صحارى حقيقية ، جرداء كلها أو شائكة يغطيها النبت البري ، فما يسكنها عملياً أحد . فما كان لرسالته اذن أن تقابل إلا بالحذر ، خالقة حوله فراغاً لا سبيل إلى ملئه .

وعلى هذا الصعيد كانت الحركة الكوبية أسعد حظاً بكثير من المغامرة الأرجنتينية : فلقد كان فيدل كاسترو شخصية معروفة جداً في الجزيرة قبل غزوة « غرانما » ، وكان مرشحاً للنيابة في حزب « بريو سوكاراس » [1] ، بارز النشاط في أوساط القيادات الطلابية ، وكانت دراسته في مدرسة ثانوية أرستقراطية قد جعلت منه صديقاً لعدد من الفتيان كانوا ، يوم بدأ الثورة ، يهيمنون على المشروعات وعلى مكاتب المحاماة الأكثر نفوذاً والأعلى مكانة في كوبا . أما « ماسيتي » فلم يكن يجهله الناس فحسب ، بل كان شبه مجهول حتى في وسط الصحافة الضيق ؛ وكان قد أمضى القسم الأكبر من حياته المهنية خارج الأرجنتين فلم تنشأ له صداقات بين ذوي المراكز الرفيعة ولا صلات سياسية متينة . وبالتالي لم يكن يستطيع أن يطمع بتأييد تلقائي له في المدن ، كما حدث في كوبا أيام حركة ٢٦ تموز .

---

(١) رئيس كوبا قبل باتيستا . وقد عاد اليها بعد انتصار الثورة .

على أن المغامرة الأرجنتينية ، إذا نظرنا اليها من زاوية أخرى ، كانت مصدراً لخبرة هامة : فلقد جاب « ماسيتي » جنوب بوليفيا وشمال الأرجنتين مدى عشرة شهور دون أن يواجه مصاعب كبيرة . ولئن صح أنه ورفاقه اضطروا بعد مغادرتهم كوبا إلى القيام برحلة معقدة ، فقد تمت هذه الرحلة بصورة طبيعية ، وعبروا خلالها الحدود دون أن يثيروا الشبهات . ثم لم تتنبه أجهزة الأمن الداخلي الأرجنتينية لوجوده ولم تبدأ بتعقبه إلا بعد أن أرسل كتابه المفتوح إلى الحكومة الأرجنتينية . ولقد كان هذا ، دون ريب ، أحد الدروس الإيجابية التي تعلمها غيفارا من مأساة « ماسيتي » . ولكنه برغم ذلك ، وفي الخطوط العامة ، لم يدخل تعديلات هامة على خططه الأساسية ، كما سنرى فيما بعد .

وهذا يرجع إلى أكثر من سبب . فعلينا أن نحاول الاحاطة بمجموع الدوافع التي جعلت « تشي » يكرر طريق « ماسيتي » بصورة شبه آلية ، ثم يصل عملياً إلى نفس النتيجة ، مهما بدا ذلك عسير التصديق .

وأول ما يخطر للذهن ، في تحليل العوامل التي دفعت « غيفارا » إلى الحرص على توسيع مدى حرب الغوار في أمريكا الجنوبية ، هو مسألة وضع غيفارا الشخصي في كوبا وعلاقاته الخاصة مع فيدل كاسترو .

في نظر البلدان المتقدمة ، كان تصنيع كوبا ، كما رسمت نهجه خطة غيفارا عام ١٩٦١ ، أقرب إلى أن يبدو فشلاً كاملاً على الصعيد التقني . فلقد ارتكبت كوبا – ولم يكن لها معدى عن ذلك – جميع أخطاء التنظيم والتخصص التي مرت بها البلدان المصنعة في هذه أو تلك من لحظات تنميتها : أنشئت المصانع حيث لا ماء يكفي ولا طرق ولا كهرباء . وكان هناك أحياناً افتقار إلى اليد العاملة ، ودائماً تقريباً ارتجال لأهل الاختصاص . وارتفعت كثيراً هجرة سكان الريف إلى المدن ، تحت تأثير الفعاليات الصناعية التي من شأنها دائماً أن تكون بالغة الجاذبية في البلدان الزراعية . وبينما كانت تجري دراسة وسائل تنظيم

الصناعة كانت الزراعة تبتلى بالفوضى : فتفتقر بعض القطاعات إلى اليد العاملة بينما ينخفض الانتاج في قطاعات أخرى بسبب تعديلات نظام العمل التي يسوق اليها الانتقال إلى الاشتراكية . وهكذا فان الحركة الهادفة إلى جعل كوبا بلداً صناعياً أدت ، على المدى القصير ، إلى نفس المحاذير التي عرفتها الأرجنتين أو البرازيل حوالي العام ١٩٤٥ ومن الجدير بالملاحظة أن كوبا ، في بداية عهدها بالتصنيع ، تلقت من الاتحاد السوفياتي نفس النصائح التي تلقتها الأرجنتين والبرازيل قبل ذلك من الولايات المتحدة : وهي أن على البلدان الزراعية ، لأسباب اقتصادية ، أن لا تأخذ بالتصنيع ، وأن من مصلحتها أن تستورد منتجات البلدان الصناعية . يضاف إلى هذا أن المنطق السوفياتي بشأن كوبا كان يستند إلى ضآلة حجم السوق الكوبية وإلى أن كوبا لم تكن تستطيع أن تطمع بتصدير انتاجها إلى أي من جيرانها . وبالتالي فان عزلتها السياسية والاقتصادية تجعلها رهينة احتياجات البلدان الوحيدة التي يمكن أن تتجه اليها بالطلب ، وهي الاتحاد السوفياتي والبلدان الأوربية الاشتراكية والرأسمالية ؛ وكل هذه البلدان لا يمكن أن تشتري من كوبا إلا منتجات زراعية .

من أجل هذا كان الشرط الأول لنجاح خطة غيفارا هو أن تستمر المعونة السوفياتية المتسامحة وقتاً أطول من ذلك الذي بنيت الخطة على أساسه في الأصل . ولكن ، من جهة أخرى ، كان يجب أن تتوفر لكوبا سوق تصدر اليها منتجاتها الصناعية ؛ وكيما تصبح هذه السوق حقيقة كان ينبغي أن تأخذ دول أخرى في أمريكا الوسطى والجنوبية بنظام شبيه بالنظام الكوبي . ولو حصل هذا لاصطدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . ولذلك تقضي الضرورة أن يتعهد الاتحاد السوفياتي بأن كوبا لن تحاول بعد الآن نشر نظامها السياسي خارج حدودها ، وهذا يستتبع نهاية تسامح موسكو ، ومعها نهاية برنامج التصنيع ونهاية الجزية الثقيلة التي كان لا بد من دفعها ثمناً له .

وفي ختام ١٩٦٤ كان كاسترو موافقاً على اخضاع كوبا لتقسيم العمل في العالم

الاشتراكي . ولكن غيفارا كان يعارض ذلك . كان قد قال لي عام ١٩٦٣ :
– إذا ظلت كوبا بلداً زراعياً ، واستأنفت كونها مخزن سكر للعالم ، فان ذلك سيهدد بقاء الاشتراكية ذاته . كما أنه سيجعل كوبا من الضعف على الصعيد الدولي بحيث تمسي رهينة لحماية الاتحاد السوفياتي خاضعة له الخضوع كله . ونحن لم نقم بالثورة لنصل إلى هذه النتيجة .

وإذا كان لا ثورة بلا تصنيع ، فلا صناعة أيضاً بلا أسواق ، وللحصول على الأسواق كان ينبغي للحركة الثورية أن تنتشر في أمريكا اللاتينية . ولو حصل ذلك لطلبت الولايات المتحدة حساباً عنه من الاتحاد السوفياتي ، فيطلب هذا من كوبا تطبيق ارادته الحريصة على التعايش السلمي ، فاذا لم يلق طلبه أذناً صاغية انتهى عهد قبول التسوية والحلول الوسط مع النظام الاشتراكي الكوبي . وإذ ذاك أيضاً تمتنع الثورة عن أن تكون ، لأن الجميع كان يعلم أن القوة السوفياتية الجبارة هي وحدها القادرة على موازنة قوة الولايات المتحدة وعلى منعها من هجوم على كوبا يلغيها من الوجود : حلقة مفرغة لم يكن إلى الخروج منها سبيل .

في آذار ١٩٦٤ ذهب « تشي » إلى جنيف على رأس الوفد الكوبي إلى المؤتمر العالمي للتجارة والتنمية [١] . وهناك أبرز ما تتعرض له التجارة العالمية والسلام من خطر مبعثه استثمارات رؤوس الأموال الأجنبية التي تنتهي بالسيطرة على اقتصاد البلدان من الداخل . كما اقترح أيضاً أن يتم الاتفاق بين جميع الدول على وقف دفع أرباح الديون والفوائد والاستهلاكات ، طالما استمرت البلدان المتخلفة محرومة من الحصول على تعويضات تعدل من أسعار منتجاتها التي ما تنفك تنخفض بارادة البلدان النامية المشترية لهذه المنتجات .

---

(١) عقد هذا المؤتمر من ٢٣ آذار الى ١٦ حزيران ١٩٦٤ تحت رعاية الأمم المتحدة ، واشتركت فيه ١٢٠ دولة ، ونوقش فيه برنامج لمساعدة البلدان المتخلفة. وقد انتهى المؤتمر بقرار ختامي اقترحته دول أمريكا اللاتينية ووافقت عليه جميع دول العالم الثالث .

وبعد انتهاء المؤتمر قضى يومين في باريس ثم ذهب إلى الجزائر . وكان اذ ذاك على علاقات طيبة جداً مع بن بللا ، فكانت احدى نتائج هذه الرحلة أن قام الرئيس الجزائري ، بعد أشهر ، بسعى لدى حكومة واشنطن يدعوها إلى اقامة علاقات طبيعية بين الولايات المتحدة وكوبا . قال للمسؤولين الامريكيين :

— انني لا أفهم كيف تقبل الولايات المتحدة مد خط تلفوني مباشر بين البيت الأبيض والكرملين ثم تعترض على حق الشعب الكوبي في اختيار شكل الحكم الذي يراه أنسب له .

وفي تشرين الثاني ١٩٦٤ ارتحل غيفارا من جديد متجهاً إلى موسكو . كانت تلك زيارته الثالثة للاتحاد السوفياتي ، ولكن رحلته هذه المرة انقلبت إلى تطواف بالعالم ، دام أكثر من أربعة أشهر .

ومن المؤكد أن هذه الزيارة للاتحاد السوفياتي كانت منشأ الخلافات العميقة التي ظهرت فيما بعد،وأنها اقنعت غيفارا نهائياًبأن الروس كانواعلى استعداد لقبول شكل ما من أشكال التعايش السلمي مع أمريكا الشمالية ، تعايشاً يستند إلى تقسيم العالم كتلتين تحترم احداهما الأخرى ، ويجعل من الضروري اللازب تقسيم العمل بين دول كل كتلة . وكان هذا ، بالنسبة إلى كوبا ، يعني أن قدرها هو أن تظل بلداً زراعياً ، وأن وضعها كأمة سيزداد بذلك ضعفاً على ضعف .

هذه المناقشات مع السوفياتيين تركت أثرها على الخطاب الذي ألقاه يوم ١١ كانون الأول ١٩٦٤ أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة . وكان قد وصل إلى نيويورك بصورة مفاجئة مع الوفد الكوبي ، وبدا لبعضهم أنه ، وهو يخطب ، كان يتكلم أيضاً باسم الرئيس الجزائري بن بللا . قال في هذه المناسبة :

« ان الامبريالية الأمريكية حاولت اقناع الناس بأن التعايش السلمي أمر لا يعني إلا الدول العالمية الكبرى فحسب. ولكن التعايش السلمي لا يمكن جعله وقفاً على الكبار إذا كان المطلوب ضمان سلام العالم . التعايش السلمي يجب أن

يمارس بين جميع البلدان ، بصرف النظر عن حجمها وعن علاقاتها التاريخية السابقة وعن المشاكل التي قامت بين هذا وذاك في وقت من الأوقات » .

وفي الأسبوع ذاته أجرى غيفارا حديثاً في تلفزيون نيويورك في اطار برنامج « وجهاً لوجه مع الأمة » ، فصاح في هذه المناسبة : « كل ما تطلبه كوبا من الولايات المتحدة هو أن تنساها . لا تريد منها خيرها ولا شرها » .

ولكن هذا الحديث الموجه إلى الجمهور الأمريكي أثبت أن محادثاته في موسكو كانت أيضاً ثقيلة الوطأة على نفسه . وقد اعترف فيه بما تضمنته خطط التصنيع من أخطاء ، واعداً بمعالجتها ، ومؤكداً أن قيام علاقات طيبة مع الولايات المتحدة سيكون « جزيل النفع » لكوبا .

وفي الشارع صفرّ له بعض أعداء كاسترو ، ولكنه ظل برغم ذلك هادئاً ثابت الجنان .

وفي ١٧ كانون الأول غادر نيويورك إلى الجزائر ، ماراً بكندا ، فاستأنف محادثاته مع بن بللا ، فكان في ذلك توكيد للانطباع بأن محوراً اشتراكياً كان ينشأ بين كوبا والجزائر ، ولكنه محور مستقل . وفي يوم عيد الميلاد طار إلى « باماكو » في « مالي » ، فكانت لهجة خطاباته لاهبة من جديد . قال :

— ان الكفاح الثوري ضد تدخل الولايات المتحدة يكتسب يوماً بعد يوم طابعاً يجعله شاملاً لأكثر من قارة ...

هذه الجولة السياسية جعلت من غيفارا رسول كوبا في العالم الثالث ، الذي شملت رحلته العديد من عواصمه ، مؤيداً بصورة ضمنية بدعم بن بللا ، الذي كان يسعده أن تسمع افريقيا أحاديث عن الثورة الجزائرية ، أكثر ثورات القارة السوداء جوداً بالضحايا وأكثرها غنى بالآمال .

ففي برازافيل عاصمة الكونغو ، حيث وصل في مطلع كانون الثاني ١٩٦٥ ،

استقبله الرئيس « الفونس ماسيمبا ديبا »[1] ، الذي تبادل معه الحديث حول ظروف الكفاح ضد الامبريالية في افريقيا . ثم ذهب بعدها إلى كوناكري في غينيا وإلى آكرا في غانا : جولة ما كان من شأنها أن تهدف إلا إلى سبر موقف الحكومات الافريقية من الدعوة إلى تبني سياسة موحدة تحت زعامة الجزائر .

وفي غانا ، تاحت لغيفارا لحظة قصيرة عاد فيها إلى هواه السابق ، فذهب إلى حديقة النبات « آبوري » ، على ثلاثين كيلو متراً من العاصمة ، وقضى ساعة سعيدة يتملى فيها أنواع النبت الافريقي المجتمعة فيها ، محققاً بعد لأي حلماً من أحلام صباه . كما ذهب إلى مشاهدة السد البالغ الضخامة الذي كانوا يبنونه على نهر « الفولتا » .

وكان من أقواله في غانا ، في معرض حديثه عن حروب التحرير :
– ان كولومبيا وفنزويلا وغواتيمالا أصبحت الآن ذات خبرة عميقة بالكفاح المسلح . لقد مرت بها هزائم ، هنا وهناك ، ولكن من الضروري معرفة هذه الهزائم كيما يستفيد الكفاح المقبل من التجربة » .

وفي نهاية الشهر كانوا ينتظرونه في داهومي ، فذهب اليها ، ولكن بعد أن زار في غانا معسكراً للفرق العمالية ، قدموا له فيه رداءً تقليدياً يرتدونه في الاحتفالات ، فتلقاه بسرور كبير .

ومن داهومي طار إلى الجزائر ، حيث تحدث عن انطباعاته مع زعماء الثورة ، ومنها سافر إلى باريس .

وكان ينتظره في باريس واحد من أقرب أصدقائه وأقدمهم ، هو المحامي الأرجنتيني « غوستافو روكا » . كانا صديقين منذ أيامها في مدرسة « كوردوبا»

---

(١) كان « ماسيمبا ديبا » وزيراً للتخطيط ثم رئيساً للجمعية الوطنية في ظل رئاسة الأب « فولبر يولو » ، ثم تزعم حركة المعارضة التي أطاحت بهذا الأخير ، فأصبح رئيساً للحكومة المؤقتة ثم رئيساً منتخباً لجمهورية الكونغو (برازافيل) عام ١٩٦٣ .

الثانوية ، وكان « روكا » قد زاره في كوبا بضع مرات . ولكن لقاءهما هـذه المرة كان حزيناً ، اذ كان « روكا » يحمل لغيفارا ملفاً كاملاً عـن مغامرة « ماسيتي » ، وموجزاً لاعترافات المعتقلين الذين تولى الدفاع عنهم أمام المحاكم ، ودلائل قاطعة على موت « ماسيتي » و « هرمس بينيا » . وصحيح أن ما انتهت اليه هذه المأساة لم يكن إلا نكسة تعثرت بها الثـورة في أمريـكا اللاتينية ، ولكن غيفارا استشعرها كهزيمة شخصية له .

وفي شباط سافر إلى دار السلام ، في تانزانيـا ، حيث كشف النقاب في احدى خطبه عن حقيقة معنى جولته الخاطفة في افريقيا :

— بعد أن تحدثت مع زعماء سبع دول افريقية ، أصبحت قانعـاً بان في الامكان خلق جبهة مشتركة للكفاح ضـد الاستعمار والامبريالية والاستعمار الجديد .

وفي ١٩ شباط حملته الطائرة إلى القاهرة،حيث عاد الاجتماع بواحد من زعماء الثورة الكونغولية ، هو « غاستون سوميالو » ، الذي كان قد التقى به قبـل سنتين في طائرة تجوب السماء الافريقية .وكان «سوميالو» رجل أدغال في الخامسة والأربعـين من عمره ، قضى أربعة عشر عاماً يقاتل في صف الوطنيـين الكونغوليين . وكان رجلاً ذا أسطورة ، هي أنه من قبيـلة لومومبا ، ولكنها كانت أسطورة كاذبة . أما ما كان حقاً فهو أنه وقف إلى جانب لومومبا في كل معاركه السياسية ، وأنه كان واحداً من أبرز الزعماء الشعبيـين في بلده ، وأنه قضى عدداً من سنواته الأخيرة في سجون مختلفة . وكان « سوميالو » في أيلول ١٩٦٤ قد أعلن قيام « جمهورية الكونغو الشعبية » واختـار « ستانليفيل » عاصمة لها ، وكان وزيراً للدفاع في حكومة هذه الجمهورية .

كان « سوميالو » دائم المراوحة بين « ستانليفيل » والقاهرة ، حيث كان للحكومة الكونغولية الثورية مقر في الزمالك ، حي السفارات في العاصمة . هناك كان ينعقد المجلس الأعلىللثورة تحت قيادة مكتب كان « سوميالو » رئيسه

و « بيير موليله » و « لوران كابيلا » نائبين له : « موليله » يقود الكفاح المسلح في منطقة « ليوبولدفيل » وولاية « كاساي » ، و « كابيلا » يتزعم العصيان في « كاتنغا » و « كيفو » . وكانوا ثلاثتهم ينظرون إلى حرب الغوار نظرة غيفارا : إذ أنهم كانوا يفتقدون الكوادر السياسية في المدن ، ولذلك قرروا خلق جيش حقيقي في الأدغال ، مقتنعين بأن المدن لا بد لها آخر الأمر أن تستسلم .

وكان غيفارا يشعر بمودة صادقة العطف نحو الثورة الافريقية ، وقد هزه حزن عميق حين بلغه نبأ مقتل لومومبا في كانون الثاني ١٩٦١ ، واجداً في فقدانه خسارة عظمى تتجاوز الصعيد السياسي . وكان الثوريون الكوبيون قد رفعوا اسم لومومبا حتى النجوم فلم يعد أحد في الجزيرة يجهل مأساة هذا الزعيم الكونغولي .

وتبادل غيفارا وسوميالو الدعوات : دعي سوميالو لزيارة كوبا حيث كانت الثورة في السلطة ، ودعي غيفارا إلى القتال في الكونغو حيث كانت الثورة لاتزال وهماً وكانت المنازعات القبلية تزيد من تعقد الوضع السياسي .

وفي ٢٤ شباط ١٩٦٥ اشترك غيفارا في جلسات الندوة الاقتصادية الافريقية الآسيوية في الجزائر . وهناك طلب أن تمنح كوبا حق إسماع صوتها في هذا اللقاء الذي يجمع الشعوب الافريقية والآسيوية ، وأعلن في خطابه : « من الواجب أن نقابل عدوان امريكا الشمالية الامبريالية على فيتنام والكونغو بمد هذين البلدين الشقيقين بكل وسائل الدفاع الضرورية ويجعلها واثقين بتضامننا معهما ، مهما حدث » .

فهل تراه فكر اذ ذاك أن يقاتل شخصياً إلى جانب المغاورين الكونغوليين؟ قد يكون ذلك موضع شك ، ولكنه ليس بالأمر المستبعد .

لقد عاد بعد ذلك إلى القاهرة ، في مطلع آذار ١٩٦٥ ، ليستأنف محادثاته مع ثوار الكونغو . واذ ذاك فهم أن ما بينهم من نزاعات كان يعكس ما خفي

من الصدام بين الصينيين والسوفياتيين حول « التكتيك » الواجب الاتبـــاع في افريقيا .

ودعاه الرئيس جمال عبد الناصر لمشاهدة بناء سد أسوان ، المعجزة الـتي اشتركت فيها الخبرة السوفياتية والجهـد العربي ، فكانت تلـك آخر مراحل جولته السياسية الطويلة ، بين موسكو ونيويورك وافريقيا .

وفي ١٤ آذار حطت طائرته في هافانا ، حيث استقبله كل أعضاء الحكومة ، ولكــن دون مواكب ولا مراسم . فكان هناك فيــدل كاسترو ، والرئيس « أوسفالدو دورتيكوس » ، والزعيمان السياسيان « كارلوس رفائيـل رودر يغيز » و « اميليو آراغونس » . كذلك كانت هناك امرأته الحامل ، وكان صديقه « روكا » الذي أبصره من بعيد فحسب لأن كاسترو « اختطفه » فوراً في سيارته .

ولم يستطع « روكا » لقاء غيفارا إلا بعد مرور يومين . وفي هذا اللقاء روى له « تشي » أنه أدار حديثاً مع كاسترو استمر قريباً من أربعين ساعة متتالية ، وأنه في هذا الحديث قدم له تقريراً شفهياً مفصلاً كل التفصيل عـن جولته . ولم يلمح غيفارا إلى أي شجار بينه وبين زميله في الثورة ، ولكنه بعد قليل طلب من « روكا » ان ينقل إلى والد «هرمس بينيا» — وهو فلاح عجوز — نبأ مصرع ابنه في أرض الأرجنتين النائية ، فقبل « روكا » المهمة ثم تراجع عنها ، متذرعاً بأنه لن يملك الشجاعة الكافية لها ، واذ ذاك أجابه غيفارا أنه سيتكفل بذلك هو نفسه .

وكان « روكا » على وشك أن يعود إلى بونس آيرس ، فقـال له « تشي » انه سيحمله رسالة إلى أمه . والصفحتان اللتان تتألف منهما هذه الرسالة تضمان أكمل ما يعرفه الأخصاء من معلومات بشأن خلوته الطويلة مع كاسترو .

في هاتين الصفحتين ينبىء غيفارا أمه أنه يتهيأ للتخلي عن دوره كزعيم ثوري في كوبا ، وانه يعتزم العمل طوال شهر في حقول قصب السكر ، على

أن يقضي بعد ذلك خمس سنوات في أحد المصانع كيما يدرس من الداخل مسار واحدة من تلك الصناعات الكثيرة التي كان من قبل يوجهها من القمة .

فهل كان حقاً يعتقد أنه سيكون قادراً على ذلك ؟

هذا ممكن . لقد كان « تشي » يرتبط بأمه بعلاقات غير تقليدية لا تقف عند حدود الأمومة والبنوة . كانت أمه « سيليا » رفيقة طيبة له مؤتمنة على أخص أسراره . وكانت مصابة بالربو ومشبعة بروح التمرد والأدب السياسي اليساري .

وكانت الرسالة بالاضافة إلى ذلك تحوي عنصراً هاماً ، هاماً بما يتيح افتراضه لكل من يحاول تحليل تلك الحقبة البالغة الغموض والبالغة الحسم في حياة « تشي » : **فلقد كان يطلب من امه أن لا تأتي الى هافانا تحت أية ذريعة .**

فهل كان يخشى شيئاً ؟ أم أنه كان ينوي مغادرة الجزيرة ، وان كان قبل سطور قليلة فحسب قد أبلغ أمه أنه سينصرف إلى قطع قصب السكر وادارة المصانع ؟

كانت رسالة « تشي » تحمل تاريخ ١٦ آذار ١٩٦٥ ، وقد سلمها « روكا » إلى أمه يوم ١٣ نيسان ، لدى عودته من رحلته في أوربا .

واستدعتني « سيليا » ، وأعطتني الرسالة لأقرأها . كانت تلك قد أصبحت عادتنا منذ بضع سنوات ، كلما وصلت رسائل من غيفارا . وهذه الرسالة الأخيرة تركتنا كلينا أسيري الحيرة . ولكن « سيليا » لم تلبث أن استعادت روعها وسألتني هل من رسول مأمون تستطيع أن تحمله جوابها على رسالة « تشي » . وكان هناك قائد نقابي على أهبة للذهاب إلى هافانا لحضور احتفالات أول أيار بدعوة من حكومتها ، فاقترحت أن أسلمه هذا الجواب ووافقت هي على اقتراحي . وإذ ذاك انصرفت إلى كتابة الرسالة التي يلي نصها ، والتي تنشر الآن لأول مرة :

بونس آيرس في ١٤ نيسان ١٩٦٥

يا حبيبي ،

. أصحيح أن رسائلي تبدو لك غريبة ؟ انني لا أدري هل أضعنا اللهجة الطبيعية التي كنا نتخاطب بها، أم أننا لم نتخاطب قط الا بتلك اللهجة التي تشوبها لمسة من السخرية ، لهجة أولئك الذين يعيشون شمال نهر « البلاتا » وجنوبه ، التي يزيد من انغلاقها مصطلحنا العائلي الخاص الذي نتفاهم به .

والواقع أن قلقاً عظيماً كان يصرفني دائماً عن هذه اللهجة الساخرة إلى تعبير أكثر بساطة . فلعل هذا هو الذي يسبغ الغموض على رسائلي فتبدو لك غريبة ملغزة .

ان هذا الأسلوب« الدبلوماسي » الذي تنحوه رسائلنا يضطرني أن أقرأ بين السطور معناها الخفي ، وأن ألجأ إلى التأويل . ولقد قرأت رسالتك الأخيرة كما لو كنت أقرأ الأخبار التي تنشرها « لا برنسا » أو « لا ناسيون » [1] في بونس آيرس ، محاولة أن أستخلص من كل جملة معناها الحقيقي وغرضها الذي تهدف اليه .

وهكذا تجدني غارقة في بحر من الشكوك ، وأسيرة لجزع أكبر من ذي قبل .

ولن ألجأ إلى الأسلوب المبطن ، بل سأكون صريحة : إنه في رأيي لجنون أن يفكر أولئك القلائل القادرون على التنظيم في كوبا بالانصراف إلى قطع قصب السكر مدى شهر بكامله ، بينما الشعب غني بمن يحسنون هذا العمل بين الفلاحين . ولو أنك فعلت هذا تطوعاً ، في الساعات

(١) جريدتان تمثلان الاتجاه المحافظ ، بل البالغ الرجعية أحياناً ، في الأرجنتين . ويمتاز أسلوب تحريرهما بتحفظ يترك للقارىء مجالاً رحباً للتفسير ، وللحيرة أيضاً بالطبع . (المترجم)

التي اعتاد الناس أن يخصصوها للراحـــة أو للتسلية أيام السبت أو الأحد ، اذن لكان له معنى آخر . بل ان هذا ليصح أيضـاً لو قضى المرء فيه يومه كله ليثبت بالدليل القاطـــع مزايا وضرورة استخدام الآلات بدلاً من السكاكين في قطع القصب ، ما دام الحصـــاد ومقدار أطنان السكر المنتجة هما اللذان يأتيان بما تحتاجه كوبا من عملة أجنبية.

أما شهر بكامله فكثير من الوقت المهدور . ولا بد أن يكون لذلك أسباب أجهلها . وإذا كان حقاً أنك بعد هذا الشهر تعتزم ادارة أحد المصانـــع – وهي مهمة بلـــغ بعض النجـــاح فيها أناس مثـــل « كاستليانوس » و « فليبيفاس » – فيبدو لي أن الجنـــون يتحول إلى خرق مطبق ، لا سيما إذا كانت نيتك أن تنصرف إلى هذا العمل وحده خمس سنوات لتصبح « كادراً » حقيقياً .

انني ، لما كنت أعرفه من بالغ حرصك على أن لا تغيب يوماً واحداً عن الوزارة ، قد تساءلت حين طالت سفرتك في الخارج كل هـــذا الطول : هل سيظل أرنستو وزيراً للصناعة لدى عودته إلى كوبا ؟ ولمن كانت الغلبة في نقاش العوامل التي لا بد أنها كانت وراء هذا القرار ؟

أما الجواب فأنا أعرفه تقديراً . فـــاذا كنت ستنصرف إلى ادارة أحد المشروعات فلأنك لم تعد وزيراً . وسيكفي أن نعرف اسم خلفك هـــل حسم النزاع بأسلوب حكيم . ولـــكن من الحرام ، أياً كانت الحال، أن يهدر شخص مثلك خمس سنوات في ادارة مصنع. وليس هذا برأي أمك . انه رأي امرأة عجوز تطمح أن ترى العالم كله يهتدي إلى الاشتراكية . فاذا أصررت على قرارك فما أظنك ستكون خادماً نافعاً للاشتراكية العالمية .

فاذا كان الطريق في كوبا مسدوداً لسبب أو لآخر ، فانفي الجزائر رجلاً يدعى بن بلا سيسعده كل السعادة أن تذهب فتنظم اقتصاد بلاده

أو تعينه على أداء مهمته بنصائحك . و كذلـك شأن نكروما في غانا . بالطبع ، ستكون غريباً هناك ، ولكن يبدو أن هذا قدرك .

ما أسوأها رسالة ، كأنها خطبة واعظ ! ولكني سأرسلها اليك على حالها وإن كنت أود لو مزقتها .

ملأني غبطة أن أتلقى صور أسرتك . ما أحب أولادك جميعـــاً ، وان لم يكن أي منهم يذكرني بقسماتك ولا بتعبير وجهك. ويسرني أن تكونا قد توقفتما عن « الانتاج » ، فلقد كنت شديدة القلق خلال حمل « آلبيدا » الأخير .

«غ» و «خ» لا ينفكان يمتدحان جمال حبيبتك التي تحجبها عـــن الناس ، وكان يسرني لو أنك أرسلت لي صورتها أيضـــاً ، فملامحها الغريبة ورقتها وملاحتها الشرقيتان تجعل صنواً جمالها لجمال « فلورنسا» ابنة « روبرتو » الكبرى ، وهذا ليس بالقليل .

روى لي «خ» أنك أردت أن تقص عليه خبراً يتعلـق بي فأتعبت نفسك بلا طائل ، لأني كنت أبلغته اياه من قبل : ١٥ إلى صفر ...

«خ» و «غ» ، كلاهما ، ترك في نفسها أطيب الوقع ما قطعته كوبا من طريق في اتجاه التنظيم .

ولأنتقل إلى موضوع آخر . أظن أني ذكرت لك من قبـل أن « لويس » و « سيليا » افترقا . وكان « لويس » يريد أن يسافر إلى كوبا للعمل فيها ، وهو رجل ذو مواهب حقـاً ، ولكنه الآن لا يدري أي قرار يتخذ لأنه يتساءل في أية وجهة ستسير الأمور .

ومنذ شهر فحسب ، أصبح « خوان مارتين » أباً لصبيّ آخر .

يحزنني حقاً أن لا أستطيع الذهاب إلى كوبا بعد الآن . فلقد كنت أتمنى من كل قلبي لو أني إلى جانبك ، ولو اكتفيت أن أقول لك كل يوم « صباح الخير » و « إلى اللقاء » . أن هذه الكلمات ، إذ تتكرر يوماً

بعد يوم ، تغنني بقيمة خاصة بها . وكنت أود التعرف إلى « سيليا » وإلى « ارنستو » الصغير ، والاستماع إلى ثرثرة « آليوتشا » . لا بأس ، ليكن ذلك في فرصة أخرى ...

قبلاتي لك ، لك ولأسرتك جميعاً .

سيليا

لا تنسَ أن تمانق « ايليسيو » نيابة عني .

كتاب «الجيولوجيا الكوبية» التي أرسلته إليّ لتسليمه إلى الدكتور « كاتالانو » يضعني أمام أزمة ضمير . فالدكتو « كاتالانو » يحتل منصباً رفيعاً في وزارة المناجم في حكومة « ايليا » وله ابنة أخ ديمقراطية مسيحية ينقاد اليها مسلوب الارادة . فلعله ينبغي أن توضع له مع الكتاب كلمة إهداء كتلك التي بعث بها بتهوفن إلى نابليون وهو يهديه سمفونيته الخامسة : « إلى الرجل العظيم الذي كنته » .

ولقد كان لرسالة « سيليا » إلى ابنها مصير غريب ، يكاد يشوبه بعض السحر . فهي اذ كتبتها يوم ١٤ نيسان في قلق بالغ ، كانت في الوقت ذاته بداية انهيارها الجسدي بصورة نهائية . وفي ذلك المساء ، حوالي منتصف الليل ، حين نزلت لتفتح لي باب المنزل القديم الذي كانت تقطنه ، لم تستطع أن تصعد الدرج ثانية الا ببالغ العناء ، ومستندة إلى ذراعي ، أكاد أحملها . وقد أنبتها لأنها لم تلجأ إلى طبيب يعالجها ، فأجابتني أنها كانت متعبة فحسب . أما الحقيقة فهي أن « سيليا » كانت راسخة الاعتقاد بأنها مصابة بالسرطان منذ استأصلوا من ثديها دملة شريرة ، قبل عشرين سنة . وقد كان لهذه العملية بالغ الأثر في نفس غيفارا ، وكان اذ ذاك في بداية دراسته للطب ، فساقته عاطفة البنوة وحبه للبحث إلى أن ينشىء مختبراً صغيراً قضى بضعة أسابيع يجري فيه تجارب على الأرانب وعلى بعض محلولات البترول .

كان السرطان إذن يخوض معركته الأخيرة ضد أم « تشي » . ولكن القدر أيضاً كان ضدها : فالنقابي الذي كان ينتظر أن يحمل رسالتها ألغي اسمه من قائمة مدعوي الحكومة الكوبية ، إذ كان من أنصار بيرون ، وللحزب الشيوعي الأرجنتيني القول الفصل في مثل هذه الدعوات ، يستطيع أن يلغيها اذا شاء . وهذا ما حدث .

في ٢٠ نيسان ، غادر فيدل كاسترو هافانا ليشارك في قطع قصب السكر مع غيره من زعماء الثورة . ووافق على لقاء مرتجل مع عدد من الصحفيين الأجانب ، يريدون أن يعرفوا أين « تشي » ، الذي أصبح غيابه عن الاحتفالات العامة وعن وزارته ذاتها موضع تعليقات من كل لون في كل أنحاء كوبا ، بل بدأ خبره يذيع في الخارج . وقد أجابهم كاسترو :

– كل ما أستطيع قوله لكم هو أن « القومندان غيفارا » سيكون دائماً حيث يستطيع أن يكون أكثر نفعاً للثورة . وأعتقد أن جولته في افريقيا ستؤتي ثمارها . وهو أيضاً قد ذهب الى الصين تمهيداً لزيارة وفدنا . انه رجل متنوع المواهب ، ذو ذكاء خارق ، وهو واحد من أكمل قادتنا .

على ان هذا التصريح ، الذي جاء بعد شهر من الصمت ، زاد الناس فضولاً وتساؤلاً عن الحقيقة . ونشرت احدى الصحف أن غيفارا سيعود الى الظهور يوم أول أيار خلال الاجتماع الجماهيري التقليدي . ولكن هذه النبوءة لم تتحقق .

وفي ١٠ أيار تدهورت صحة « سيليا » ، فنقلوها الى « مستوصف ستابلر » ، في الحي الارستقراطي شمال بونس آيرس ، ولكن لم تنقض أيام قليلة حتى تلقى ذووها رجاءً مهذباً باخراجها من هذا المستوصف ، اذ زعم أصحابه أن وجود أم زعيم شيوعي فيه قد يسيء الى سمعته .

وجاءني النقابي الذي كان سيحمل رسالتها الى هافانا يعيد هذه الرسالة التي بعد ان ألغيت رحلته ، فأنبأت « سيليا » بذلك،ولكنها طلبت مني أن أحتفظ بها الى أن أعثر على رسول آخر .

وفي ١٦ أيار قال الأطباء ان أجل « سيليا » قد دنا ، فاتصلت هاتفياً بهافانا وتحدثت مع « آليبدا » ، زوجة « تشي » الكوبية ، فبــدت لي مرتبكة لا تدري بماذا تجيب . قالت لي انه في كوبا ؛ ولكنه ليس في هافانا. وحين كررت لها أنه لم يبــقَ أمام « سيليا » الا ساعات معدودة ، وألحفت في طلب محاولة ابلاغه الأمر بأية وسيلة ، أجابت بأنها لا تستطيع ذلك . وذهب عبثاً قولي انه لا بد أن يكون هنالك سبيل للاتصال به حيثما كان .

وبعد يومين اتصلت « آليبدا » مباشرة بالمصح ، وكانت « سيليا » في شبه غيبوبة ، ولكنها استيقظت وأصلحت من جلستها كأنما تلقت شحنة من تيـار كهربائي . ولكن هذه المحادثة العسيرة مع هافانا البعيــدة لم تثمر ، واضطرت « سيليا » خلالها الى الصراخ دونما جواب يرجى . واذ ذاك أرسلت ظهر اليوم نفسه البرقية التالية : « القومندان غيفارا ، وزارة الصناعة ، هافانا . أمــك اشتد عليها المرض وتريد أن تراك . تحياتي . ريكاردو روخو » ولكني لم أتلقَّ أي جواب . ويوم ١٩ أيار انطفأت حياة « سيليا دولا سرنا غيفــارا » في بونس آيرس .

كنت واحداً من الخطباء الثلاثة الذين تكلموا في مأتم « سيليا » . وكانت نظرات الجميع ، أقارب وأصدقاء ، تتساءل : أين يمكن أن يكون غيفارا ؟

ولا بد أنه كان جاهلاً بكل ما حدث ، والا لكان مستحيلاً أن لا يجيب على آخر نداءات أمه . لقد قالت « آليبدا » انه كان في كوبا ، ولم يكن هنالك أي سبب يدعوني الى اتهامها بالكذب . ولكن ، في كوبا ، أين ؟ حتى لو قيـل انه كان في منطقة لا هاتف فيها ، فان صحف هافانا نشرت نبأ وفاة أمه في ٢١ أيار ، ومع ذلك ظل « تشي » يجهل هذا النبأ . فـكان من الواضح اذن أنه كان في موضع لا يفتقر الى الهاتف فحسب ، بل لا تصل اليه الصحف كذلك .

أين ؟ في اعتقادي أن غيفارا ، وان لم يكن سجيناً ، كان معزولاً عن العالم. وهذا «الاعتكاف» كان عملية انضباط سياسي تفترض حقبة طويلة من النقد الذاتي

الطوعي . كان في الواقع يجيب على سؤال أمه في رسالتها الأخيرة : « لمن كانت الغلبة في نقاش العوامل التي لا بد أنها كانت وراء هذا القرار ؟ » .

أما قواعد هذا « الاعتكاف » فيبدو أن تفاصيلها قد حددها غيفارا نفسه ، أو هو على الأقل قد اتفق عليها مع كاسترو بصورة قاطعة صارمة ، بدليل أنها لم تخرق حتى في مناسبة وفاة أمه .

ولم تكن هذه أول مرة . ففي نيسان ١٩٥٩ ، في أعقاب الرحلة التي قام بها كاسترو الى الولايات المتحدة ، وجد « تشي » نفسه في وضع قريب من هذا الوضع : كان من رأيه أن كاسترو مقبل على تعطيل مسيرة الثورة بالاطمئنان الى الولايات المتحدة . ولقد قال له هذا الرأي في صراحة ، ثم انصرف الى منزله ومعه حرسه الشخصي ، فظل هذا المنزل مغلقاً عليهم بينما كان كاسترو يعالج الأزمة ، ثم لم يغادروه إلا بعد أن تراجع رئيس الحكومة الثورية عن مسعاه .

فكيف نفسر ذلك ؟ أكان « تشي » معتقلاً أم ان عناده في التزام منزله لم يكن إلا مناورة سياسية يسرت له أن ينتصر ؟ وقراره عام ١٩٦٥ ، هل كان من هذا النوع ذاته ؟

ان المعلومات التي لديّ تدل على أن « اعتكاف » غيفارا دام من ٢٠ آذار حتى آخر تموز ١٩٦٥ ،وانه بعد ذلك غادر كوبا الى الكونغو ، مروراً بالقاهرة.

وفي حزيران ، خلال « اعتكاف » غيفارا ، وقع الانقلاب على بن بلا ، زعيم الثورة الجزائرية ، فكان لسقوطه بالغ الوقع على النظام الكوبي ، الذي اضطر بعده إلى اعادة نظر سريعة في جماع شبكة محالفاته الافريقية التي كان غيفارا قد نسجها خلال رحلته الطويلة في مطلع ذلك العام . وبدا للكوبيين أن الثورة الافريقية تشرف على الغرق ، وقد قرضت هيكلها الفوضى والاستعمار الجديد ، فقرر غيفارا أن يحمل هذه المسؤولية الخطيرة : مسؤولية الذهاب الى قلب القارة السوداء ليقدم للثورة عونه الشخصي فيساعد على منعها من أن تغرق .

ان هذا الحدث الجزائري كان ذا تأثير أساسي على كل القرارات التي اتخذها غيفارا منذ اليوم الذي بدأ فيه تحليله السياسي لهذا الحدث في عزلته . ولكي نفهم الوضع ، علينا أن نعود إلى الرسائل التي كشف عنها كاسترو يوم ٣ تشرين الأول ١٩٦٥ ، والتي يعلن فيها غيفارا تنازله عن الجنسية الكوبية وعن منصبه الوزاري وعن رتبته العسكرية .

يقول كاسترو إن هذه الرسائل قد سلمت اليه يوم أول نيسان ، وهي في الواقع لا تحمل أي تاريخ ، « لأن الهدف كان أن تتم اذاعتها في الوقت الذي يبدو أكثر ملاءمة » .

وهناك كثيرون أثاروا ظلالاً من الشكوك حول قول كاسترو هذا ، ولكن من المحتمل أن يكونوا على خطأ ، إذا رجعنا إلى واحدة من هذه الرسائل وجهها غيفارا إلى أهله ، خالية من التاريخ هي الأخرى ، ولكنها موجهة إلى أبيه وأمه مما يجعلنا نفترض أنها كتبت قبل ٢٠ أيار ، يوم وفاة « سيليا » .

ويمكن القول ان هذه الرسائل اختتمت المرحلة الأكثر صرامة من نقد غيفارا الذاتي ، هذه المرحلة التي امتدت من ١٧ آذار إلى ٣٠ نيسان ٩٦٥ .

فماذا كانت حصيلة هذه الحقبة من المراجعات السياسية ، التي ناقش خلالها مع فيدل كاسترو كل نقاط الخلاف ؟

ان قراءة هذه الرسائل تكشف عن أن غيفارا قد تخلى عن الفكرة التي راودته لدى عودته إلى كوبا ، فكرة « الرجوع إلى الينابيع » بالذهاب إلى حقول القصب وإلى المصانع : فلقد أقنعه كاسترو بأن هذا السلوك لن يحجب عن أعين الناس ما ثار بينهما من نزاع. وبدلاً من ذلك ، وكما فعل البلاشفة الأول ، قرر غيفارا – حين اختلف مع كاسترو على الوجهة التي ينبغي أن تنحوها الثورة – أن يستقيل من منصبه حتى لا ينقلب بمحض ارادته عدواً للحكومة الاشتراكية . كان على خطوتين من أن يتحول إلى تروتسكي آخر ، ولكنه تذكر كل الأفكار التي قرأها للبلاشفة الآخرين المعاصرين لهذا الزعيم السوفياتي ،

فاقتنع هو الآخر بأن الخلافات بين وجهات نظر الأفراد تصبح أدنى شأناً حين يكون مصير الحكم الثوري ذاته في خطر .

أدرك غيفارا أنه لم يكن يستطيع ، ولا ينبغي له ، أن يسيء إلى مكانة كاسترو وزعامته ، بل كان عليه – إذا ما ظهرت خلافاتهما إلى العلن – أن يفعل كل ما بوسعه لتوطيد مكانته . كذلك أدرك أنه – وقد تخلى عن كل مناصبه – لم يعد يستطيع البقاء في الجزيرة ، ولو فعل لأساء للثورة بالغ الاساءة على الصعيد الدولي . كان عليه اذن أن يرحل . وكان يكفيه اذن أن يختار الوقت الأكثر ملاءمة .

كان هذا نص رسالة غيفارا إلى فيدل كاسترو .

هافانا ، عام الزراعة .

عزيزي فيدل

في هذه اللحظة تعود بي الذاكرة إلى أشياء كثيرة : إلى لقائنا الأول في منزل « ماريا أنطونيا » ، وإلى اليوم الذي اقترحت عليّ فيه أن آتي معك ، وإلى حمى الاستعدادات الكبرى .

ذات يوم سألونا عمن يجب ابلاغه اذا قتلنا ، فصدمنا التفكير في أن يكون محتملاً مثل هذا الأمر . ثم تعلمنا بعد ذلك أن هذا الاحتمال قائم ، وان الثائر (اذا كانت ثورته حقيقية) ينتصر أو يموت . وبين رفاقنا كثيرون خلفناهم على طول الطريق الذي قاد إلى النصر .

واليوم أصبح كل شيء أقل حدة لأننا أصبحنا أكثر نضجاً ، ولكن لم يتغير شيء . وأنا أشعر أني أديت واجبي نحو الثورة الكوبية على أرضها وأودعكم ، أنت والرفاق وشعبك الذي أصبح شعبي .

بهذا أتخلى رسمياً عن مهمتي في قيادة الحزب،وعن منصبي الوزاري، وعن رتبتي العسكرية ، وعن جنسيتي الكوبية . وبعد الآن لا يصلني بكوبا أي رابط حقوقي ، بل وشائج من نوع آخر لا يملك المرء أن

يفصمها كما يتخلى عن مناصبه .

وحين أعود بذهني إلى وراء ، أستطيع القول صادقاً اني عملت في اخلاص وتفان على توطيد الثورة المنتصرة . وخطيئتي الوحيدة الكبرى هي أني لم أثــق بك الثقة الكافيــة منذ الأيام الأولى في « السييرا مايسترا » ، ولا تكشف لي بالسرعة الكافية ما تمتاز به من خصال القائد الثوري . . لقد عشت أيام أزمة الكاريبي بما تخللها من شمس وغيوم ؛ فليست هناك إلا قلة من رجال الدولة يتاح لها أن تعيش مثل هذه الأيام المجيدة . وأنا كذلك فخور بـأني سرت وراءك دون تردد ، متبنياً أسلوبك في التفكير والنظر وتقييم الأخطار (والمبادىء) .

ان بلداناً أخرى في العـالم تطلب الآن ما أستطيع الاسهام به من جهد متواضع . وفي وسعي أنا أن أفعل ما لا تستطيعه ، لأنـك تظل مسؤولاً عن مصير كوبا . لذلك حانت ساعة افتراقنا .

واعلم اني اتخذ هذا القرار موزع النفس بـين الألم والغبطة . فأنا أخلف هنا أنقى أحلامي في البـناء وأعز أصدقائي ... كما أترك شعباً ارتضاني في عداد أبنائه ، ولذلك أشعر بالحزن حتى أعماقي . ولكـني أحمل معي ، إلى ميادين أخرى للكفاح ، الايمـان الذي أغنيتني به ، والروح الثورية التي تنبض بها جوانـح شعبي ، والشعور بأني أقوم بأقدس الواجبات : واجب الكفاح ضد الامبريالية حيثما وجدت . وفي هذا ما يمحو حزني ويشد من أزري .

ولأقل مرة اخرى اني أبرىء كوبا من كل مسؤولية ، إلا مسؤولية كونها نموذجاً وقدوة . فاذا ما حانت ساعتي الأخيرة تحت سماء أخرى فأرجو أن تكون آخر أفكاري متجهة إلى هذا الشعب، واليك بصورة خاصة . وشكراً لما اكتـبته منك مثالاً يحتذى وتعاليم سأحاول الأخذ الأمين بها حتى النهاية . انني ، حيثما ذهبت ، سأشعر بمسؤوليتي كثـائر

كوبي ، وسأعمل بما توحيه هذه المسؤولية . وأنا لا أترك ورائي مالاً لأولادي ولا لزوجتي ، وهذا لا يحزنني بل أنا سعيد به ، فلست أطلب شيئاً من أجلهم ، لأن الدولة ستقدم لهم دائماً ما يعيشون به ويتعلمون بفضله .

هناك أشياء كثيرة كان يصح أن أقولها لك ولشعبنا ، ولكني لا أرى لذلك جدوى ، فالكلمات أعجز من أن تترجم أفكاري وتحبير الصفحات سيكون جهداً بلا طائل .

لك حق النصر . الوطن أو الموت .

أعانقك بكل الحمية الثورية .

« تشي »

أما الرسالتان الأخريان ، اللتان كانت احداهما موجهة إلى أبويه وثانيتهما إلى أولاده ، فتكشفان عن شخصية « تشي » المعقدة ، وعن حبه الصامت لأهله ، وعما كان يستشعره نحو أولاده من حنان كثيراً ما اضطر إلى التضحية به والانشغال عنه بنشاطه السياسي وبرحلاته خارج كوبا .

وهذا نص أولى هاتين الرسالتين :

إلى أبوي

أيها العجوزان العزيزان .

ها أنذا من جديد أعود إلى المغامرة ، أجوب الطرقات وفي يدي ترسي .

قبل عشر سنوات تقريباً كتبت اليكما رسالة وداع . واذا صدقت ذاكرتي فلقد كنت فيها أعبر عن أسفي لأني لم أكن محارباً أكثر مراساً ولا طبيباً أكثر خبرة . أما الآن فلم يعد يهمني أن أكون طبيباً ، ولكني أصبحت محارباً أفضل .

في الجوهر ، لم يتغير شيء . كل ما حدث هو أني أصبحت واعياً

لأمور كثيرة ، وان ايماني الماركسي غدا أمتن وأكثر صفاءً. انني أعتقد أن الشعوب التي تكافح من أجل تحررها لا تملك سبيلاً آخر غير الكفاح المسلح ، وعملي ينسجم مع عقيدتي . كثيرون قد يقولون انني مجرد مغامر ، وأنا مغامر حقاً ولكن من نوع آخر : أنا من أولئك الذين لا يجبنون عن المجازفة بجلدهم كيما تنتصر قناعاتهم. وهذه المرة قد لا أنجو. ليس هذا أمراً أرجوه ولكنه بالطبع أمر محتمل . فاذا ما وقع فلتكن هذه قبلتي الأخيرة لكما .

لقد احببتكما كثيراً حتى لو أني لم أحسن التعبير عن عاطفتي . ان أسلوبي في التصرف فقير بالأضواء والظلال ، وأظن أنكما أحياناً لم تفهماني . ولم يكن فهمي بالأمر اليسير . أمام اليوم فصدقاني .

ساقاي اللتان اصبحتا رخوتين ورئتاي المتعبتان ستدعمها بعد اليوم عزيمة جهدت في اكتسابها بمثل متعة الفنان . وسأكون صلداً في المعركة.

من حين إلى آخر ، اذكرا مغامر القرن العشرين الصغير . قبلاتي إلى « سيليا » و « روبرتو » و « آنا ماريا » و « بوتوتين » و « بياتريس » والآخرين جميعاً . ولكما قبلة حنان من ابنكما الشارد العنيد .

ارنستو

أما الرسالة الثانية فهذا نصها :

إلى أولادي

أعزائي « هيلديتا » و « آليديتا » و « كاميلو » و « سيليا » و « ارنستو » .

هذه الرسالة ستصلكم بعد أن أكون قد فارقتكم ، وكدت أغيب عن ذاكرتكم ، بل نسيني الصغار منكم كل النسيان .

لقد كان أبوكم رجلاً يتقيد في عمله بعقيدته ،دائم الاخلاص لقناعاته . كونوا ثوريين صادقين . ادرسوا كثيراً كيما تستطيعوا السيطرة على

التقنية ، وسيلتكم إلى السيطرة على الطبيعة . تذكروا أن الثورة وحدها هي الأمر ذو الشأن ، وأن أياً منا بمفرده لا يسوى الكثير .

وبصورة خاصة ، لتكن لديكم القدرة باستمرار على أن تتأثروا في أعماق جوانحكم بأية ظلامة تصيب أياً كان في أية بقعة من العالم . ان هذه أجمل فضائل الثوريين .

وداعاً يا صغاري . آمل أن أعود إلى رؤيتكم ، وأعانقكم بكل قوتي وأشدكم إلى قلبي .

أبوكم

وسافر « تشي » إلى افريقيا . قامت بالعناية باعداد رحلته الشرطة السياسية الكوبية التي يرأسها « القومندان مانويلو بينييرو » ، المشهور بلقب « باربا روخا » (اللحية الشقراء) . ففي حزيران ١٩٦٥ ، بينما كان غيفارا يوشك ان يسافر إلى القاهرة ، استطاع الكوبيون ان يوصلوا « خبراً سرياً » إلى مكتب رئيس اللجنة العسكرية الحاكمة في سان دومينغو ، الجنرال « أنطونيو امبرت باربرا » [1]. وكان هذا الخبر الكاذب يقول ان « تشي »وصل الى سان دومينغو في اليوم الذي وقع فيه التمرد العسكري ، في نيسان من تلك السنة ، فنزل في فندق « امباخادور » تحت اسم « أوسكار أورتيز » ، ثم انتقل بعد ذلك الى « الفندق التجاري » في القطاع الواقع تحت سلطة « الكولونيل فرنسيسكو كامانيو » [2] ، وانه قتل خلال احدى معارك الشوارع ، وكان أبسط التحقيقات كفيلاً باثبات كذب هذه الرواية ، . سيا وأن أحداً لم ينزل

---

(١) عسكري دومينيكي ، هو الوحيد الذي نجا من المؤامرة التي انتهت بقتل «تروخيليو». وفي أيار ١٩٦٥ تزعم الفئة المدنية والعسكرية الموالية لأمريكا ، والتي استولت على السلطة .

(٢) كان « كامانيو » أحد زعماء الضباط « الدستوريين » الذين قاموا بالانقلاب ضد « كابرال » وأيدوا عودة « خوان بوش » الى السلطة . وقد اضطر بعد ذلك للهرب الى خارج البلاد .

في أي من الفندقين المذكورين تحت اسم « أوسكار أورتيز » ؛ ومع ذلك ظل الجنرال « امبرت » بضعة أسابيع مقتنعاً كل الاقتناع بأن « تشي » مات على أرض بلاده. وبذلك تم صرف أنظار العالم كله عن حقيقة مكان « غيفارا » ، بينما كان هذا يواصل رحلته في اتجاه الكونغو .

وفي الكونغو كانت الجماعات المسلحة التي يقودها « موليلي » و « سوميالو » تقاتل مرتزقة « تشومبي » المجموعين من أطراف الأرض والذين كان بينهم فئة حسنة التدريب من الطيارين الكوبيين من أعداء كاسترو .

وكان « سوميالو » قد أعلن قبل قليل :

– ليس علينا أن نضع شروطاً لوقف اطلاق النار لأن هذه المعركة تمثل كفاحنا الثوري ، وهو كفاح لن تكون له نهاية ،برغم قصف القنابل الأمريكية والدبابات و « النابالم » .

ووصل غيفارا إلى برازافيل فقابل الرئيس « ماسيمبا ديبا » ، الذي كان في مطلع العام ذاته قد استقبله بصورة رسمية . وكان قد سبقه عدد لا بأس به من الكوبيين ، أخذوا يشتركون في إنشاء قوة عسكرية تملك من الاستعداد ما يكفيها للصمود بنجاح في وجه هجمات المجرمين الأوروبيين والامريكيين المعروفين باسم « المرتزقة » . وفي الأسابيع التالية انضم عدداً آخر من الكوبيين إلى مواطنيهم المحاربين إلى جانب الثورة ، ولكن مجموعهم لم يصل قط إلى بضعة آلاف كما زعم بعض الصحافيين . فكوبا ، في أوج مساعدتها لثوار الكونغو ، لم ترسل قط أكثر من مئتي رجل ، كانت مهمتهم في الأغلب تدريب الفدائيين المغاوير .

وقدوم « تشي » إلى الكونغو يصبح يسير التفسير إذا وضعنا في اعتبارنا الموقف الوسط الذي اتخذته كوبا في الخلاف الصيني السوفياتي حول أفضل أساليب العمل الثوري . ففي عام ١٩٦٥ بدأ الكوبيون يقولون بنظرية يقفون بموجبها إلى جانب الاتحاد السوفياتي على صعيد العلاقات بين الدول، وإلى جانب

الصين على صعيد الحرب الشعبية . وكان من العسير جداً أن يحافظ الكوبيون على هذا الموقف النظري الوسط ، والذي أدى عملياً الى لعبة خطرة تتواتر فيها المطالب والتنازلات . فالمكان البارز الذي تحتله كوبا داخل العالم الاشترا كي كان بالطبع يمنحها أداة ممتازة للضغط على السوفياتيين ، ولكن هؤلاء بالمقابل كانوا قادرين أن يمارسوا عليها ضغطاً أشد قوة . ولو كان أقل بروزاً للعيان ، من خلال معونتهم الاقتصادية .

قضى « تشي » في الكونغو قريباً من تسعة أشهر ، واشترك في عدد من المعارك ، ولا سيما في تلك التي وضعت قوة الثورة وجهاً لوجه أمام المرتزقة البيض المجهزين بالعتاد الحديث . وقد أثار في نفسه أعمق الاضطراب تقليد شعائري افريقي هو أن يأكل المنتصرون قلب المحاربين الأعداء المقتولين في المعركة ، بحيث تنتقل الى المنتصر شجاعة المحارب القتيل فيزداد بهذه الطاقة الجديدة ضراوة وروح قتال . ومن المؤكد أن أناساً مثل غيفارا ، ينتسبون إلى مجتمعات أكثر تطوراً براحل ، لم يكونوا قادرين على احتمال مشهد من هذا النوع .

وفي شباط ١٩٦٦ بعث غيفارا من برازافيل برسالة الى ابنته الكبرى « هيلدا » ، بمناسبة عيد ميلادها العاشر . وهذا نص هذه الرسالة :

١٥ شباط

حبيبتي هيلديتا ،

أكتب اليك ، ولكن رسالتي لن تبلغك إلا بعد حين طويل . على أني برغم ذلك أريدك أن تعلمي أني لا أنساك وأني أرجو لك عيداً سعيداً . وأنت توشكين أن تكوني امرأة ، فلم يعد من الممكن إذن أن يكتب المرء اليك كما نكتب للأطفال : سخافات وخرافات مخادعة .

فاعلمي اذن اني بعيد واني سأبقى بعيداً عنك حقبة طويلة ، باذلاً ما في وسعي للكفاح ضد أعدائنا . ودوري هنا مفيد وان لم يكن كبير الأهمية ، وأعتقد أنك ستستطعين دائماً أن تفخري بأبيك كما هو فخور بك .

واذكري انه لا تزال أمامنا أعوام كفاح كثيرة ، سيكون عليك أنت أيضاً أن تشتركي فيها متى بلغت مرحلة الشباب . وبانتظار ذلك اذن عليك أن تستعدي ، أن تكوني ثورية جداً ، وهذا – في سنك – يعني أن عليك أن تتعلمي الكثير ، أكثر ما تستطيعين ، وأن تكوني دائماً على استعداد لتأييد القضايا العادلة . كذلك ينبغي لك أن تطيعي أمك وألا تزعمي لنفسك القدرة على كل ما تشائين . ان أوان هذه الحرية لن يلبث أن يأتي فلا تتعجليه .

عليك أن تبذلي الجهد لتكوني بين أفضل زملائك في المدرسة ، أفضلهم في كل شيء . وأنت تعرفين ما أعني بهذا : الدراسة ، والموقف الثوري الذي يعني حسن السلوك وحب الثورة وروح الزمالة ، الخ ...

كل هذه الخصال لم تكن لي يوم كنت في سنك ، ولكني كنت عضواً في مجتمع من نوع آخر ، الانسان فيه عدو للانسان . أما أنت فمن حسن حظك أنك تعيشين في عصر آخر ، ويجب أن تظلي جديرة بهذا العصر .

لا تنسي أن تذهبي لزيارة المنزل فتراقبي الأطفال الآخرين وتوصيهم بالدراسة والتصرف العاقل . اذهبي على الأخص لزيارة « آليديتا » ، التي تصغي دائماً لنصائح أختها الكبرى .

ومرة أخرى يا صغيرتي الحبيبة : عيداً سعيداً .

قبلي أمك و « جينا » نيابة عني . أما أنت فلك مني ألف قبلة ، من أجل كل الأيام التي سنقضيها دون أن يرى أحدنا الآخر .

أبوك

على ان نبؤءة غيفارا يوم ١٥ شباط بالبقاء « حقبة طويـــلة » أخرى في الكونغو لم تتحقق ، إذ لم يلبث أن غادر هذا البلد بعد قليل .

وإذا كانت مهمة غيفارا في برازافيل قد انتهت قبـل أن تكتمل أهدافها ، فذلك دون ريب نتيجة للصراع الصيني السوفياتي ، ولطريقة انعكاس هــذا الصراع على علاقات محاربي الكونغو بعضهم ببعض . فسياسة الموقف الوسط بين الاتحاد السوفياتي والصين مرت بمرحلة عسيرة أثناء مؤتمر هافانا في كانون الثـاني ١٩٦٦ ، المعروف باسم « مؤتمر القارات الثلاث » . لقد حاول الروس ، لفظياً على الأقل ، أن يقتربوا بنظرتهم الى الكفاح المسلح من النظرة الصينية ؛ ولكن فيدل كاسترو ركز على المقارنة بين المـاعدة « الكلامية » وبـــين المساعدة « المحسوسة » التي كان الثوار يتلقونها ، فالتقى مئات أعضاء الوفود الحاضرين على تفسير هذه المقارنة بأنها دفاع عن الروس وانتقاد للموقف الصيني . وغادر الصينيون هافانا وهم على قلق بالغ تجاه موقف كوبا ، إذ أن وفــد كاسترو استطاع أن يحشر فكرة « التعايش السلمي » في البيـان الختامي الذي وافقت عليه أكثرية الوفود ولم يرفضه الا حلفاء بكين . وتعاظمت هــذه الجفوة في الأسبوع الأول من شباط ١٩٦٦ حين اتهم كاسترو الصينيين علانية بتحريض الجيش الكوبي على التمرد . كانت هذه « المؤامرة » هي التفسير الذي أعطته الحكومة الكوبية لقيام الصينيين بتوزيـــع منشورات دعائية ضـــد الاتحاد السوفياتي بين ضباط الجيش . وكان رد الصين على هذا الاتهام أن أوقفت شحنة من الأرز سبق لها أن وعدت بها كوبا .

هذه الأزمة في العلاقات بين بكين وهافانا كانت ذات أثر فوري على مصير غيفارا في الكونغو . ومن الصعب هنا أن نسرد الأحداث وفقاً للتسلسل الذي مرت به ، لأن أحداً من شهود هذه القضية لم يتكلم عنهـا حتى الآن . فهناك رواية تقول ان الصينيين طلبـوا من « سوميالو » و « موليـــلي » ، حليفيهم الرئيسيين في الكونغو ، أن يطلبوا من الكوبيين التوقف عـــن المشاركة في

المعركة الافريقية . وفي المقابل هنا آخرون يؤكدون أن السوفياتيين هم الذين نصحوا كاسترو بسحب بعثته المحاربة من الكونغو . وهناك مزيج بين هذين الافتراضين من شأنه أن يقودنا الى تفسير ثالث : كان « سوميالو » اذ ذاك في القاهرة ، وهو — اذا صح هذا التفسير — قد طلب من كاسترو أن يأمر غيفارا بمغادرة برازافيل فوراً اذا اراد تفادي فضح وجوده في الكونغو علنياً ، وهو أمر لو تم لـكان لا بد له أن يتمخض عن فضيحة دولية .

وفي البداية رفض غيفارا أن يغادر افريقيا . فالمبعوث الذي حمل إليه رسالة فيدل كاسترو هو نفسه الذي عاد إلى هافانا يحمل رسالة « تشي » إلى ابنته « هيلدا » ، التي أوردنا نصها من قبل .

ولكن « سوميالو » ازداد لجاجة . وفي آخر شباط ذهب إلى القاهرة ، ومنها إلى برازافيل ، رجلان من خلصاء كاسترو وأصدقاء غيفارا ، هما « القومندان اميليو آراغونيس » أحد الوجوه البارزة في حكومة هافانا ، و « القومندان دريك » الضابط في الجيش الكوبي . واستعرض هذان الرجلان الموقف مع غيفارا وأفهماه ضرورة الانصياع فوراً ودون نقاش لأوامر هافانا ، إذا أراد أن لا يغامر بمصير كوبا كله . وفي آذار ١٩٦٦ غادر « تشي » ومساعدوه الأقربون في حرب الغوار أرض الكونغو ، بعد حوالي تسعة أشهر من وصولهم اليها . غادروها — كما قدموا اليها — في إطار من السر المطلق .

٣

الاستشهاد في بوليفيا

عــــام ١٩٥٣ شهدنا ، أنا وغيفارا ، مولد الثورة « القومية » في بوليفيا ولكن ، في أواخر ١٩٦٤ ، كانت هذه الثورة تحتضر . كان النظام قد أنهكته المصاعب الداخلية ، وسط مجموعـــة من الدول تحيط به ويعلن أكثرها العداء لتجاربه على صعيد الإصلاح الزراعي وتأميم المنـاجم ، فشهد الحكومات تتوالى وتعاني باستمرار من تهديدات خصومها السياسيين ومن استياء أصدقائها الكادحين. وانتهى هذا النظام الإصلاحي إلى الافلاس بنتيجة تضييق جيرانه الحصار عليه ، وسقوط الأسعار العالمية للقصدير ، إنتاجه الوحيد الذي يمكن تصديره ، والهبوط المتكرر للعملة المحلية .

على أن تلك السنة التي شهدت نهـــاية النظام القومي كانت مسرحاً لحدث سياسي هام لم ينجح أحد في أن يستخلص منه العــبرة الحقيقية . ففي شهر أيار ظهرت جماعات من المغاورين ، المجهزين بأفضل سلاح ، في ولاية «سانتا كروز» ، في المنطقة الشرقية الممتدة على الحـــدود مع البرازيل . كان هؤلاء المغــاورون يهاجمون مراكز الشرطة ومخافر الحدود ، ويحرقون مفـــارس قصب السكر ،

متحركين بمهارة بالغة الخفة على رغم أن المنطقة تغطيها الغابات العــذراء . وكان من الممكن أن يرى الناس في هذه الجمـــاعة حركة غوار من الطراز الكاستري ، لنجاحها في تقليد كل أساليب ثورة كاسترو . ولكن هذه الجماعة كانت في الواقع مؤلفة من بعض مالكي الأراضي ومن فئة فاشستية ضئيلة العـــدد ولكن جمة النشاط ، هي «الكتيبة البوليفية». وكان منظم هذه الحركة مالكاً ألمانياً الأصل استطاع أن يجمع على أرضه نحواً من ثمانين رجلاً ، بفضلهم استطاع أن ينفـــذ تلك العمليات . أما آثار عمليات الغوار هذه فكانت في الدرجة الأولى سياسية . فلقد وضعت الصحافة البوليفية والأجنبية يدها على هــــذه القضية وأخذت تستغلها لتضخيم مدى استياء المواطنين من النظام ، هـذا بينما امتنع الجيش عن مجابهة المغاورين على رغم أن لديه جحفلاً كبيراً من الرجال المتخصصين في مكافحة رجال العصابات ، الذين تلقوا تدريبهم على أيدي البعثة العسكرية الأمريكية ، ذلك لأن هؤلاء الرماة لم يكونوا قد دربوا على مكافحة المغاورين بصورة عامة ، بل المغاورين الثوريين فحسب ، بحيث لم يكن لمثل حركة الغوار المزعومة هذه أن تخشى بطشهم ما دام هدفها تصفية الاصلاح الزراعي . وهـــذا ما حدث بالفعل في بوليفيا .

فالواقع أن حركة الغوار في الريف وحركة المعارضة في المدن كانتا كلتاهما تدوران حول محور واحد ، هو فريق الضبـاط اليمينيين المتطرفين في الجيش . وكان هذا الجيش قد عاد إلى الظهور بعد أن تم تمزيقه والاستعاضة عنه بفرق من الحرس الشعبي فلاحية وعمالية . ويوم أن تحركت مختلف قطاعات المعـارضة في وقت واحـــد ، سقطت الحكومة « القوميـــة » . كان ذلك يوم ٤ تشرين الثـاني ١٩٦٤ ، بعـــد أقل من ستة أشهر من ظهور حركة المغاورين الفاشستيين تلك .

وفي اليوم التـــالي ، كشف المغاورون عن وجههم الحقيقي ، إذ طالب كل مالكي الأراضي المتمردين هؤلاء باسترداد كل الأراضي التي كانت فيما مضى ملكاً

لآبائهم أو أجدادهم . ورافق ذلك قيام حكومة عسكرية بالغة القسوة كان أسلوبها التقليدي في ممارسة السلطة أسلوب النفي ، والسجن المنفرد في قلب الغابة العذراء ، ومصادرة الطبقة العاملة عن طريق تعبئة المضربين بنص القانون. على أن هذه الحكومة الوحشية لزمت برغم ذلك جانب الحيطة البالغة في ما يتصل بنظام الملكية ، إذ منحت المغاورين الفاشستيين السابقين ألواناً من الترضيات ، ولكن القوانين الاصلاحية ظلت مرعية الاجراء ولم يتحرك الفلاحون البوليفيون . وخدعتهم « الديماغوجية » الماكرة التي كانت الحكومة العسكرية تنهجها معهم باستمرار فحسبوا أن هذه الحكومة تحميهم وأصبحوا على استعداد لحمل السلاح ضد عمال المناجم الذين كانوا يؤلفون الجناح المقاتل في صفوف المعارضة .

ومنذ تشرين الثاني ١٩٦٤ عكفت الحكومة العسكرية على الاستزادة من الدعم الذي يمحضها إياه الفلاحون . وكان الرئيس « بارينتوس »[1] — وهو جنرال من المظليين جم الحيوية — مولوداً في قرية صغيرة من قرى الريف ، يتكلم لغتي أهل البلاد الأصليين ، « الآيمارا » و «الكيتشوا» . وبفضل سياسة ماهرة تجلت في توزيع المعدات الزراعية عليهم ، استطاع « بارينتوس » أن يفتخر عام ١٩٦٦ بأن حكومته لا تستند إلى الجيش فحسب ، بل تتمتع أيضاً بتأييد جماهير الفلاحين .

في آذار ١٩٦٦ عاد غيفارا خفية من الكنغو الى كوبا . عاد اليها بصحة أكثر اعتلالاً ، وبمرارة مهزوم لم يكن بوسعه أن يجعل منها شعوراً بالنصر الا على

---

(١) انتخب نائباً لرئيس الجمهورية عام ١٩٦٤ في قائمة الرئيس « باز استنسورو » ، بعد خلاف هذا الأخير مع رفيقه الزعيم العمالي « خوان لتشين » . ولكنه في تشرين الأول من العام نفسه انقلب على الرئيس البوليفي وحل محله . ثم جاءت انتخابات ١٩٦٦ تثبته في منصبه .

(المعرب)

صعيد وجدانه الشخصي فحسب . وكان « تشي » مقتنعـاً بأن رحيله عن الكونغو انما جاء نتيجة لمناورة قامت بها الدبلوماسية السوفيـاتية ، بعد أن تفاهمت موسكو مع واشنطن على الخطوط العامة للسياسة الافريقية . وبالطبع لم يكن مثل هذا البرنامج ليفسح مجالاً لمحارب مثل غيفارا ، ولا بد أن الروس قد جعلوا كاسترو يفهم هذه الحقيقة . وكان في هذا تأكيد جديـد للشكوك الخطيرة التي كانت ساورت غيفارا في العام السابق ، والتي كان قد حادث فيدل كاسترو طويلا عنها في أعقاب جولته ، في آذار ١٩٦٥ .

إذا ذاك حزم غيفارا عزمه على العودة إلى حلمه القديم ، حلم اثارة شعوب جنوب أمريكا اللاتينية ، انطلاقاً من بوليفيا أو من شمـال الأرجنتين أو من جنوب البيرو .

كان مشروعه يطابق إلى حد بعيد ذلك المشروع الذي انتهى فيه «ماسيتي» إلى الهزيمة عام ١٩٦٤ . وأخذ غيفارا يدرس الأوضـاع في الأرجنتين وبيرو وبوليفيا .

أما في بونس آيرس فكان الطبيب المسالم الاصلاحي «آرتورو ايليـا» لايزال في السلطة ، وكان الجو لا يبدو ملائماً للتحرك برغم ما ظهر على الوضع من بداية تدهور .

وأما في بيرو فحكومة مدنية ، غير دكتاتورية ، برهنت على نشاطها في مكافحة حركات الثوار وقتلت أو اعتقلت أبرز الزعماء المتمردين .

وتبقى بوليفيا. هناك كان من الممكن أن يسقط الحكم العسكري في أية لحظة ، وكان الاضطراب يسود المناجم . هكذا كان يجمل تقدير الوضع كما نقله إلى هافانا محرضون شباب ينتسبون إلى خليط من الفئات اليسارية الصغيره ، التي تلتقي كلها على العداء الشديد للحزب الشيوعي البوليفي . أما هذا الحزب فكان يوافق على

كثير من تفاصيل هذا التحليل . ولذلك استنتج غيفارا أنه ، إذا كان الحزب الشيوعي البوليفي لا ينتقل إلى العنف برغم موافقته على آراء القائلين بضرورته ، فهذا دليل اضافي على أن قيادة الحزب خاضعة لأوامر موسكو .

والذي يبدو هو أن أحداً اذ ذاك لم يحاول ابراز تأييد جماهير الفلاحين للحكومة ، هذا التأييد الذي لا بد أن أمره كان معروفاً بدليل أن العدد الأكبر من المغاورين تم اختيارهم وحشدهم من بين صفوف عمال المناجم المتمردين والعاطلين عن العمل في المدن . وهذا يعني فيما يبدو أن مخططي الحركة لم يمنحوا شروط اللياقة البدنية إلا قليلاً جداً من انتباههم : إذ أن عمال المناجم ، المولودين على الهضاب أو في ودیانها ، واجهوا مصاعب لا طاقة لهم عليها حين نزلوا الى المنطقة الاستوائية .

ولقد كانت هناك سابقة تاريخية لأخطاء غيفارا ، هي غلطة لينين الرهيبة حين قرر ارسال الجيش الأحمر عام ١٩٢٠ ليحارب في بولونيا : فلينين أيضاً كان قد اطمأن إلى معلومات ناقصة ومتفائلة ، وهو كان قد خدع بتوقعات اللاجئين البولونيين الشيوعيين المقيمين في موسكو ، وهو أيضاً كان قد نسي أن الشعب البولوني – الذي كان يود مساعدته على التحرر – شديد التأثر بالمشاعر الوطنية . ولقد حشد لينين مئات من المحرضين ضد « بيلسودسكي » ، وأقنع نفسه بأن الفلاحين والعمال البولونيين لابد أن ينضموا إلى صف الجيش الأحمر ، واستبقى المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في حالة انعقاد مستمر ظاناً أنه سيستطيع ، في أربع وعشرين ساعة ، إعلان قيام حكومة شيوعية في بولونيا . ولكن الذي حدث في الواقع هو أن البولونيين أوقفوا الهجوم الذي شنه اثنان من كبار رجال الستراتيجية ، هما «توجا شفسكي» و «بوديني » ، وأن السوفياتيين الذين حسبوا أنفسهم على خطوتين من فرصوفيا اضطروا إلى التقهقر في فوضى حتى « مينسك » .

وبرغم الفوراق الهامة ، تذكرنا مغامرة غيفارا في بوليفيا بمغامرة لينين في بولونيا . وكلتا العمليتين ، بصورة اجمالية ، لاتكشف عن تحليل سياسي مفرط السطحية فحسب ، بل أيضاً عن فجوات خطيرة على صعيد الاستعداد العسكري .

ولقد اشترك في تنظيم حرب الغوار في بوليفيا (تشي) وفيدل كاسترو معاً . فإثارة حركات التحرر في القارة كانت قد أصبحت لدى هذا الأخير أيضاً ضرورة ملحة ، لا سيا وأن سياسة التهدئة التي أخذ بها السوفياتيون كانت ، على خلاف توقعاته ، قد أخذت تخنق حركات الغوار ، بادئة بأكثرها أهمية : حركة فنزويلا . وهكذا كان مصير استقلال كوبا السياسي والاقتصادي مرة أخرى حميم الإرتهان بمصير حركة التحرر في أمريكا اللاتينية . فإذا ما وهنت هذه الحركة أصبح يسيراً أن تفقد كوبا استقلالها . وليس هناك ريب في أن هذا التضايف بين المصيرين هو الذي دفع الكوبيين إلى أن يخوضوا المعركة بعزيمة في قلب القارة الامريكية الجنوبية ذاته .

ومما نعرفه أن جلسة واحدة عامة ، على الأقل ، شهدت نقاش تفاصيل هذه الحملة السرية بين جميع أعضائها وبين غيفارا وفيدل كاسترو ، الذي كان يعرف حق المعرفة عسر الظروف التي سيكون عليهم أن يقاتلوا فيها فقال لهم : «اذا نجحتم في التلاؤم مع البيئة أصبح النصر مضموناً لكم » .

وكما انخرط لينين في المغامرة البولونية ليجعل ألمانيا الرأسمالية أخيراً ذات حدود مشتركة مع الشيوعية ، إذ كان حلمه الدائم أن يقترب بحدود روسيا من قلب أوربا كذلك كان غيفارا وكاسترو يريدان حدوداً لاتينية أمريكية لكوبا، حدوداً اشتراكية أقرب من (الأورال) .

كانت هيئة قيادة مغاوري (تشي) تضم خمسة عشر رجلا، أكثرهم من أولئك

الذين اشتركوا في حملة (سيرو ريدوندو) الشهيرة التي قادها غيفارا خلال الحرب ضد باتيستا، والتي شنت المعركة الحاسمة في (سانتا كلارا) عام ١٩٥٨ . وكان هؤلاء الرجال قد اكتسبوا الدراية والصلابة في مدرسة غيفارا، ومن المؤكد أنهم كانوا على استعداد للسير وراءه إلى الجحيم لو أنه رأى خيراً في قيادتهم اليه .

وانقسمت هذه الجماعة إلى أربع زمر ليستطيع رجالها بلوغ بوليفيا . وكانوا جميعاً يحملون وثائق شخصية مزورة ، اثنتان منها صادرتان عن سلطات الأورغواي ، وست عن سلطات باناما ، وسبع عن سلطات الاكوادور ، واثنتان عن سلطات كولومبيا. أما الفرق بين عدد الرجال وبين عدد الجوازات فتفسيره أن بعضهم استخدام أكثر من وثيقة أو كان يحتفظ بوثيقة احتياطية من أجل حالات الظروف القاهرة .

كان ستة من هؤلاء الرجال على الأقل يحملون رتبة (قومندان) في الجيش الكوبي ، بينما كان عدد منهم يحتل مناصب سياسية هامة : (خوان آكونيا نونييز) ، مثلاً ، كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي وكان أحد الأوائل بين الفلاحين الذين التحقوا بكاسترو في حرب الغوار الثورية . و«أورلاندو بانتوخا تاماجو » كان قد عمل إلى جانب (القومندان راميرو فالديز) يوم كان هذا يرأس الشرطة السياسية قبل أن يصبح وزيراً للداخلية . و (ايليسيو ريجيس رودر يغيز) كان أحد الأبطال الصناديد في حرب الغوار الكوبية ، التي التحق بها وعمره ست عشرة سنة ونال فيها رتبة (كابتين) خلال المسيرة الشهيرة بين (السييرا مايسترا) و (لاس فيلياس) . كانوا يسمونه (سان لويس) باسم الضيعة الشرقية الصغيرة التي ولد فيها ، وكان عام ١٩٥٩ ذا شعر كثير التجعد ولكنه كان لا يزال أمرد طري العود، وفي عام ١٩٦٦ كان قد أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . و (غوستافو ماشين) كان (قومنداناً) هو الآخر وكان خلال بعض الوقت يحتل منصب نائب وزير الصناعة . كذلك (القومندان ألبرتو سانتشز) ، الذي سمي مديراً للمناجم

بترشيح من غيفارا ، و (خيسوس سواريز كاجول) ، كانا كلاهما قد شغلا مناصب ادارية عالية .

وقد ذهب « القوموندان بانتوخا تاماجو » يرافقه ثلاثة رجال ، فبلغ بوليفيا من طريق البيرو ، التي كان أقام فيها عام ١٩٦٣ أيامَ كان مُغاورو « هوغو بلانكو » الفلاحون ينشطون في وادي « كوسكو » . وكانت مهمته في تلك المرة الأولى أن يحاول التحقق مباشرة من مدى الأهمية الفعلية لتلك الحركة ، التي كان شيوعيو البيرو دائمي التشنيع لها ، يعزون الى قائدها (عن حق) أفكاراً تروتسكية . أما هذه المرة فكان على « بانتوخا » تقييم ما بقي من هذه الجماعة والحكم على مدى المعونة التي يمكن انتظارها من أعضائها الذين لا يزالون أحياء . وفي آخر آب ١٩٦٦ وصل « بانتوخا » والثلاثة الآخرون من رفاقه الى « كوتشابامبا » في بوليفيا ، مستخدماً وسائل السفر العادية .

أما « تشي » فدخل بوليفيا في النصف الثاني من ايلول ، يرافقه مغاور آخر. كان قد غادر هافانا على طائرة من طائرات الشركة الجوية الاسبانية « ايبريا » ؛ وحط في مدريد ثم انتقل منها الى سان باولو في البرازيل ، ومنها تابع رحلته في احدى سيارات النقل المشترك حتى « كورومبا » ، التي ذهب منها الى « بويرتو سواريز » في بوليفيا ، ثم الى « كوتشابامبا » .

وهناك ، في (المدينة – الحديقة) ، ثانية مدن بوليفيا ومركز المنطقة الزراعية الأكثر ازدهاراً ، كان له بعد بضعة أيام حديث مع (خورفي كوليه كويتو) عضو (سكرتارية) الحزب الشيوعي البوليفي . كان غرض (كوليه) الرئيسي أن يتأكد شخصياً من وجود غيفارا في بوليفيا ، ولكنه في الوقت ذاته رسم له صورة عامة للوضع ، ولا سيما على الصعيد العسكري الذي كان يحسن معرفته لأن أخاه كان (كولونيلا) في الجيش وعضواً في رئاسة أركانه العامة . على أن كل لجاجة غيفارا لم تثمر في جعل (كوليه) يعد باسم حزبه بتقديم أية

معونة محسوسة ، إذ قال ان مثل هذا القرار من اختصاص اللجنة المركزية للحزب ، مكتفياً بأن يضيف أن الجواب سيكون سريعاً . ثم ودع غيفارا وهو لا يكاد يفيق من دهشته ، فلو أنه لم يره بعينيه لظل يشك بوجوده حقاً على الأرض البوليفية .

وفي تشرين الأول دخل بوليفيا خمسة رجال آخرين ، عبر مدينة (آريكا) في الشيلي . وكانوا قد اجتازوا ملاحة (أوجوني) ، وعرفوا السفر المضطرب في القطار ذي الجنازير يشد نفسه بها الى جرف الجبال ، كما عرفوا انبهار النفس وهم ينتقلون من السهل الى ارتفاع ثلاثة آلاف متر ليعودوا فيهبطوا الى قاع الوديان .

وأخيراً ، في كانون الاول ، وصل الأربعة الباقون . كانوا قد قاموا برحلة طويلة ، من هافانا الى لينينغراد ، ومن موسكو الى براغ ، ثم من هذه الى بونس آيرس . وكان يقود هذا الفريق طبيب ، هو (كارلوس لونا مارتينيز) ، الذي يسميه رفاقه (أوغامبا) . وهؤلاء أيضاً لم يفتهم درس الاعالي والوديان ، وأغمي على أحدهم في وسط الشارع حين وصلوا الى (لاباز) .

خلال ذلك ، كانت هناك شبكة من البوليفيين تستعد لارساء قواعد للنشاط الغواري . فبين تشرين الأول وكانون الأول ١٩٦٦ قام شيوعي شاب في الثامنة والعشرين من عمره ، يدعى (روبرتو بيريدو) ، بالطواف بالمنطقة المجاورة لمدينة (كاميري) ، حيث يقوم أحد حقول النفط الأعظم شأناً في بوليفيا . كان (بيريدو) سائق سيارة ، ولكنه كان أيضاً منظماً ذا خبرة ، وكان قد ذهب مرتين الى كوبا حيث أسهم في إعداد الخطط التي كانت ستوضع موضع التطبيق . وقد اتصل (بيريدو) بالاشخاص الذين كان يعرفهم من قبل او الذين حمل اليهم رسائل من أصدقاء ، في (كاميري) و (تشوريتي) و (لاغونيلياس) و (البنكال) و (نيانكاهواسو) ، فذكر لهم أنه

يرغب في شراء أرض يتخصص فيها بتربية الماشية ، وانتهى بشراء مزرعة كبيرة في (نيانكاهواسو) ، باشر لفوره بالقيام فيها ببعض الاعمال الزراعية ، ولا سيما بزراعة الفول السوداني . وكان المفروض أن يكفي انتاج المزرعة لاطعام عدد كبير من الناس ، ولكن المغاورين اختاروا أن يقيموا معسكرهم بعيداً عنها بعض البعد حتى لا يثيروا الشكوك ، فكانوا اذا أقبل الليل يتسللون اليها دون أن يلفتوا انتباه الناس . وكان للمنزل المبني في المزرعة سقف من الصفيح المتموج لتيسير انسيال مياه المطر ، وهو صفيح يسمونه في المنطقة ، حيث يندر استعماله ، اسماً لا يصح عليه فعلاً هو حجر التوتياء . ومن هنا أطلق اسم (منزل التوتياء) على هذا المبنى الذي كان المغاورون يخططون فيه لمعركتهم

وكان (بيريدو) يذهب كل يوم بسيارة الأجرة التي يسوقها الى (كاميري) هذه المدينة البترولية التي يزدهر فيها النشاط التجاري ، فيشتري الطعام والالبسة والأغذية ، بأقدار تتناسب مع تزايد عدد المغادرين وتعاظم حاجاتهم .

أما اختيار المقاتلين و (تنظيمهم) فكان ميدانها مناطق المناجم ، التي كانت منذ حين تضج بغضب عاجز تجاه الحكومة العسكرية ، بعد أن أحاطت هذه الحكومة مناطق العمل بالاسلاك الشائكة كما لو كانت معسكرات اعتقال وكانت لا تفوت فرصة سانحة دون ان تسجن أو تنفي المسؤولين النقابيين . وأخذ نبأ التعبئة ينتقل همساً في الاقبية المظلمة التي يستخرج فيها شوب المعدن . وبدأ سكان مناطق المناجم يستشعرون دنو الخطر الذي ينسل حتى الى أشد الاكواخ تعاسة ، وينسرب إيماء في حوار الرجال وجزعاً في نظرات النساء .

وفي البداية لم تكن الحكومة العسكرية على علم بهذه التحركات . على أنها

أخذت تتلقى أنباء كانت جزئية متفرقة ولكن فيها الكفاية لادراك أن أمراً ما ذا شأن يتم الاعداد له . ويبدو أن المعلومات الاولى التي وصلت إلى علم الحكومة كانت تتصل بشجار عنيف أخذ يمزق صفوف شيوعيي المناجم ، مشعلاً النار في خلاف قديم – كان المظنون مؤقتاً أنه انطفأ – بين أنصار بكين وأنصار موسكو . ولذلك كان النزاع هذه المرة أشد حدة ، فساورت الحكومة الظنون بأن موضوع الخلاف لم يعد مسألة نظرية ، بل قضية محسوسة محددة . وبدا لها أنه إذا كان النزاع قد تجدد بين أنصار طريق الثورة السلمية وبين مؤيدي العنف فما ذلك إلا لأن هناك هذه المرة من يقترح تطبيق هذا الأسلوب الأخير في بوليفيا ، وفوراً .

وضاعفت الحكومة من احتياطاتها . وفي تشرين الثاني استطاعت أن تثبت أن غيفارا كان فعلاً قد مر بالأرض البوليفية قبل شهرين ، وأنه كان يوشك على الانتهاء من جولة استطلاعية في الجنوب تباحث خلالها مع الزعماء السياسيين في المدن .

أما أوساط اليسار فكانت جميعها في غليان بالغ . ويعود ذلك إلى أن غيفارا لم يكن يرفض الحوار مع أي قطاع من قطاعات الرأي ، على أنه كان مؤيداً للخط الصيني أو أنه – وهذا أسوأ – لا يزال على بعض صلاته القديمة بأفكار تروتسكي .

وكان الاختيار المفروض على الحزب الشيوعي البوليفي من أخطر ما واجهه من مشكلات . صحيح أنه كان لا يستطيع أن يرفض كلياً ما يؤدي اليه تحليله للموقف ، بدءاً بالكفاح المسلح ، ولكن انخراطه في هذا الكفاح كان خروجاً صريحاً على الستراتيجية السوفياتية . أما لو أنه سلك النهج المعاكس فان غيفارا سينتهي بالتعاون حصراً مع أولئك الأشرار أذيال الصين ، ومع التروتسكيين الذين كان لهم من كراهية أعضاء الحزب نصيب أكبر . لذلك ظلت اللجنة المركزية في تردد بعض الوقت ، لا تدري ما هي فاعلة . وكان

قادة كثيرون يشفقون من كل هـــذا الخليط من الأجنحة التي تزيد انقسامها الخلافات القديمة أن يجعل من الشيوعيين « الأرثوذكسيين » أقليـة آخر الأمر . فلو حـــدث لكان في انضمامهم إلى حرب الغوار تمرد على تعليمات موسكو ولما استطاعوا أن يفيدوا من هـذا الانضمام شيئاً : خطران معـاً كلاهما يكاد أن يكون مميتاً .

وفي مطلع كانون الأول ١٩٦٦ ذهب « ماريو مونخه » ، الأمين العام للحزب الشيوعي البوليفي ، ذهب إلى هافانا ليناقش الأمر شخصياً مع فيدل كاسترو . وكان الزعيم الكوبي هو الآخر في موقف حرج ، إذ لم يكن يجهل الارتبـاطات القائمـة بين الأحزاب الشيوعية اللاتينية الأمريكية وبين موسكو ، وفي الوقت ذاته كان يطمع بالحصول على تأييد الشيوعيين البوليفيين لصديقـه غيفارا . وما اقترحـــه كاسترو على « مونخه » كان في حقيقته دعوة لقبول انتقال القيادة السياسية للأحزاب الشيوعية في القارة من موسكو إلى هافانا .

وعاد « مونخه » إلى بوليفيا وفي ذهنــه صورة للموقف أكثر وضوحاً . وفي ليلة اليوم الأول من عام ١٩٦٧ طلب أن يقوووده إلى معسكر « نيانكا هواسو » ، حيث كان له مع غيفارا حديث لم يكن الود بين سماته . وكان قد سبق لغيفارا ، في عـــدة مناسبات ، أن استشعر مدى حرص الشيوعيين البوليفيين على « عدم التورط » . وكان دعاته في المناجم لا يلقون آذاناً صاغية ، فإذا حـــدث أن قرت عزيمة بعض الرجال على الانضمام إلى صفه تراجعوا عن ذلك في اللحظة الأخيرة .

قال له « مونخه » :

– رسميـاً ، لا يستطيع الحزب الشيوعي أن ينخرط في حرب الغوار . ولكن في وسعه أن يفعـــل ذلك بأسلوب آخر : فإذا أنا استقلت من منصبي ، مثلاً ، فسيكون في وسعي أن أنهج في صفوف المغـــاورين خطاً موازياً لخط الحزب ، يظل الحزب خارجاً عنه غير مرتبط به .

وراقت الفكرة لغيفارا ، لا سيما وأنها كانت قد نجحت في مناسبات سابقة . ولكن شروط « مونخه » كانت في تصاعد متزايد ، إذ أضاف :

— في هذه الحال سيكون من الضروري أن أشرف أنا على المفاوضات مع الفئات السياسية الأخرى ، إذ سيكون من المؤسف أن يتسلل إلى صفوفنا طلاب المغامرة أو الاستفزاز . ألست من هذا الرأي ؟

ولم يكن غيفارا من هذا الرأي ، إذ كان على ثقة من أن غاية (مونخه) هي أن يستبعد عن حرب الغوار أنصار الصين والتروتسكيين والمطرودين من الحزب الشيوعي ، وهذا موقف يتعارض كل التعارض مع نظرته الموسعة للحرب الشعبية . على أنه برغم ذلك ظل يواصل الاصغاء بانتباه إلى اقتراحات(مونخه)، حتى قال هذا :

— نقطة أخيرة : طوال الوقت الذي ستدور فيه العمليات على أرض بوليفيا ، سأكون أنا القائد العسكري والسياسي .

وإذ ذاك أجاب غيفارا بلهجة قاطعة :

— أبداً . لا قائد سواي .

في اليوم التالي مع الفجر ، استطاع غيفارا أن يلتقط إعادة إذاعة لخطاب فيدل كاسترو في هافانا . وكان كاسترو لا يدري بنتيجة مفاوضاته مع (مونخه) ، ولكنه مع ذلك — وهو يتوجه إلى الجماهير المحتشدة احتفالاً بالعيد السنوي الثامن لانتصار الثورة — كان يهتف :

— إننا نبعث بتحية حارة ، تحية صادرة من قرارة أعماقنا ؛ من تلك الأخوة المولودة في صميم المعارك ، إلى (القومندان) غيفارا وإلى رفاقه ، أينما كانوا في هذه اللحظة ...

وساد معسكر « نيانكاهواسو » صمت عميق .

ثم جاء مقطع آخر من الخطاب موجه إليهم :

– حتى الآن قتـل الامبرياليون (تشي) مرات عديدة في مواقع عديدة ، ولكننا نأمل ، في يوم لا يتوقعه الامبرياليون ، أن ينبعث (القومندان) غيفارا من قبره ، كما تنبعث العنقاء الخالدة ، حاملاً سلاح الغوار ورسالة الرحمة . ونأمل أن نتلقى ذات يوم أنباء من (تشي عملية محسوسة ...

وفي تلك الليلة غفا المغاورون وقلبهم ينبض بالأمل . إنهم لم يكونوا وحدهم. وسينتصرون !

ولم يظلوا وحدهم : فقـد بدأ يتوافد متطوعون تم اجتذابهم في مناجم القصدير . وكان أبرز الوافدين جماعة كاملة مع زعمائها ، يرأسها (موبسيس غيفارا) ، الزعيم النقابي لمنجم « سان خوسه » في منطقة مناجم « أوروورو » . وكان في الثلاثين من عمره ، أباً لاربعة أطفال ، يعمل « ميكانيكياً » . وقـد وصل إلى معسكر المغاورين في ١٩ كانون الثاني ١٩٦٧ وقدم نفسه إلى غيفـارا الآخر ، إلى « تشي » .

وبعد شهر انضم إلى صفوف المغاورين ثمانية من أصدقاء « موبسيس غيفارا » بينهم عامل المناجم « سيمون كوبا » ، الذي كان مقـدراً له أن يقوم بدور رئيسي .

في خلال ذلك كانت المفاوضات قد تجـددت في هافانا ، التي ذهب إليها اثنان من زعماء الحزب الشيوعي البوليفي هما (خورخي كوليه) ، الذي سبق له الاجتماع مع (تشي) ، و (سيمون ريجيس) ، وهو عامل مناجم في الخامسة والثلاثين ، كان (سكرتيراً) للاتحاد النقابي لعمال المناجم . وكان هذا الاتحاد عنصراً أساسياً في حركات عمـال المناجم ، ولكنه كان يرفض الاشتراك في أعمال المغاورين خشية أن تتهم الحكومة العسكرية العمال بالخضوع إلى قيـادة أجنبية يوم يكتشف أن (تشي) هو الذي يقود حرب الغوار . وقـد زعم (ريجيس) أن الاذى في هذه الحال سيكون أكبر من النفع المرجو . وفي هـذه المحاولة الرسمية الاخـيرة لتحديد موقف الحزب الشيوعي من حرب الغوار عاد

المبعوثان الشيوعيان إلى ترداد النغمة القديمة ذاتها : إن جماعة (نيانكاهواسو) تجتذب كل المنشقين في اليسار البوليفي ، وقد بدأت بالفعل تنحو منحى خطراً على الشيوعية الرسمية . ومن هنا استنتج كاسترو ، وإن لم يقولا ذلك صراحة ، إن غيفارا لن يستطيع الاعتماد على جهاز الحزب الشيوعي ولا على شبكات تموينه ومواصلاته ولا على أعضائه العاملين . وصحيح أنه لم يكن أحسن ظنـاً من غيفارا بالحزب الشيوعي البوليفي ، ولكن هـذا الحزب — على ضعف روح القتال لديه وعلى افتقـاره إلى (الكوادر) في صفوف العمال — كان يستطيع أن يلعب دوراً حاسماً بالحيلولة دون عزل حركة المغاورين .

أما منطقة العمليات فكانت لا تزال هادئة . وليس هذا بالأمر الذي يثير العجب إذا نحن ألقينا نظرة على خريطة ولاية «سانتا كروز» : اننـا سنرى فيها شكلاً رباعياً لا يقطنه أحد ، تحده غرباً «كاميري» و «سانتاكروز» ، وشرقاً «بويرتو سواريس» ، وشمالاً «كونسبثيون» و «سان إغناسيو» . ولن نجد على الخارطة أي تجمع سكاني ، لا لأن راسمي الخرائط أهملوا الاشارة اليه بل لأنه لا وجود عملياً للبشر في هذه المنطقة . فلو أننا أقمنا المقارنة بين هـذه الولاية البوليفية وبين بلدان أخرى لوجدنا مساحتها تساوي مساحة بريطانيـا وبلجيكا وكوبا مجتمعة ، بينما لا يكاد عدد سكانها يبلغ ٣٤٠ ألف نسمة : أقل من شخص واحد في كل كيلو متر مربع .

ومزرعة «نيانكا هواسو» منعزلة في وسط هذه الأرض الفقيرة بالسكان والزاخرة بالنبات . فالطريق العامة تمر بقرية صغيرة تدعى «لاغونيلياس» ، يعيش فيها ستمائة شخص ، فيعتبرها السكان المحليون مدينـة . ومن لاغونيلياس يتفرع درب يقود الى مزرعة «البنكال» يحتاج المرء إلى أقل من ساعة لقطعه في سيارة (جيب) . أما فيما وراء ذلك فيمتد في دروب عديدة ضيقة ، تكثر فيها العواثير ، وتلتوي في شعاب وعرة ، ويتكاثف فيها النبات . ثم تكتـظ النباتات المتسلقة فتغلق سبل المنطقـة ، حتى لتعجز عن اكتشاف رجل أو حيوان يلبد على مترين منك . أما نهر (نيانكاهواسو) ، الذي يجتـاز الأرض

التي أقام فيها «تشي» قيادته العامة ، فينساب في قعر فـج حصير ، ويضيق جرفاه ، بل ينعدمان في بعض المواضع فأنت مضطر إلى الانغماس مرة أخرى في الغابة العذراء قفزاً فوق الصخور . وتعلو هذا كله سحب مـن البعوض النهم . ولكن ألد أعداء الانسـان ـ أكان جندياً أم مغاوراً أم فلاحاً أم مستكشفاً ـ يظل النبات الضاري ، الدغل الكثيف العثور الشائك ، الذي يغزر فيه العوسج والنبت المتسلق من كل صنف ،كالتكاثر الشجيرات الشائكة من فصيلة (الكاكتوس) ، بأوراقها المسننة كالمنشار تمزق الثياب والجسد .

وفي هذه الأرض المهلكة كانت الحوادث عديدة : فيوم ٢٦ شباط مـات عامل بوليفي من الملتحقين بالحركة حين انزلق في أحـد الوديان . ولم يلبث آخرون أن عرفوا مثل مصيره : غرقوا في تيار النهر الدافق أو سقطوا من أعلى هوة فتحطموا على الأرض الصخرية .

أما في المعسكر فكانت الحياة قاسية ، ولكن العمل كان موفوراً بانتظار ساعة المعركة . وكان فريق من المغاورين يتلقى دروساً منتظمة في (الكيتشوا) ، لغة هنود المنطقة ، التي كان يتكلمها أيضاً كثير من الفلاحين . كانوا يكتبون الوظائف ، ويتعلمون تصريف الأفعال وتركيب الجمل ، على أمل أن يحققوا بذلك اتصالاً أعمق وأحم مع السكان المحليين .

ولكن المغاورين ، بعد بضعة أشهر من الحياة المشتركة ، كانوا قد استهلكوا تقريباً كل مدخراتهم من الاطعمة . كانت آخر ذكرياتهم الطيبة ليلة رأس السنة ، التي استمعوا فيها الى فيدل كاسترو يتكلم من هافانا ، فاحتفلوا بهـا وعلى مائدتهم خنزير صغير وحلوى اسبانية وبعض الجعة وشراب التفاح . أمـا في شباط فلم يكن قد بقي الا القليل مما يؤكل ، ولم يعودوا يسمعون بأي نبأ عن الرجل المكلف بتموين الحركة ، والذي كان مقيماً في (لاباز) . وقـد عرف غيفارا بعد قليل أن هذا المسؤول ، الذي لم يقع الاختيار عليه الا لمـا كان يوحي به من ثقة ، قد خانهم في تلك اللحظة الحرجة وهرب حاملاً معـه ٢٥٠

الف دولار كان استلمها ليشتري بها المؤن وليوصلها الى (نيانكا هواسو) .

وأخذ المغاورون يصطادون. كانوا يقنصون القرود وطيور الحمام الوحشي، ثم يشوونها على السيخ. وكانوا قد انقسموا فئتين ليزدادوا معرفة بالمنطقة، ولكن الفئتين أخذتا تشكوان نقص الغذاء . وبدأت نذر سوء في الأفق : إذ هرب اثنان ، وفقد بعض السلاح ، وضاع جهاز للتحذير .

وفي آخر شباط ١٩٦٧ قامت جماعة من خمسة رجال ، بينهم كوبيان على الأقل ، باتصالات متفرقة مع الفلاحين ، فاستقبلهم هؤلاء بالحذر : كانوا يرون فيهم غرباء ، وتجربتهم الطويلة علمتهم أن لا ينتظروا من الغرباء إلا الشر . وقد دلوهم على الطريق إلى «ريوغراندي» ولكن ما ان ابتعدوا عنهم حتى كانوا يبلغون الجيش بأمرهم . ثم شاهد هؤلاء المغاورين أنفسهم فلاحون آخرون : كانوا في هذه المرة قد اجتازوا « ريوغراندي » سباحة ، وكان أحدهم يخرج من جيوبه المليئة بالماء أوراقاً نقدية بوليفية ودولارات يفرشها في أناة على الأرض كيما تجففها الشمس . وكانت تلك هي المرحلة الأخيرة من مهمة استطلاعية قامت بها تلك الجماعة الصغيرة فلقيت فيها ألواناً من الحرمان ، واضطر رجالها أكثر من مرة إلى الاغتذاء بأسماك ميتة كانو يعثرون عليها عند ضفاف النهر الضيقة ، وأخذوا يتقدمون في بطء بالغ فلا يقطعون في نهارهم أحياناً أكثر من أربعة كيلومترات بسبب وعورة الأرض .

هكذا ، اذن ، عرف الجيش أن رجالاً يلبسون بزات عسكرية ، أكثرهم ذوو لحي ، كانوا يطوفون أرجاء المنطقة الممتدة شمال « كاميري » ، فأرسل كشافين يستطلعون الأمر ولكن مهمتهم لم تكن أقل عسراً من مهمة المغاورين ، كما أن التصوير الجوي لم يكن عملياً ذا جدوى لأنه لم يكن قابلاً للاستخدام إلا في خمس المنطقة .

ويوم ١٦ آذار هرب اثنان من عمال المناجم ، من جماعة «مويسيس غيفارا» ، وقد أضناهما الحرمان وخيب آمالهما عدم وقوع معارك فعلية . ولم تكد تنقضي

ثلاثة أيام أخرى حتى وضعت دورية من الجيش يدها على مستودع سري ذي قيمة ضخمة لمن كان يعنيه إلقاء الضوء على الأحداث الجارية : كان الهاربان قد باعا السر ، فعثر الجيش في المستودع ، في ست حقائب كبيرة وبضع حقائب أخرى صغيرة ، على ثياب مدنية تكفي لإلباس عشرة أشخاص . وكان بعض هذه الثياب يحمل في بطانته قطعة قماش طرز عليها اسم المتجر الذي اشتريت منه : «محل آلبيون ، هافانا» .

هذا الاكتشاف كان في نظر الجيش ذا أهمية غير محدودة : فما دام هنالك عدد كبير من الكوبيين في الغابة العذراء ، فمن الممكن افتراضه أن يكون «تشي» واحداً منهم . وقد استولى الهرج والمرج على أجهزة الأمن في كل انحاء القارة ، وذهب «الكولونيل كوليه كويتو» ـ رئيس أركان الطيران وشقيق زعيم الحزب الشيوعي ـ الى كل من بونس آيرس وريوده جانيرو ليطلب منهما عوناً يتناسب مع مكانة الشخصيات العاملة على اشعال الثورة في بوليفيا .

وأعلن الجيش النفير ، وأخذت دورياته تجوب المنطقة على غير ما خطة . وكانت دهشة الجنود بالغة حين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام مخفر متقدم للمغاورين ، موضوع تحت أمرة «القومندان أنطونيو دياز» الكوبي . وكان هذا لم يتلق أمراً بخوض المعركة ، فاجتنبها . ولكنه اختار أسلوباً خطراً للهرب هو الانكفاء إلى مقر القيادة العامة في «نيانكا هواسو» فقد كان يكفي الجيش أن يقتفي آثارهم ليصل إلى المعسكر . وكانت هذه المسألة مسألة وقت لا أكثر .

وأظهر «تشي» استياءه البالغ وهو يستمع الى تقرير «سانتشز»[1] ،

---

١ ـ لا يقول المؤلف اذا كان هذا الاسم هو الاسم المستعار الذي كان يطلق على «القومندان أنطونيو دياز» بين رفاقه ، و «ريجي دوبريه» في دفاعه أمام المحكمة يقول ان المسؤول عن عملية التراجع هذه كان يدعى «كارلوس» .

(المعرب)

وبعد مناقشة عاصفة عزله من قيادته وأنزله الى رتبة جندي عادي .

ثم قرر على الفور أن يخوض المعركة ، بعد أن أصبح مستحيلاً إخفاء وجود الثوار .

وكان يوم ٢٣ آذار هو اليوم الذي نالت فيه حركة المغاورين نصرها الاكبر : فلقد قتلت من رجال الجيش سبعة وجرحت أربعة وأسرت تسعة ، أعادتهم بعد قليل ولكن بعد أن قدمت للجرحى الاسعافات الأولية . وأحتفظ المغاورون بغنيمتهم من الاسلحة : ست بنادق «موزر» وثلاثة رشاشات وكمية وافية من الذخيرة .

هذه المعركة غيرت الصورة المعقدة للتأييد السياسي الذي كان يتمتع به المغاورون . فبين الاسرى الذين ظلوا رهائن عندهم يوماً بكامله ، كان هناك ضابطان . وهم قد أطلقوا سراحهما ، ولكن بعد ان نزعوا اسلحتهما وثيابهما العسكرية . ودفعتهما هذه المهانة البالغة ، حفظاً لماء وجههما ، الى تضخيم قوة المغاورين التي أخذتهما على غرة . وقد أدت تصريحاتهما هذه الى جعل الجيش ، مدى بعض الوقت ، يتصور أن عدد المغاورين يتجاوز الخمسمائة رجل .

وعلى أية حال ، كانت نتيجة المعركة قد أثبتت أن المتمردين يؤلفون جماعة فعالة مزودة بالسلاح الكافي . ولئن كان الجيش هو البادىء بقبول تصريحات ضباطه تبريراً لهزيمته ، فان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لم تلبث أن اقتدت به ، إذ عقدت اجتماعاً طارئاً عاجلاً وأصدرت في آخر آذار بياناً تعلن فيه تضامنها مع حركة الغوار . ومن الجدير بالملاحظة أن هذا البيان صدر يحمل توقيعي « مونخه » و « كوليه كويتو » ، الرجلين اللذين عجزا عن التفاهم مع كل من « تشي » وفيدل كاسترو على شروط دعمهما لحركة الغوار ، فقدما بذلك الدليل على أنهما لم يحسنا استخدام ما يمثله حزبهما من قوة ضاربة ، ولذلك اضطرا

هما أيضاً الى انقاذ ماء وجههما سياسياً . ومع ذلك فان المدن لم تبعث بأي عون فعلي الى مزرعة « نيانكاهواسو » .

وفي اليوم التالي لمعركة «نيانكاهواسو» قام الطيران بضرب قطاع المغاورين بالرشاشات من علو منخفض ، وبدأ الجيش عمليـة تطويق واسعة ، وأعلنت محطات الاذاعة في « لاباز » ان عدد المغاورين يتجاوز السبعمائة . وقد حشد في المنطقة نحو ألفي جنـدي ، بينما بدأت طائرات « الهيليكوبتر » نشاطها يرافقها خبراء مقاومة العصابات الأمريكيون . ووصل أيضاً ممثلو وكالة المخابرات المركزية .

أما في المعسكر ، البعيد عن مقر قيادة « تشي » ، فكان يسود منـاخ الشقاق ، عائداً بصورة رئيسية الى افتقاد الأغذية والى انقطاع الصلة عملياً مع العالم الخارجي : فلقد كانت الأنباء الوحيدة التي يستطاع التقاطها غير جديرة بالثقة لأن أكثرها تذيعه المحطات البوليفية . وبدأ « تشي » يدرك أهمية وجود « مسند ظهر » على الحدود ، كحدود الاتحاد السوفياتي أثناء الحرب الشعبية الصينية وحدود الصين أثناء حرب فيتنام . هذا بينما كانت كل الحـدود ، في بوليفيا ، عـوناً للحكومة القائمة ضد المغاورين ، وكانت جيوش الأرجنتين والبرازيل والبيرو تؤلف خطاً متصلاً على حدود البلاد ، فكان غير قابل للتصور ان تستطيع الوصول اليهم أية نجدة حاسمة الأثر متسللة عبر هذا الجـدار من الجهود ، كما حدث في « السيرا مايسترا » يوم استطاعت طائرة أن تحمـل الى كاسترو شحنة كاملة من السلاح .

وأدرك « تشي » ان الوضع لا يمكن أن يتحول لمصلحة رجاله إلا اذا تبدل المناخ السياسي في المدن تبدلاً جذرياً . ولكن تحقيق مثل هذا التبدل مهمة المنظمات السياسية ، وغيفارا لم يكن يملك احدى هذه المنظمات . ولقد قضى غيفارا بضعة أيام ، بعد صدور البيان الذي يعلن فيه الحزب الشيوعي تأييده لحركة الثوار ، يرجو أن يأتيه مبعوثون شيوعيون جدد . ولكنه لم يلبث أن

أدرك أن هـــذا التأييد لن يكون الا لفظياً ، وان موقف الحزب الشيوعي لم يتغير في جوهره . ولقد كان بوسعه أن يطلب معونة حزب الأكثرية ، « الحركة القومية الثورية » ، ولكنه كان لا يثق أبداً بزعماء هذا الحزب ، كما كان هؤلاء بدورهم لا يحرصون مطلقاً على تشويه سمعتهم بالمشاركة في حركة تمرد شيوعية : كانوا يحافظون على صلات عديدة ومتينة مع العسكريين ، وكذلك مـع بعض الفئات البالغة القوة في الولايات المتحدة ، ولو أن حزبهم اعترف بـ « تشي » كزعيم عسكري لخسروا كل مزايا هذه المحالفات .

هكذا أصبح الحصار حصارين : سياسياً وعسكرياً. ومن المؤكد أن غيفارا ذهب ضحية اغراقه في التصلب ، فلم يحاول البحث ، كما فعل كاسترو عـــام ١٩٥٨ ، عن تحالف مع أحزاب المعارضة لتحطيم الطوق السياسي وتفـادي الاختناق داخله . لقد وقع كاسترو مع الأحزاب البورجوازية في كوبا ميثاق كراكاس ، فألقى به قناعاً كاملاً على الأهداف الأساسية لحركته وجعلهـــا لا مقبولة فحسب بل جديرة بأن يدافع عنها السياسيون المحترفون . وقد سمحت له هذه المناورة فيما بعد أن يفاوض القادة العسكريين الذين كانوا يدافعون عن باتيستا والذين هدأ من روعهم السياسيون ، بعد أن أطمأن اليه هؤلاء أنفسهم بتوقيـع الميثاق . ولطالما حدثني غيفارا عن اعجابه بما اتصف به كاسترو من موهبة سياسية فائقة . وها هو في تلك اللحظة الحرجة يدرك مرة أخرى مدى افتقاره هو الى مثل هذه الموهبة . فلو أن كاسترو كـان في موضعـــه لكـان من المؤكد ألا يتـــرك نفسه يقـع في مثل هـــذا الموقف المستعصي، ولتصور حلاً ما – أيا كان مبلغ ظاهره من اللامعقولية في حينه – يستطيـع به إخراج رجاله من العزلة السياسية ومن العجز العسكري . ولعله ، في موقف كهذا ، كان سيرضى بتسليم القيادة للشيوعي « مونخه» ، شريطة أن ينخرط في القضية كل جهاز الحزب لقاء ذلك . وهذا لم يفعله غيفارا .

وكان الرئيس البوليفي الجنرال « بارينتوس » لايزال يرفض الاقتناع بأن

«تشي» موجود في بلاده ، على رغم تأكيدات بعض القادة العسكريين . كانت الاذاعة تنشر تصريحات له يقول فيها : « هذا الرجل مات ، كما مات صديقه كاميلو سيينفو بغوس [1] » . ولكن القائد العام للجيش كان أكثر تشككاً . كان يقول : « ان المغاورين لا يريدون الخروج من المنطقة التي هم فيها لأن بينهم أشخاصاً ذوي مكانة ، قد يكونون زعماء أجانب ، عليهم أن يدافعوا عنهم » . وبسبب هذا الشك كان يزيد من عدد قوى الحصار ، حتى بلغت إذ ذاك ثلاثة آلاف رجل .

وفي مطلع نيسان ١٩٦٧ وصل إلى علم غيفارا نبأ سيء آخر : فلقد أعلن الرئيس السابق « باز استنسورو » [2] ، الذي كان يعيش منفياً في « ليما » بعد أن أسقطه العسكريون ، أن حركة الغوار مؤامرات شيوعية وبالتالي فان الشعب لن يمنحها تأييده ، لأن ما يهم بالدرجة الأولى كان أن تبقى له قوميته . وكان معنى هذا أن عجز غيفارا عن الحوار مع أهم الأحزاب الشعبية في البلاد قد دفع زعماء هذا الحزب إلى المشاركة العلنية في مقاومة حركة الغوار . وهكذا زاد من عزلة «تشي» السياسية أن أبرز «الكوادر» المعنيين بالسياسة في بوليفيا كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي أو في الحركة القومية الثورية ، وان هذين الحزبين قررا ترك حركة الغوار لمصيرها العاثر .

وفي العاشر من نيسان اصطدم المغاورون مرة أخرى بالجيش ،قريباً جداً من « نيانكا هواسو » ، في موقع يدعى «ايريبيتي » . وقد قتل في المعركة أحد عشر جندياً ، وجرح ستة ، وأسر أحد عشر آخرون بينهم ضابط . وسجل

---

١ ـ أحد أبطال « السيرا مايسترا » ، وأحد الوجوه الأكثر شعبية في «حركة ٢٦ تموز» . وقد قتل في حادث طائرة ظلت أسبابه الحقيقية غامضة .

٢ ـ مؤسس « الحركة القومية الثورية » . انتخب ثلاث مرات رئيساً للجمهورية البوليفية ، وأمم مناجم القصدير واستصدر قانون الاصلاح الزراعي ، ولكنه ظل صريحاً عنيداً في عدائه للشيوعية .

المغاورون أيضاً بعض الخسائر ، ولكنهم ربحوا مكافأة ثمينة : خمساً وثلاثين قطعة سلاح ، كثير منها في حالة ممتازة .

وفي أعقاب هذه المعركة قرر «تشي» أن يخرج من المعسكرين صديقين له كانا قد التحقا بالحركة في ظروف خاصة جداً . وكان أول هذين الصديقين الفرنسي (ريجي دوبريه) صديق كاسترو الحميم ، الذي كان قد وصل من هافانا الى بوليفيا بالطائرة على بضع مراحل . وكان قد جاء الى (نيانكاهواسو) في مهمة صحفية في جوهرها ،غرضها أن ينشر في الصحافة الأوربية نبأ قيام حرب غوار في بوليفيا ، وأن يعلن – حين يحين الوقت المناسب – أن غيفارا هو قائد المغاورين . وكان (دوبريه) في المعسكر منذ ٦ آذار ، يوم وصل اليه مع رجل آخر هو الأرجنتيني « سيرو بوستوس » وكان هذا الأخير قد استدعي لحضور اجتماع سياسي هام سيشترك فيه « تشي » ، ولكن دون أن يقال له سلفاً إن موضوع هذا الاجتماع كان تفجير حركة الفوار . وكان بصورة اجمالية يلتقي مع غيفارا في آرائه ، ولكنه لم يكن راضياً عن الطريقة التي تم بها إعداد الحملة ولا عن الموعد الذي اختير لها . ولقد أبلغ غيفارا بموقفه هذا ، وانتقد المشروع بقسوة ، في نقاش كان شاقاً على نفسه لأنه كان يحترم غيفارا ويعجب به . هذا الى أن غيفارا انتهى الى الاعتراف بأن النقد كان صحيحاً في نقطتين أساسيتين : عدم توفر المعلومات عن البيئة المحيطة وعدم انتظام عمليات التموين .

وكان عنق الزجاجة الضيق في «نيانكا هواسو » محاطاً بقوى الجيش من كل جانب ، فما يدري غيفارا كيف يستطيع اخراج «دوبريه» و « بوستوس » من هذه الدائرة . وأخيراً أخرجهما في اتجاه بدا له أنه الأكثر أماناً . ولكنه في الواقع لم يكن كذلك : ففي العشرين من نيسان اعتقلتهما دورية عسكرية ، كما اعتقلت معهما رجلاً ثالثاً كان قد انضم الى رفقتهما بصورة عارضة ، هو المصور الانكليزي «جورج أندرو روث» الذي تزود باذن بالمرور من أحد القادة

العسكريين لأنه كان يريد كتابة تقرير صحفي عن المغاورين : لقد خانهم الحظ فسقطوا بين أيدي الجيش بينما كانوا يجتازون قرية « موجو بامبا » الصغيرة .

كان في ذلك سوء تبصر ندم «تشي» عليه : فها قد وضعت السلطات يدها على اثنين يمثلان أفضل أدوات اتصاله المباشر مع الخارج ، وربما أدواته الأخيرة لحقبة طويلة ، كما دلت على ذلك الأحداث التالية .

وكان غيفارا ، قبل ذلك بفترة قصيرة ، قد نجح في أن يوصل الى هافانا «رسالة الى شعوب العالم » ، نشرتها يوم ١٦ نيسان منظمة تضامن شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية [١] ، مرفقة بست صور له ــ اثنتان بالثياب المدنية وأربع بالبزة العسكرية ــ لا ريب في أنها التقطت له في الغابة العذراء في أمريكا الجنوبية ، وان كنا لا نعرف أين بالضبط . وهذه الرسالة هي الوصية الشهيرة التي دعا فيها غيفارا ثوريي العالم إلى حمل السلاح وإلى «خلق اكثر من فيتنام واحدة» ، والتي ضمنها تحليلاً مأوساياً للظروف الدولية ، منكراً كل الأسس التي يتحدث عنها الآخرون كمناطات لسلم عالمي لم يحن أوانه بعد .

وقد تضمنت هذه الرسالة تلميحاً عابراً للعزلة التي كان فيها والتي كان يشير اليها من خلال المثال الفيتنامي ، قائلاً : « ان تضامن العالم التقدمي مع شعب فيتنام يذكر بتلك المرارة التي لا بد أن مصارعي الملعب الروماني كانوا يستشعرونها وهم يسمعون هتاف العامة تشجيعاً لهم . إن ما نريده ليس تمني النصر لمن يتلقى الهجوم ، بل مشاركته في مصيره ، ومرافقته حتى الموت أو النصر » .

---

(٥) أنشئت هذه المنظمة في كانون الثاني ١٩٦٦ خلال المؤتمر الأول للقارات الثلاث في هافانا ، على هدف النضال ضد الامبريالية وتشجيع الثورة الاجتماعية في العالم الثالث . وكان المتفق عليه أن يعقد المؤتمر القادم عام ١٩٦٨ في القاهرة .

كانت تلك حملة عنيفة على الموقف السوفياتي من جانب، وعلى الموقف الصيني من جانب آخر وان لم يذكر أيهما . ولكن غيفارا ، وهو يتحدث عن « عزلة الفييتنام » كان يعترف أيضاً بجزعه .

وكان محقاً اذ يجزع للعزلة التي هو فيها .

فلقد أخذت تتكاثر الاصطدامات بالجيش ، بينما كانت عمليات «التمشيط» - أي تنظيف الارض متراً بعد متر - تزيد من ضيق الرقعة التي يستطيع المغاورون أن يتحركوا ضمنها .

ففي « الميسون »جنوب جبل (دورادو) على المنحدر الخارجي لسلسلة (نيانكا هواسو) ، فاجأ المغاورون مرة اخرى دورية عسكرية فاوقعوا فيها ضحيتين ، كما قتلوا كلباً (بوليسياً) دربه الأمريكيون على اصطياد البشر في الغابة العذراء .

وبعد أسبوعين قتل المغاورون رجلين في (تابريليا) ثم استأنفوا هجومهم كرة أخرى بعد قليل فقتلوا ثلاثة عسكريين أحدهم ضابط ، وجرحوا بضعة آخرين .

في هذه المرحلة من العمليات وجد غيفارا والزعيم البوليفي «روبرتو بيريدو» وقتاً يكتبان فيه البيان الأول لحركة الغوار . وكانت هـــذه الوثيقة في الوقت ذاته إعلاناً عن ميلاد « جيش التحرير الوطني البوليفي » وفتح صفوفه للمتطوعين أياً كان ولاؤهم العقائدي . وفيما يلي نص هذه الوثيقة ، التي يحتمل أن تكون كتبت في أيار وإن كانت مؤرخة في نيسان :

« من جيش التحرير الوطني إلى الشعب البوليفي :

« لقد عانى شعبنا في تاريخه ولا يزال يعاني حتى الآن سلسلة طويلة من ألوان الحرمان والعذاب . فمنذ مئات السنين ينسفح دم أبنـــائه دافقاً دون توقف . وهناك ألوف الأمهات والزوجات والبنات والأبناء الذين

سكبوا الدمع مدراراً كالسيول ، وألوف المواطنين الأبطـــال الذين حصدت حياتهم .

« لقد عشنا في بلدنا نحن كما يعيش الأجـــانب ، حتى أصبح لأي « يانكي » أمبريالي من الحقوق في أرض وطننا أكثر مما لنا نحن ، حقوق يسميها « امتيازات » ، فيستطيع بها أن يهدم منـــازل البوليفيين وأن يخرب حقولهم وأن يحرق ممتلكاتهم . إن أراضينا لم تعد لنا ، وثرواتنا الطبيعية كانت ولا تزال تزيد من ثراء الأجانب، ولم يبقَ لنا إلا الجحور وإلا دهاليز المناجم المعطلة وإلا الكهوف العميقة في رئات البوليفيين ؛ فلا مدارس ولا مستشفيات لأطفالنـــا ؛ وظروف معاشنا تاعسة ، لا نقبض إلا الأجر البخس ، والألوف من رجالنا ونسائنا وأطفالنا يموتون خوراً كل عـــام ؛ والفلاح يعيش ويعمل في بؤس مـــذهل . وبصيغة أخرى ، نحن نعيش عيشة العبيد ، محرومين من حقوقنا ومن منجزاتنا ، تضطهدنا وتستذلنا القوة .

« وعلى مرأى من العالم الذي أفزعه المشهد ، أنقصت الأجور عـــام ١٩٦٥ ، وطرد العمال وسجنوا وقتلوا ، ونهبت المخيمات التي كان يجتمع فيها النساء والأطفال العزل وضربت بالقنابل .

« هذا هو الوضع الذي نعيش فيه . ولكن شعبنا كان دائماً ولا يزال شعب نضال ، شعباً لم يعترف قط بهزيمته .

« ولطالما أعطانا عمال المناجم والفلاحون وكل العـاملين الآخرين ، والطلاب الذين يمثلون شبابنا المجيد، أبطالاً لا عد لهم كتبوا بدمائهم أروع الصفحات في تاريخنا . فأمام أعيننا وأعين العالم ترتفع وجوه أسطورية كوجوه « باديليـــا » و « لامزا » و « منـــديبي » و « سودانيس » و « نييفلو » و « موريليو » و « توبا كامارا » و « وارنرس » و « آرسه » ، وكذلك بطلتنا « كورونيليـــا » الفريدتان ، « خوانا آسوردوي ده

باديليا » و « بارتولينا سيسا » . وشعبنا البطل مستعد لأن يقتفي أثر هؤلاء جميعاً على دروب المجد .

« ولئن كان صحيحاً أن الأجيال السالفة ناضلت مدى خمس عشرة سنة نضالاً مريراً من أجل بناء وطن حر ذي سيادة ، طاردة من أرضنا الغازي الأجنبي ، فإن قوى رأسمالية جديدة لم تلبث أن جاءت تنشب مخالبها في الوطن الذي بنـــاه « بوليفار » و « سوكري »[١] . ويبلغ الألوف عدد الفلاحين الذين قتلوا بوحشية منذ قيام الجمهورية حتى أيامنا هذه ؛ ويبلغ الألوف عدد عمال المناجم والعمال الذين كان يجـــاب على طلباتهم بطلقات الرشاشات ؛ كما يبلـغ الألوف أيضـــاً عدد الضباط « الشجعان » الذين نالوا رتبهم ومناصبهم في هذه المعركة غير المتكافئة ، يطلقون الرصاص والقنابل على شعب أعزل ، أعزل ولكنه يعود دائماً إلى النهوض من كبوته ، ولا سلاح له إلا إصراره على أن لا يحني هامته وعلى ألا يستكين للمهانة .

« إن ذكرى المذابح والجرائم والإهانات التي كان الشعب البوليفي ضحية لها لا تزال محفوظة في نفوسنا كاملة . وأنتم أيهـا السادة رجـال الشرطة والجنرالات والامبرياليون « اليـانكي » ملطخو الأيدي بدماء الشعب البوليفي . وقد دقت اليوم ساعة نهـــاية ملكوتكم . وسيولد الانتقـام من بحور الدم ، من كل الدم الذي سفحتموه دفاقـــاً يتفجر ، من تراب ألوف الوطنيين الذين قتلتموهم ولاحقتموهم وأنزلتم بهم السجن والتشريد . اليوم ينتصب ضدكم جيش التحرير الوطني . فيـــا رجال الريف والحضر ، يا رجال المناجم والمعامل والمدارس والجامعات ، أيها الرجال الشجعان ، يدكم على بندقية !

---

(١) رفيق « بوليفار » ، وأول رئيس لبوليفيا بعده . وقد قتل عام ١٨٣٠ .

« وصوت العدالة والرفاه والحرية يبشر أيضاً ، أيها القتلة ، بأن نهايتكم حانت . هـــذا الصوت يدوي في كل الشعب البوليفي ، في الجبال والوديان ، في الغابة العذراء وعلى الهضبة ، مزمجراً لا سبيل إلى كبته .

« اليوم أيهـــا السادة الجنرالات ، وأنتم تتلقون الضربات الأولى ، اليوم تطلبون الرحمة لأمهاتكم وزوجاتكم وأبنائكم . ونحن أيضـاً نتألم من أجلهم . ولكن هل تحسبون أن أولئك الألوف من الفلاحين والعمال والأساتذة والطلاب لم يكن لهم أبناء وأمهات وزوجـــات ؟ أولئك الرجـال الذين قتلتموهم دونما رحمـــة في الشارع ، في « كاتافي » و « سيرداس » و « فيليـــا فيكتوريا » ، و « الآلتـو » ، و « لاباز » و « ميليوني » و « سيغلو فينتي » ؟

« أمام حيوية كفاحنا الوليد أخـــذت العصابة الحاكمة وسيدتها الامبريالية « اليانكي » ، ترتعدان خوفاً . أنهما طريدتان كالوحش المفترس حين يقع في الفخ ، فهما ترتكبان المزيد من فظائع الاضطهـاد ، وتريان أنهما عاجزتان عن ارتكاب جرائم أكبر ، وعن انتهـــاك دستورهما المزعوم ، الديمقراطية الذي فرضتاه بالتصويت كيما يحـترم . وماضيهما في مكافحة المغـاورين يدفعهما إلى تحريم الأحزاب السياسية اليسارية ، كما لو كان ممكناً أن تقتل الأفكار بمرسوم وهما تلاحقـــان وتسجنان وتقتلان (« تدفعان إلى الانتحـار ») مواطنـين أحراراً تتهمهم بأنهم مغاورون . وتعتقلان وتعذبان صحفيين أجانب محاولتين أن تلصقا بهم صفة المغاورين . وتختلقان الفرية بعد الفرية وتنسجان دعايتهما انطلاقاً من أكاذيب يضحك من سخفها الشعب فيزدريها . وبعد الآن ، كل ما يمكن أن تعملاه لخنق حركة الفوار سيكون بلا جدوى ، وكذلك كل ما تفعلانه لمحاولة البقاء في السلطة . إن نهاية هذه العصابة الحاكمة قـد آذنت .

« ان كفاحنا ضروري للقضاء على اللصوصيـــة ، والانحراف ، والجور ، والجريمة ، والمناصب الشكلية التي تنتفع بها قبضـــة من ذوي الامتيازات . وهو ضروري لبناء مجتمع جديد بلا طبقات ، مجتمـع تسود فيه العدالة الاجتماعية فيتساوى كل الناس فيه حقوقاً وواجبات ، وتستغل فيه الثروات الطبيعية من قبل الشعب ومن أجله . ونحن نعلم أن الوطن ، في هذا الكفاح ، سيخسر حيوات بشرية كثيرة كان يمكن أن تنفعه ، سواء بين الضباط أو بين الجنود العاديين ، لأن من المؤكد أن كل الذين يرسلون إلى ساحة المعركة لا يفكرون تفكير العصابة المتسلطة المؤيدة لليانكيين .

« من أجل هذا ندعو كل الوطنيين ، ضباطـــاً وجنوداً عاديين ، أن يلقوا السلاح ، وندعو شبيبة وطننـــا المجيدة أن ترفض الالتحـــاق بالجيش . كذلك نتوجه بندائنا إلى الأمهات كي يمنعن أبناءهن من أن يضحوا بأنفسهم دفاعاً عن عصابة باعت نفسها للدولار الأجنبي ، عصابة تسلم القسم الأكبر من ثرواتنا للامبريالية «اليانكية» الجشعة .

« إن جيش التحرير الوطني يتوجه بندائه إلى الشعب البوليفي كيما يتحد ويؤلف جبهة متينة ، لا تميز فيها بين الألوان السياسية ، ويتوجه بندائه إلى الوطنيين كيما يستعدوا للكفاح ويلتحقوا بجيش التحرير الوطني. كما أن تقديم المعونة لهذا الجيش يمكن أن يتم دون الانضمام اليه ، وهناك لهذه المعونة ألف أسلوب ، وعبقرية الشعب الخلاقة ستعرف كيف تجد العديد من أشكال هذا التعاون ، بدءاً من تأييد جماعات الأنصار حتى أشكال الانخراط الأكثر جرأة . وكل المشكلة هي في التنظيم وفي أن يؤدي النضال إلى جعل العصابة الحاكمة وسيدتها الامبريالية «اليانكية» تشعران باهتزاز الأرض البوليفية تحت أقدامها . ونحن نحذر الشعب من أن الامبريالية «اليانكية» ، في مسعاها للاحتفـــاظ ببلدنا تحت

سلطانها ، قد تلجأ إلى جنرالات جدد وإلى مدنيين آخرين ، بل حق إلى رجال مزعومي الثورية ، لن تلبث أن تستعيض عنهم هم أيضاً متى لم يعودوا قادرين على خدمتها . فلا ينبغي لنا أن نفاجأ ولا أن نخدع ، كما حدث لنا طوال تاريخنا . فهذه المرة بدأ القتال ولن يتوقف إلى أن يصبح الشعب حاكم نفسه وأن يطرد كل سلطان أجنبي .

«ولكن مفهوماً أن جيش التحرير الوطني سيسهر على فرض حرمة المثل العليا الشعبية ، وأنه متى حان الوقت سيعاقب المضطهد والجلاد والواشي والخائن، وكذلك أولئك الذين يجترحون المظالم تجاه الفقراء . ونحن الآن نقوم بانشاء منظمات للدفاع المدني . والمحاكم الثورية لن تلبث أن تباشر عملها لتدين وتعاقب .

« إن جيش التحرير الوطني يعلن ايمانه وثقته بالنصر النهائي ضد «اليانكين» ، ضد الغزاة في مسوح المستشارين من أية جنسية كانوا . ولن نتوقف حتى يزول آخر أثر للسلطان الامبريالي وحتى تنتصر سعادة الشعب البوليفي المجيد وتقدمه ورخاؤه .

« الموت ولا حياة العبيد !

« عاش المغاورون !

« الموت للامبريالية (اليانكية) ولعصاباتها العسكرية !

« والحرية لكل الوطنيين المعتقلين أو المنفيين !

« نيانكاهواسو » في نيسان ١٩٦٧ .

جيش التحرير الوطني

على أن هذا البيان لم ينشر عملياً في بوليفيا ، الا في دوائر سياسية ضيقة . لقد عبر الحدود وأعيد نشره في بلدان مختلفة ، ولكنه لم يغير شيئاً من انطباع ذوي البصيرة الأوضح رؤيا بين المراقبين : وهو ان المغاورين كانوا واقعين في مصيدة ، وانهم غدوا تحت رحمة جيش يتزايد دربة على القتال في الغابة الاستوائية .

وانتقل طابور من المغاورين متجهاً إلى الشرق، نحو منطقة يمر فيها الخط الحديدي الذي يربط بين «جاكويبا» على الحدود الأرجنتينية وبين (سانتا كروز) في الشمال ، فدارت معارك جديدة في ضواحي (الاسبينو) و (موتشيريا) ، ثم تابع الطابور تقدمه نحو الشمال ، فاجتاز نهر «ريوغراندي» غير بعيد عن المدينة الصغيرة الهادئة «أبابو» ؛ حتى إذا بلغوا ضفته اليسرى تقدموا في اتجاه ملتقاه مع رافده (روسيتاس) حيث دارت مناوشة صغيرة . ولكن ما وصل الطابور الى « موروكوس) وهو يساير النهر حتى كان له صدام عنيف مع الجيش قتل خلاله ثلاثة مغاورين .

كان هذا الطابور يضم نخبة العناصر الملتفة حول (تشي) ، وبينهم قدماء المحاربين في كوبا . وكان هدفه من محاولة التقدم نحو الشمال أن يبلغ الطريق العام الذي يربط بين (كوتشابامبا) و (سانتاكروز) ، فيعمل باقترابه من المناطق المأهولة أن يتخلص من عزلته الكلية في (نيانكا هواسو) ، وكان يقود الطابور (القومندان آكونيا نونييز) ، وهو رجل حصيف واع لمسؤولياته ، ما كان ليجازف برجاله دون فائدة ، وإن كان أهلاً للاقدام حيث يقتضي الأمر الشجاعة .

وبالفعل ، استطاع (آكونيا نونييز) أن يقوم بمناورة ممتازة : ففي ٧ تموز ١٩٦٧ قطع بمغاوريه الطريق بين (كوتشامبا) و (سانتاكروز) ، في منطقة (لاس كويفاس) ، وقطع الاسلاك الهاتفية واستولى على سيارة نقل كبيرة . وبفضل هذه السيارة ، التي كان يسافر فيها طلاب متحمسون أسعدهم أن يعيشوا

فجأة مغامرة استثنائية تشبه الروايات ، استطاع المغاورون أن يدخلوا قرية (سامايباتا) الصغيرة القريبة من الطريق . ولم يدم احتلال (سامايباتا) أكثر من ساعة ، ولكنه كان ذا آثار سياسية ضخمة . فبينما كان بعض المغاورين يعتقلون رجال السلطات المحلية كان الآخرون يجمعون ما يقع تحت أيديهم من ثياب وأغذية ودواء ، بل اتسع لهم الوقت ليخطبوا ود الفلاحين الذين كانوا ينظرون إليهم بعيون واجفة .

وحين وصلت إلى «لاباز» للدفاع عن « سيرو بوستوس » يوم ١٢ تموز ، بعد هذا الحادث بخمسة أيام ، كان واضحاً أنه هزّ الرأي العام حتى أعماقه : لقد رأى المغاورين ، الذين كانوا حتى ذلك اليوم مقطوعين عن العالم كله ، يثبتون أن لهم من سعة الخيال والشجاعة ما يسمح لهم بأن يسخروا بالجيش تحت أنفه ، وأن يستولوا على إحدى القرى فيأخذوا منها كل ما شاؤوه مما كانت لهم به حاجة . وكان الناس يتحدثون عن هذه الحكاية وكأنها لا تعنيهم وإن تحمسوا لمتابعة فصولها ، فيقرأون روايتها في الصحف ويعرفون أتفه تفاصيلها ويضيفون إليها ما شاء لهم الخيال . وكانت حكومة « بارينتوس » تحاول مقاومة عدوى الذعر ، ولكنها عرفت في تلك الأيام ساعات صعبة .

كانت « الحركة القومية الثورية » لا تتعارض مع حركة الغوار ، ولكنها – شأن كل الأحزاب الأخرى – كانت عازمة على استغلال قيام هذه الحركة للخلاص من الحكومة العسكرية . وأدرك « بارينتوس » وزملاؤه هذه اللعبة فحاولوا إحباطها ، ونجحوا في ذلك بعض النجاح على الصعيد السياسي بإعلانهم حالة الحصار في الأيام الأولى من حزيران ، ملحقين هذا الإجراء باعتقال عدد من المحرضين السياسيين كانوا في أكثريتهم الكبرى من أعضاء « الحركة القومية الثورية » ، ومحاولين بعد ذلك اتهام زعماء هذا الحزب بالاشتراك في حركة الغوار الشيوعية . ولكن سكان المدن ضاقوا ذرعاً بهذه الوسائل الارهابية ، ولجأ سياسيون عديدون إلى تجمعات عمال المناجم .

هكذا شهد حزيران وتموز أكبر قدر من الاضطراب السياسي في كل بوليفيا. ففي ٢٤ حزيران هاجم الجيش عمال المناجم الذين كانوا يتظاهرون في منطقة « كاتافي » ، فذهب ضحية لعملية القمع هذه أربعون قتيلاً وأكثر من مائة جريح . على أن هذه المذبحة ، التي عرفت باسم « مذبحة سان خوان » ، لم تخدم قضية مغاوري « تشي » : لقد خلقت عزلة هؤلاء المغاورين وضعاً رهيباً جعل حركتين متوازيتين تنزلقان إلى الخسار لأنهما عجزتا عن التفاهم والتعاون .

على أن قضية « سامايباتا » أثارت الهزء بالحكومة وأثارت التساؤل حول مدى فعالية الجيش ، تساؤلاً كان هو الآخر يعني الشك بالحكومة ، فلم تنقض ثلاثة أيام حتى كان حزبان من الأحزاب الثلاثة التي تؤلف الجبهة الرسمية يسحبان تأييدهما لها ، مما هز النظام هزة بالغة .

أمام هذا المناخ المتزايد العداء حاول الجيش أن يثأر لنفسه ، فخاض يوم ٢٠ تموز معركة على ضفاف نهر « موروكوس » حيث كان « تشي » ورجاله قد أقاموا معسكرهم .

وكانت هذه أول مرة تنطلق فيها المبادرة من الجيش ، وأول مرة يؤخذ فيها « تشي » على غرة . وكانت نتيجتها أن استولى العسكريون على عتاد لا يقدر بثمن في حساب المغاورين : عشرة أكياس تحوي أجهزة استماع وأجهزة مرسلة لاقطة وأسلحة وذخائر .

وابتداءً من هذا اليوم اتسم هجوم الجيش بطابع أشد تصلباً ومنهجية . وبدأ المغاورون يستشعرون أثر الرماة الأمريكيين المحترفين المتخصصين بمكافحة العصابات ، ولا سيما أولئك الذين أرسلوا مباشرة من فيتنام وأخذوا يدربون ستمائة من « رجال الصاعقة » البوليفيين تدريباً مكثفاً ، كان يدوم تسعة عشر أسبوعاً تخصص الأيام السبعة الأولى منها لتمارين استخدام البندقية ومدفع

الهاون ، والتعمية ، وتحديد الأهداف ، والإصغاء إلى التنقلات الليلية ، ثم يأتي بعدها دور التدرب على أساليب الكائن والكائن المضادة ، ويستمر هذا التعليم حتى ارسال « المتخرجين » إلى المعركة . ولقد كان « رجال الصاعقة » البوليفيون تلامذة أكفاء ، اعترف « تشي » ببسالتهم وطاقتهم على المقاومة . أما « القومندان شلتون » قائد فرقة التدريب الأمريكية فقد كان أكثر اهتماماً بالجانب الاقتصادي من حرب الغوار في بوليفيا . كان يقول :

– ان قتل واحد من « الفيتكونغ » يكلف ٤٠٠ الف دولار . أما بوليفيا فأسعارها أرخص بكثير .

وقد أتيح لي بعد قليل ، في شهر ايلول ، أن أدرك مدى صحة تقدير « شلتون » هذا ، حين حضرت احتفالاً مؤثراً كانت الغاية منه مكافأة « رجال الصاعقة » بعد معركة ضد المغاورين انتصروا فيها ولكن خسروا عدداً كبيراً من القتلى . كان ذلك في « سانتا كروز » ، وكان هنالك خمسة وثلاثون جندياً قد اصطفوا في الفناء المركزي من بناء قديم أصبح يستخدم كثكنة . وكنت قد ذهبت إلى هذه الثكنة أطلب تصريحاً بالمرور لمتابعة سفري حتى « كاميري » ، ولكن القائد العسكري للموقع جعلني أنتظر بضع ساعات . وفجأة ، وقف الجنود وقفة التحية ووصل وجهاء المدينة وأعضاء اللجنة الادارية لنادي « الروتاري » المحلي . وكانوا يحملون معهم صرراً صغيرة كدسوها على منضدة من خشب . وسمعنا خطاباً دافع فيه صاحبه عن المدنية الغربية ، ثم نهضت سيدة أخذت توزع الصرر ، فسارع الجنود إلى فتحها فاستطعت أن أرى ما تحويه : ثياباً داخلية وعلبة سردين . ذلك كان أجر الهول ، وتلك كانت جائزة أولئك الذين كانوا يجازفون بحياتهم في مقاتلة المغاورين . لقد كان « القومندان شلتون » صادقاً وهو يقارن بين ما تكلفه ابادة مغاور في غابات بوليفيا العذراء

وما تكلفه في فيتنام .

ويوم ٣١ آب نصب الجيش فخاً لكتيبة « القومندان آ كونيا نونييز » ، التي كانت تضم سبعة عشر مغاوراً .

كان الكمين قد أعد بعناية فائقة ، على أثر خبر نقله ابن أحد الفلاحين لأحد الجنود : لقد كان أبوه يصطاد في « ريو غراندي » حين دخل المنزل فجأة مغاوران يبحثان عن طعام ، وقد وعدا أن يعودا ثانية في اليوم التالي .

وكان ذلك في « فادو دجيسو » ، عند ملتقى مياه « الماسيكوري » الرقراقة بتيار « ريو غراندي » الفوار المحمل بالرمال ، الذي يمتد وراء ضفافة دغل كثيف .

وحين علم الجنود بالنبأ أمروا زوجة الفلاح الغائب أن تعود إلى منزلها فتلبث فيه منتظرة زيارة المغاورين ، بينما تكمن القوة العسكرية في ظلال الغابة . وآب صاحب المنزل من صيده فاستقبلوه بتعليمات مختصرة : كل ما عليههو أن يلبس قميصاً أبيض ، حتى لا يخلط الجنود بينه وبين المغاورين .

وأخيراً ، ظهر «القومندان آ كونيا نونييز » واجتاز النهر وشرب منمياهه. ثم بدأ الآخرون يقطعونالنهر وراءه. وفي اللحظة التي كان يقترب فيها من الغابة فتح الجيش النار . وانطلقت رصاصتان من « آ كونيا نونييز » ومن جندي في مواجهته فسقطا كلاهما صريعين في نفس اللحظة . وإذ ذاك أخذ المغاورون يتخففون من الأكياس التي يحملونها ليصبحوا أقدر على الحركة ، فلم يمض إلا قليل حتى كان التيار يحمل رزماً يصعب تمييزها : أهي أكياس أم رجال ، فمن العقبة المقابلة كان الجنود يطلقون النار على هؤلاء وعلى تلك . واصطبغ النهر بلون الدم . وفقدت كتيبة المغاورين تسعة من رجالها السبعة عشر . أما الثمانية

الآخرون فاستطاعوا الارتداد والنجـاة ، ولكن بلا قائد ، ويـكادون أن يكونوا بلا سلاح .

على أنهم لم ينجوا حقاً : فبعد يومين فحسب عادوا إلى الالتقـاء مرة أخرى بالجيش ، في « ياخو بامبا » ، في نفس المنطقة من « ريو غراندي ». وسقط منهم قتلى أربعة . هكذا بادت ، إلا قليلاً ، كتيبة « القومندان آ كونيا نونييز » التي طالما أثارت الهلع .

في خلال ذلك ، كان « تشي » في تنقل مستمر مع رجاله . وكانوا اذ ذاك لا يتجـاوزون العشرين ، ولا يجـدون ما يؤودهم إلا بشق الأنفس ، ولا يستطيعون الاتـكال على عون الفلاحين ، الذين لم يلتحـق أي منهم بالحركة في أي حين .

ولست أملك إلا أن أعود بذهني إلى حملة لينين في بولونيا . ان الكلمات التي استخدمها لينين ليفسر هزيمته أمام « كلارا زيتكين » [١] ، تبدو وكأنها قيلت في وصف حال « تشي » : « كانت طليعتنا الباسلة تفتقر إلى الرجال والعتاد ، وتفتقد الخبز بصورة منتظمة ، فكان لا بد لها أن تستولي على الخبز والطعام لدى الفلاحين البولونيين.ولذلك رأى البولونيون في رجال جيشنا الأحمرأعداء لهم ، لا أشقاء ومحررين » .

فغيفارا ورجاله ، وقد أصبحوا هم أيضاً بلا ذخيرة وبلا قوت ، لم يعـد أمامهم إلا الهرب المستمر ، عـبر مناطـق « كاراباري » و « جوكوي » و « تيكوتشا » . ولكن ، حتى هذا الهرب لم ينقذهم . فلقـد اضطروا إلى خوض معركة عند شعب « ايكوبرا » ، خسر « تشي » خلالها أحد رجاله ،

(١) راجع كتابها « ذكريات عن لينين » .

ومزيداً من العتاد ، ومجموعة ثمينة من الوثائق لم تلبث أن انضافت اليها بعد قليل وثائق أخرى عثر الجيش عليها في أربعة مخابىء مختلفة ، أحدها مخبأ مقر هيئة قيادة « تشي » في « نيانكاهواسو » ، الذي انتهت السلطات باكتشافه .

ويوم ٢٢ ايلول ، قام وزير خارجية بوليفيا بعرض هذه الوثائق في واشنطن ، وكشف عن أمر وجود « غيفارا » في بلاده أمام جميع سفراء دول أمريكا اللاتينية المجتمعين في مقر « منظمة الدول الأمريكية » . وكان لبيان الوزير البوليفي أثر غير منتظر ، اذ لم يكد أحد من الحاضرين يقتنع بأن الصور المعروضة هي حقاً صور « تشي » ، إما لأنهم كانوا يحسبونه ميتاً منذ وقت بعيد ، وإما لأن النظام البوليفي لم يكن موضع ثقتهم .

ومع ذلك ، في تلك اللحظة نفسها كان غيفارا وسبعة عشر من رجاله يبحثون لأنفسهم عن مخبأ ، محاولين تفادي الوقوع بين أيدي ألف وخمسائة من « رجال الصاعقة » أرسلهم الجيش في أثرهم . ذلك لأن الصور التي لم تقنع السفراء أقنعت القادة العسكريين وقضت على آخر ما كان يساورهم من شكوك ، فأصبحوا على يقين من أن « تشي » كان مختفياً في شعب يحجبه الدغل الكثيف عن الأعين ، ولكن الهرب منه مستحيل لأن كل مخارجه مكشوفة كاملة العري .

وزاد على ذلك شهادة مغاور تخلى عن رفاقه واستسلم للجيش ، في أواخر ايلول ، مستغلاً العفو الذي وعد به كل أولئك الذين يستسلمون على الفور . وقد قال هذا الهارب ان « تشي » مريض أشد المرض ، مع انه لا يبدو أن هذا كان صحيحاً ، على الأقل في الوقت الذي أدلى فيه بشهادته .

ففي ٢٦ ايلول دارت معركة في « ايغيراس » ، قريباً جداً من وادي « جورو » . كانت معركة طويلة خاضها المغاورون في وضح النهار ، ولذلك

اضطروا الى ترك قتلاهم الثلاثة ، وبينهم الزعيم البوليفي « روبرتو بيريدو » . وكانوا قد تزودوا لتوهم ببعض الطعام والدواء حين دهمتهم دورية عسكرية فاضطروا الى مقاتلتها .

وبعد هذه المعركة أخذت جماعة « تشي » الصغيرة تتفرق خلال النهار ليكون أفرادها أقدر على الحركة ، ثم تعود فتلتقي في الليل في أمكنة متفق عليها من قبل . وكان على (تشي) أن يتعرف جيداً على المنطقة التي يتنقل فيها قبل أن يختار اتجاهه . وهذا ما كان يشغله يومي ٦ و ٧ تشرين الأول ، بعد انقضاء أحد عشر شهراً من العمليات العسكرية في الغابة العذراء . ومذكراته ، التي كتب فيها آنئذ ان حركة الغوار كانت قد نمت حتى ذلك الحين (دون تعقيد) ، تسمح بالاعتقاد بأنه كان لا يزال ينظر الى المستقبل نظرة تفاؤل .

على ان المغاورين في ذلك اليوم مروا ببعض الفلاحين فتبادلوا معهم الحديث . قالت لهم عجوز تحرس عنزة انها لم ترَ جنوداً في المنطقة منذ بعض الوقت ، ولكنهم لم يطمئنوا الى صدق قولها . وبعد الظهر دخل بعضهم أحد المنازل فوجدوا فيه امرأة أخرى مع طفلة صغيرة في فراشها ، فأعطوهما بعض المال ليشتروا به صمتها ، على غير كثير من الأمل .

وبعد ذلك تابعوا مسيرتهم على أرض نمامة ، هي حقل بطاطس قريب من مجاري السقي المتفرعة من نهر (جورو) ، فتركوا آثار خطاهم على ترابها الطري .

ويوم ٨ تشرين الأول قالت احدى القرويات للجيش انها سمعت أصواتاً في وادي نهر (جورو) ، غير بعيد عن المكان الذي يصب فيه هذا المجرى في نهر (سان انطونيو) ، فأرسل العسكريون عدة دوريات تستطلع . وحوالي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر كانت طلقة من رشاش تعلن ان (رجال الصاعقة

قد اكتشفوا موضع المغاورين .

وكان المغاورون في طابور ، طليعته عامل المناجم البوليفي « سيمون كوبا » ، وهو من نخبة الرماة : كان يطلق النار حتى يفرغ سلاحه ، ثم يخفي نفسه بسرعة . ووراءه كان « تشي » ، الذي أطلق النار هو الآخر ولكنه تلقى بضع رصاصات في ساقيه . وإذ ذاك حمله « سيمون كوبا » على ظهره في مبادرة بطولية ، وحاول الابتعاد به عن خط النار ، ولكن رصاصة أخرى جرحت « تشي » من جديد وأسقطت عمرته عن رأسه ، فأنزله « كوبا » إلى الأرض وعاد ليستأنف إطلاق النار. ولكن رجال الصاعقة كانوا قد أحاطو به على أقل من عشرة أمتار ، فأمطروه برصاصهم معاً .

وعلى رغم أن « تشي » كان في موقف ميئوس منه ، حاول أن يقاوم مرة أخيرة: استند باحدى يديه ،وأمسك بندقيته بالأخرى يحاول اطلاق النار منها على ثقلها . ولكنه لم يستطع استخدامها أكثر من بضع دقائق ، اذ أصابته رصاصة جديدة في ساقه اليمنى ، بينما اصطدمت أخرى بعقب البندقية فانكسر ، وسقطت البندقية من يده ، واستقرت الرصاصة في ساعده الأيمن .

وإذ ذاك أحاط به المحاصرون وأسروه .

وكانت به جروح عديدة ولكن حياته لم تكن في خطر . كما أنه ظل محتفظاً بكل وعيه ، بدليل أن أحد محاصريه كان قد جرح في فخذه فأخذ دمه ينزف بغزارة ، فأنقذه « تشي » إذ أمرهم أن يشدوا لفافة على أعلى فخذه.

منذ تلك اللحظة أصبح مصيره رهن ارادة شخصين : أولهما « الكابتين غاري برادو سلفادو » ، آمر رجال الصاعقة في « السرية الثانية » التي أسرت « تشي » ، وثانيهما « الكولونيل أندريس سلنيتش » ، قائد « الفرقة الثالثة » والرئيس المباشر للأول .

وكان « برادو » قد درس في الولايات المتحدة ، وهو ابن لجنرال في الجيش القديم كان وزيراً للحربية ذات يوم . كان « أرستقراطياً » ، من أولئك

الذين يسميهم الجنود في احترام : « فارس انكليزي » . أما « سلنيتش » فكان هو الآخر « أرستقراطياً » على طريقته : ففي جيش تسعة أعشار رجاله يجري في عروقهم دم السكان الأصليين ، كان « الكولونيل سلنيتش » مزهواً بسلالته الأوربية التي تضفي عليه بعض الوجاهة .

وتحدث غيفارا مع الرجلين : سأل كلاً منهما إلى أي وحدة ينتسب ، وماذا كان ميدان ثقافته العسكرية ، وهل تدرب في مدرسة مكافحة المغاورين في « بناما » . وكانت جراحه تؤلمه ، وكان من الواضح أنه يضعف وان لم يكن به أي نزيف ذي شأن . وكان عاجزاً عن تغيير وضع جسمه ، كلما حاول القيام بحركة اضطر إلى الرجوع عن محاولته .

واستعد الجنود لنقله الى « ايغيراس » ، على بعد اثني عشر كيلو متراً من مكان المعركة ، فمددوه على غطاء من أغطية الجيش ، وحمله أربعة رجال ، حتى اذا بلغوا القرية وضعوه في غرفة عارية في مدرستها .

وفي الساعات التالية كان الجو متوتراً بين الضباط ، بينما كان الجنود لا يتوقفون عن التعليقات الهامسة . ومن المعروف أن « الماجور نينيو غوسمان » طلب أن ينقل غيفارا بطائرة « الهليكوبتر » التي يقودها ، بحيث يمكن ايصاله في عشرين دقيقة إلى « فيليا غراندي » . بل يقال انه تشاجر مع « الكولونيل سلنيتش » ، الذي كان يصر على منح أولوية النقل لجنوده الجرحى .

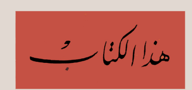
ودارت للذين اعتقلوا غيفارا مشاورات عديدة مع السلطات العسكرية ، ولا سيما مع « خواكيم سنتينو آناجا » قائد « اللواء الثامن » ، الذي كان على اتصال هاتفي مع العاصمة « لاباز » . وفي فجر التاسع من تشرين الأول انتهت المشاورات ، وصدر الأمر بإعدام « تشي » في الصباح نفسه ، في المكان الذي كان سجيناً فيه .

كان يقتعد الأرض ، مستنداً بجانبه إلى الجدار ، يتنفس بمشقة . ودخل رجلان فلم يرهما لفوره ، بسبب الظل الذي كان فيه .

واقترب « الكابتين برادو » من خلفه وأفرغ في ظهره رصاص رشيشه ، من أعلى إلى أدنى ، فأصابته أربع طلقات . أما « الكولونيل سلنيتش » فلم يطلق الا رصاصة واحدة من مسدسه ، اخترقت القلب واحدى الرئتين . وكانت تلك رصاصة الرحمة . ومات « تشي » .

وحين جاء الجنود فأخرجوا الجثمان من مكان الجريمة ، لم يستطع الجلادان أن يكتما رعدة فزع : كانت عينا غيفارا مفتوحتين ، وادعتين ، وعلى شفتيه تطفو ابتسامة كنت تستطيع أن تقرأ فيها كل ازدرائه لهما وكل الحب الذي حمله مدى حياته لباقي الانسانية .

الفهرست



يتولى ريكاردو روخو ، صديق غيفارا ، في هذا الكتاب كتابة سيرة ذاتية لغيفارا . لاتتناول شخصية غيفارا فحسب بل تتناول بالاضافة الى ذلك الخلفية السياسية والاجتماعية لهذه الشخصية النادرة .

وبهذا يكون الكتاب اول مرجع من نوعه .

Mouyn

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٥٠٠ ق. ل.
٦٠٠ ق .س.